

اعداد مكتبة الروضة الحيدرية المكتبة الرقمية

الرسالة الأولى
الجزء الأول

مدينة دمياط
وأهميتها في الحروب الصليبية
(٥٦٤-٦٤٨هـ / ١١٦٨-١٢٥٠م)

رسالة تقدم بها
فواز نصرت توفيق

إلى مجلس كلية التربية في جامعة تكريت
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في
التاريخ الاسلامي

بإشراف
الأستاذ المساعد
الدكتور حسين حديس جاسم الجميلي

١٤٢٦هـ
٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

ولو شئنا لرفعنه بها لكنه أخلد إلى الأرض
و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث
أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا

فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

صدق الله العظيم

سورة الأعراف/ الآية ١٧٦

إقرار المشرف

أشهد بأن إعداد هذه الرسالة قد جرى تحت إشرافي في كلية التربية - بجامعة تكريت، وهي جزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي .

التوقيع:

المشرف: أ.م.د.حسين حديس جاسم الجميلي

التاريخ : / / ٢٠٠٥ م

إقرار المقوم اللغوي

أشهد بأن هذه الرسالة الموسومة بـ ((مدينة دمياط و أهميتها في الحروب الصليبية)) قد قمت بمراجعتها ،وأصبحت مؤهلة للمناقشة قدر تعلق الأمر بالسلامة اللغوية.

التوقيع:

الاسم: عادل صالح علاوي

التاريخ : / / ٢٠٠٥ م

إقرار رئيس لجنة الدراسات العليا

بناءً على التوصيات التي تقدم بها الأساتذة المشرف و المقوم اللغوي ، أرحش هذه الرسالة للمناقشة.

التوقيع:

الاسم:

رئيس لجنة الدراسات العليا

التاريخ : / / ٢٠٠٥ م

قرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة التقويم والمناقشة، أننا اطلعنا على الرسالة، وناقشنا الطالب في محتوياتها
وفيما له علاقة بها بتاريخ / / ٢٠٠٥، وإنها جديرة لنيل درجة شهادة الماجستير في اختصاص
التاريخ الاسلامي

التوقيع:

الاسم: أ.م.د. ناصر عبد الرزاق ملا جاسم

عضو اللجنة

التاريخ: / / ٢٠٠٥ م

التوقيع:

الاسم: أ.م.د. طلب صبار الجنابي

عضو اللجنة

التاريخ: / / ٢٠٠٥ م

التوقيع:

الاسم: أ.د. جزيل الجومرد

رئيس اللجنة

التاريخ: / / ٢٠٠٥ م

قرار مجلس الكلية

اجتمع مجلس الكلية التريية بجلسته

المنعقدة بتاريخ / / ٢٠٠٥ وقرر

مقرر مجلس الكلية

عميد الكلية

شكر وتقدير

الحمد لله تعالى ، والشكر له أولاً وآخراً الذي مَنَّ علينا بنعمة الإسلام ونعمة العلم والهداية ، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بعد أن أنهيت رسالتي لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بوافر الشكر

والعرفان إلى أستاذي الفاضل الدكتور حسين حديس جاسم الجميلي ، المشرف على إعداد الرسالة، التي أخذت من وقته وجهده الشيء الكثير بما أظهرها بهذا الشكل والمضمون الذي أفضت إليه ، أدعو الله له بالتوفيق . كما أتقدم بشكري وتقديري إلى رئيس قسم التاريخ وأساتذتي في السنة التحضيرية ، ولولا جهودهم لما وصلت إلى هذه المرحلة .

كما أتقدم بالشكر و التقدير إلى الأساتذة في جامعة الموصل و أخص بالذكر الأستاذ الدكتور جزيل الجومرد الذي أفادني بملاحظاته السديدة و التي ذلت لي كثيراً من الصعوبات . والدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم الذي أفادني بملاحظاته الرشيدة وفتح أبواب المكتبة المركزية في جامعة الموصل على مصراعها لتزويدي بالمصادر إلى نهاية البحث . كما أشكر الدكتور طلب صبار الجنابي الذي أفادني بملاحظاته المهمة وزودني و أرشدني إلى بعض المصادر المفيدة للبحث. كما أشكر الأستاذ عادل صالح علاوي المقوم اللغوي لرسالتي .

و أتوجه بشكري وتقديري إلى كل العاملين بالمكتبة المركزية بالموصل، وموظفي مكتبة كلية التربية في جامعة تكريت .

وفي الختام أشكر كل من أفادني و أخذ بيدي و ساعدني في إنجاز هذه الرسالة، و أدعولهم جميعاً بالتوفيق ، وجزاهم الله عني خير الجزاء، ووفقهم لكل ما يحبه ويرضاه، إنه سميع الدعاء .

الباحث

Abstract

Egypt and Syria were fields for crusades in medieval centuries But-Dimyat city was the most distinguished and important place which was aimed by those wars and for this reason ,I have chosen this research bearing the title (Dimyat city and its role in Crusade).

In order to know the steady role of this city ,I made the first part of this thesis a primary chapter. I mentioned through it the background of this city, and its geography.

I dealt with the name of the city and its history before Islamic invasion and after it as well as its military importance. I also dealt with the city location and its plans. I concentrated on the military position, as well as, towers and the iron chain as well as its population and economic importance .

The second chapter is special for the crusade on Dimyat during – Nor Eldin and –Saladdin's era.I tried to concentrate on the crusade from preparation for war and the Islamic position with the political and military procedure taken by - Nor Eldin Mohmood as a general leader for the Islamic troops and the procedures taken by –Saladdin- as a field leader of the battle , and how the Islamic forces could defeat the invaders and prevent them from occupying the city.

In the third chapter, I studied the crusade campaign on Dimyat which was called the -fifth crusade-and happened during the era of the –Just king-(Al Adil) and its events which continued up to his Son's time ,the perfect king (Al Kamil)I focused light on both positions ,the crusaders and the Islamic and the phases of the battle between the two forces and how the crusaders forces were able to occupy Dimyat after an eternal stand and strong defence for a long time by its population.Then I continued to explain the Islamic reactions after the occupation of the city. I mentioned the political and military procedure taken by the king, the perfect(Al Kamil) and how the city was freed and how the dominators were rejected.

The fourth chapter is reserved for discussing the crusade campaign which was called-the seventh crusade-that took place during-Good King's era (Al Salih) and its events went on until his son's era –Turan Shah-.

Like the previous chapters, I have dealt with the investigation and study the crusade position and the Islamic one and how the crusaders could occupy the city and the stages of the battle between the two forces that ended in the liberation of the city and returning of its sovereign.

The conclusion included the important results that I have gained.

قائمة المختصرات

المختصر	دلالتة
هـ	هجريّة
م	ميلاديّة
ت	توفي
ج	جزء
ع	عدد
مج	مجلد
ق	قسم
لا.ت	لا تاريخ طبع
لا.م	لا مكان طبع
ص	صفحة
ط	طبعة
p	صفحة
NO.P	بدون رقم الصفحة
NO.D	بدون تاريخ طبع
V	جزء
إن وضع ثلاث نقاط داخل أي نص يعني رفع عبارة أو بضع كلمات لا ضرورة لها	

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢-١
تحليل المصادر	٨-٢
الفصل الأول	٣٠-٩
الخلفية الجغرافية والتاريخية لمدينة دمياط وأهميتها الاقتصادية والعسكرية	
ولاً. الخلفية الجغرافية	٩
أ. موقع دمياط	٩
ب. سكان دمياط ومساحتها	١٢
ج. تخطيط دمياط	١٣
ثانياً. الخلفية التاريخية	١٧
أ. تسمية دمياط	١٧
ب. دمياط قبل الفتح الاسلامي	١٩
ج. دمياط من الفتح الاسلامي حتى الغزو الصليبي	١٩
ثالثاً. أهمية دمياط الاقتصادية والعسكرية	٢٥
أ. أهمية دمياط الاقتصادية	٢٥
ب-أهمية دمياط العسكرية	٢٩
الفصل الثاني	٦٤-٣١
الغزو الصليبي لمدينة دمياط في عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي	
ولاً. دوافع الغزو الصليبي لمدينة دمياط سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م	٣١
أ-الأهمية الاستراتيجية لموقع دمياط	٣١
ب. الدوافع الاقتصادية	٣٥
ج. الدوافع الدينية	٣٦
ثانياً. الموقف الصليبي بعد ضم مصر إلى نور الدين	٣٧

٣٧	أ - الموقف السياسي (التحالف الصليبي البيزنطي)
٤١	ب . خطة المعركة لاحتلال دمياط
٤٩	ثالثاً . الموقف الإسلامي
٤٩	أ-إجراءات صلاح الدين
٥٤	ب-إجراءات نور الدين محمود
٥٥	رابعاً-سير المعركة
٥٩	خامساً-نتائج المعركة
٦٠	أ-الخسائر المادية والبشرية
٦١	ب-تحول صلاح الدين من الدفاع إلى الهجوم
٦٣	ج-الاهتمام بصناعة السفن
٦٣	د-وحدة الدولة الإسلامية
١٠٥-٦٥	<p style="text-align: center;">الفصل الثالث</p> <p style="text-align: center;">دمياط والحملة الصليبية الخامسة</p>
٦٥	أولاً-الموقف الصليبي
٦٥	أ - التهيئة السياسية:
٧١	ب-التهيئة العسكرية:
٧٣	ج - سير الحملة
٧٧	د - احتلال دمياط
٨٨	ثانياً-الموقف الإسلامي
٨٨	أ - التهيئة السياسية والعسكرية قبل احتلال دمياط
٩٠	ب - التهيئة السياسية والعسكرية بعد احتلال دمياط
٩٤	ثالثاً-سير المعركة
٩٦	أ-تقدم القوات الإسلامية ، وتشكيل جبهة عسكرية ، وإعلان النفير العام
٩٧	ب-كسر السدود
٩٧	ج-قطع طريق العودة إلى دمياط
٩٩	د-منع وصول الإمدادات
١٠١	رابعاً-نتائج الحملة

١٣٧-١٠٦	<p>الفصل الرابع</p> <p>دمياط والحملات الصليبية السابعة</p>
١٠٦	أولاً . الموقف الصليبي
١٠٦	أ . التهيئة السياسية
١٠٩	ب . التهيئة العسكرية
١١٠	ج . سير الحملة
١١٤	ثانياً . الموقف الإسلامي
١١٤	أ . التهيئة السياسية
١١٦	ب . التهيئة العسكرية
١١٨	ثالثاً . سير المعركة
١١٨	أ . سير المعركة حتى احتلال دمياط
١٢٣	ب . سير المعركة بعد احتلال دمياط
١٢٦	ج . سير المعركة بعد وفاة الملك الصالح
١٣٣	رابعاً - نتائج الحملة الصليبية السابعة
١٣٩-١٣٨	الخاتمة
١٥٦-١٤٠	المصادر والمراجع
أ-ط	الملاحق

الفصل الأول

الخلفية الجغرافية والتاريخية لمدينة دمياط وأهميتها الاقتصادية والعسكرية

أولاً - الخلفية الجغرافية

- أ. موقع دمياط
- ب. سكان دمياط ومساحتها
- ج. تخطيط دمياط
 ١. الأسوار
 ٢. الخندق
 ٣. السلسلة الحديدية والأبراج والجسور
- د. أهمية دمياط العسكرية

ثانياً - الخلفية التاريخية

- أ. تسمية دمياط
- ب. دمياط قبل الفتح الإسلامي
- ج. دمياط من الفتح الإسلامي حتى الغزو الصليبي

ثالثاً - أهمية دمياط الاقتصادية والعسكرية

- أ- أهمية دمياط الاقتصادية
- ب- أهمية دمياط العسكرية

المقدمة

تعرّضت الدولة العربية الإسلامية في أواخر القرن الخامس للهجرة /الحادي عشر للميلاد، لأشرس حملة استعمارية ، أطلق عليها الحملات الصليبية ،التي انطلقت من الغرب الأوربي مستهدفة أرض العرب والمسلمين ونهب خيراتها والاستيطان فيها مستغلةً ضعف العالم الإسلامي الذي كان يعيش حالة من الضعف والتشرذم والانقسامات ،الأمر الذي أدى إلى نجاح الحملة الأولى منها ، و أسفر عن قيام أربع كيانات صليبية في بلاد الشام و الجزيرة، وهي: إمارة الرها و إمارة أنطاكية ومملكة القدس و طرابلس .حاول الصليبيون من خلالها تنفيذ سياستهم التوسعية في بلاد الشام، وكذلك للوصول إلى مصر المعروفة بأهميتها الاقتصادية وخطورتها على هذه الكيانات. فذكر الصليبيون اهتمامهم على احتلال مصر لتحقيق مشروعهم التوسعي و تأمين وجودهم، مستغلين حالة الضعف التي كانت تعاني منها الدولة الفاطمية في هذه الفترة .

وقد لاحظ الصليبيون من خلال خططهم ومحاولاتهم هذه، أن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هو احتلال مدينة دمياط المهمة التي تعد إحدى أهم مدن مصر الساحلية الواقعة شمالاً على ساحل البحر المتوسط، لما تميّزت به هذه المدينة من أهمية سوقٍ كبيرة، كونها تُمثل حلقة الاتصال بين مصر وبلاد الشام، فضلاً عن كونها مفتاحاً للوصول إلى بقية أنحاء مصر في حال احتلالها. فهذه الأهمية لمدينة دمياط جعلتها عرضة للحروب و الغزو في كل محاولات الصليبيين لاحتلال مصر. كما أن هذه الأهمية دفعت بالطرف الآخر المتمثل بالفاطميين، و الأيوبيين من بعدهم، إلى الاهتمام بها كذلك لاعتبارها صمام الأمان والخط الدفاعي الأهم في المواجهة مع الصليبيين. و هو ما نبهني كباحث ودفعني إلى الاهتمام بهذه المدينة لإبراز أهميتها في فترة الحروب الصليبية، و اختيارها موضوعاً لدراستي تحت العنوان الموسوم: (مدينة دمياط وأهميتها في الحروب الصليبية)، وذلك لعدم وجود - وحسب إطلاعي - دراسة أكاديمية مستقلة بهذا الموضوع الحيوي المهم، مما دعاني إلى دراستها دراسة علمية شاملة، ركزت فيها على أهمية هذه المدينة وما تحملته من معاناة و تضحيات جسيمة جراء الحروب الصليبية و لثلاث مرات، ابتداءً من الفترة النورية الصلاحية -ومروراً بتعرضها للحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة، وما عانتها هذه المدينة من ويلات تلك الحروب وما سببها... وقد بذلت في ذلك جهداً كبيراً ، تَوَخَّيتُ فيه الدقة والمنهج العلمي للوصول إلى الحقيقة التاريخية.

وقد اشتمل البحث على أربعة فصول وخاتمة ،تضمن الفصل الأول :الخلفية الجغرافية و التاريخية للمدينة وأهميتها الاقتصادية والعسكرية، وأهميتها الاقتصادية ،بدءاً بتخطيط المدينة، ولما كانت

الحروب الصليبية هي محور الرسالة ، فقد اقتصرنا في دراسة خططها على ما يتعلق بالتحصينات العسكرية لها المتمثلة بالأسوار والخنادق والسلاسل الحديدية والأبراج. وكذلك دراسة موقعها و الوضع الطبوغرافي لسكانها ومساحتها. كما تناول الفصل دراسة خلفية دمياط التاريخية ابتداءً بالتسمية، ثم بيان رؤية تاريخية عنها لفترة ما قبل الفتح الإسلامي لها وبعده حتى الغزو الصليبي. ثم تناولت دراسة أهمية دمياط الاقتصادية والعسكرية بالنسبة لمصر .

أما الفصل الثاني: فقد تناول تعرض المدينة للغزو الصليبي في عصر نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م)، و قد بينت الموقفين الصليبي والإسلامي من هذه الحرب، من تهيئة سياسية وعسكرية ، وسير المعركة ، ثم خلصت إلى النتائج التي أسفرت عنها هذه المعركة.

كما اشتمل **الفصل الثالث** على دراسة دمياط والحملة الصليبية الخامسة التي امتدت أحداثها ما بين : (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) – (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م)، و قد تناولت فيه كذلك الموقف الصليبي، ثم الموقف الإسلامي، و أحداث المعركة وسيرها بين الجانبين ونتائج هذه الحملة.

أما الفصل الرابع: فقد تناول دراسة الحملة الصليبية السابعة على مصر والتي ابتدأت أحداثها سنة (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)، وكيف توجهت إلى مدينة دمياط لاحتلالها مبنياً أحداثها ابتداءً من مرحلة التهيئة السياسية والعسكرية ، ثم سير الحملة إلى دمياط ، وسير المعركة بين الجانبين، و أثرها على هذه المدينة وسكانها، ثم تناولت نتائج هذه الحملة على الجانبين الصليبي والإسلامي .

تحليل المصادر

أما أهم المصادر و المراجع المعتمدة في الرسالة فهي :

أولاً-المصادر الأولية، وتشمل:

أ . المصادر العربية ومنها:

١- كتب التواريخ

ويتصدر هذه الكتب من حيث التسلسل الزمني كتاب (الكامل في التاريخ) ، لابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، و الذي يعد موسوعةً إسلامية تضمّنّت سرد الأحداث بشكل دقيق وموثّب حسب السنين ، وقد أفادني كثيراً في معظم فصول الرسالة، وخاصة في موضوع الحرب الصليبية على دمياط في عصر نورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، والحملة الصليبية الخامسة. كما يعد كتاب (مرآة الزمان في تأريخ الأعيان) لمؤلفه سبط ابن الجوزي المتوفى سنة (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) ، من الكتب التي أفادت

البحث في جوانب مهمة على الرغم من أنه يعتمد كثيراً على ابن الأثير في تناوله للأحداث. أما كتاب (زبدة الحلب في تأريخ حلب)، لمؤلفه ابن العديم المتوفى سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، فهو يوجز ما فصله ابن الأثير، وأفاد البحث في أحداث الحروب الصليبية على مصر في عهد نور الدين وصلاح الدين وكذلك عند تناوله موضوع الحملة الصليبية الخامسة على مصر. أما كتاب (الروضتين في تأريخ الدولتين)، لمؤلفه أبي شامة المتوفى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) فقد تميَّز بسرد الأحداث بتفصيل وموضوعية فكان من المصادر المفيدة للبحث.

كما أن كتاب (تأريخ مختصر الدول) لمؤلفه أبي الفلاح الملقب المعروف (بابن العبري)، المتوفى سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وهو من المؤرخين السريان المعاصرين لأحداث الحملة السابعة، فإنه أمدنا بمعلومات قيِّمة في بعض فصول الرسالة. ومن المصادر المهمة المعاصرة للأحداث أيضاً كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لمؤلفه ابن واصل المتوفى سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م). وقد اعتمد في سرده للأحداث على معلومات مقتبسة عن المؤرخين السابقين له، وعلى مشاهداته الشخصية، فأفاض بمعلومات مهمة ودقيقة عن ظهور صلاح الدين وحرب الصليبيين ضده، كذلك كانت معلوماته مهمة عن الحملة الخامسة على مصر، مما دفعني إلى الاعتماد عليه في كثير من ثنايا البحث.

يضاف إلى ما تقدم مصادر كثيرة أخرى كتبت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ومنها: (المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وكتاب (تأريخ ابن الوردي) لابن الوردي المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وكتاب (البداية والنهاية في التأريخ) لابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، وهو كتاب ينقل الأحداث بشكل دقيق حسب السنين، وهذه المصادر قلَّمت معلومات جليَّة أغنت الرسالة في كثير من محتوياتها.

ومن المصادر التي ينبغي الإشارة إليها في هذا التحليل، تلك التي كتبت في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، إذ جاءت مُكملةً للمصادر التي سبقتها. ومما زاد في أهميتها أنها أعطت الرسالة تسلسلاً تأريخياً، ومنها: كتاب (تأريخ ابن خلدون) المسمى (العبر ودبوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، لمؤلفه ابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م). وكذلك مؤلفات المقرئ المتوفى سنة (٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، وله ثلاث مؤلفات اعتمدت عليها كثيراً منها: (السلوك لمعرفة دول الملوك) و (تليغ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفاء). ويعد الكتابان من المصادر الرئيسة الخاصة بتأريخ الأيوبيين وأحداث الحروب الصليبية بشكل خاص، وهي لذلك أغنت الرسالة في فصولها كافة. أما كتاب (تليغ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفاء) فكانت فائدته مُحَدَّدة ضمن الفصل الثاني من الرسالة والخاص بعصر نور الدين محمود وصلاح الدين

، كون المؤلف قد خَصَّصَ هذا الكتاب للخلفاء الفاطميين والدولة الفاطمية والتي انتهت على يد صلاح الدين سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧٧م) . أما كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لمؤلفه ابن تغري بردي ، المتوفى سنة (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) ، فهو يتضمن تأريخ مصر منذ الفتح العربي إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي ، لذلك كانت فائدته قيِّمة لجميع فصول الرسالة . وفي السياق ذاته كان كتاب (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب) للحنبلي المتوفى سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) ، فهو يتكلم عن أبرز شخصيات بني أيوب ابتداءً من صلاح الدين ونهلهاءً بالملك الصالح نجم الدين وولده توران شاه ، لذلك كانت فائدته عامة بخصوص الحروب الصليبية الثلاث التي آسَتهدت مدينة دمياط .

ومن المؤلفات الأخرى التي كتبت في العصور التالية، واعتمدت عليها في البحث والدراسة، كتابي (تأريخ الخلفاء) و (حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة) للسيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) . فقد كانت مؤلفاته مهمة ، بسبب أخذه للمعلومات من مصادر موثوقة ، رغم كونها من الكتب المتأخرة عن الأحداث . ومنها أيضاً كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس المتوفى سنة (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) ، فقد أفاد الرسالة في بعض جوانبها .

هذا وهناك مصادر أخرى عتمدت عليها في كتابة هذه الرسالة، تركت ذكرها خوف الإطالة.

٢. كتب التراجم

هناك مصادر عديدة من كتب التراجم أغنت الرسالة بكثير من المعلومات القيِّمة وأُحص منها: (سير أعلام النبلاء) للذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٥م) . و (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك) للغساني المتوفى سنة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٠م) ، كذلك كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لمؤلفه الدمشقي المتوفى سنة (١٠٨٩هـ/ ١٦٨٩م) ، فهو ينقل الأحداث عَمَّن سبقه ، لكن أهميته تكمن في ذكره لمعلومات قد لا تكون موجودة في الكتب المعاصرة. وتعود أهمية هذه الكتب إلى أنها تسلط الضوء على الجانب السياسي والعسكري لشخصيات لها صلة مباشرة بموضوع البحث.

٣- كتب السير

ولهذه الكتب أهمية خاصة بما تضمنته من مادة غزيرة في مختلف جوانب حياة الشخصيات التي تناولتها ، لذا فأفادت الرسالة بمعلومات مهمة عن الشخصيات التي تخص الرسالة . ويأتي في مقدمتها كتاب (النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية) أو (سيرة صلاح الدين) لابن شداد المتوفى سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) . وفيه يشرح المؤلف كيف نُصِّل بخدمة صلاح الدين وكيف تَبَوَّأَ مناصب عالية في

دولته ، لذلك فهو يروي الأحداث الخاصة بعهده كما شاهدها. وكذلك كتاب (الكواكب الدرية في السيرة النورية) لمؤلفه ابن قاضي شهبة المتوفى سنة (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م). فقد أفادني هذان الكتابان في ثانيا البحث وبصورة خاصة في الفصل الثاني من الرسالة.

٤ . الكتب الجغرافية والرحلات

كان للكتب الجغرافية أهمية خاصة، بما زُوِّدت به البحث بمادة غزيرة ، سواء على مستوى الموقع وأهميته ، أو على مستوى الأهمية الاقتصادية والعسكرية لمدينة دمياط، وخاصة ما تعلق منها بخططها وسائر النواحي الجغرافية والتاريخية الأخرى . وهي معلومات لا غنى عنها في البحث التاريخي ، ومن بين أهم هذه الكتب، كتاب (البلدان) لليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ/٨٩٧م). وكتاب (الممالك والممالك) للاصطخري المتوفى سنة (٣٤١هـ/٩٥٢م) . وكتاب (صورة الأرض) لابن حوقل المتوفى سنة (٣٦٧هـ/٩٣٧م) . وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي المتوفى سنة (٣٩٠هـ/١٣٨٥م) . وكتابي : (جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك) و (المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب) للبكري المتوفى سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .

وجدير بالذكر أن نخص كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للإدريسي المتوفى سنة (٥٦٠هـ/١١٦٩م) ، وكتاب (معجم البلدان) للحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) . فهذان الكتابان تضمنا معلومات مهمة عن دمياط ، تقوم على المشاهدة و الإطلاع الشخصي على الأماكن والبلدان وأحوالها الاقتصادية .

أما باقي الكتب الجغرافية والتي لا تقل أهمية عن سابقتها ، فهي: (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني المتوفى سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) . و (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لشيخ الرتبة المتوفى سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) . و (تقوم البلدان) لأبي الفداء المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٢١م). و (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة المتوفى سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) . فهذه الكتب وأخرى غيرها حصلت منها على فوائد مهمة في دراسة النواحي الجغرافية والتاريخية ذات الصلة بموضوع الرسالة .

٥ - الكتب الادارية واللغوية

وهي الكتب التي أفادت الرسالة بمعلومات عن الوظائف الإدارية في تلك الفترة ، و التي نخل أيضاً من ذكر الأحداث المنقولة عن المعاصرين. ومن الكتب الإدارية كتاب: (الخراج وصناعة الكتابة) لمؤلفه أبي قدامة المتوفى سنة (٣٢٩هـ/٩٤٠م). وكتاب (صبح الأعشى في صناعة الأنشا) لمؤلفه القلقشندي المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) .

أما الكتب اللغوية وخاصةً المعاجم منها، فقد أفادت الرسالة من جوانب أخرى تتعلق بتفسير بعض الاصطلاحات وبعض المفردات- اللغوية- ومنها (مختار الصحاح) للرازي المتوفى سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، و (لسان العرب) لابن منظور المتوفى سنة (٧١١هـ/١٣١١م).

ب- المصادر المعربة

إن أي دراسة تاريخية للحروب تتطلب الإطلاع على آراء المؤرخين الذين عاصروا الأحداث وشاهدوها، من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية بشكل دقيق، وكذلك للتعرف على رواية الطرف الآخر. ومن أهم المصادر المعربة المعاصرة والمهمة في هذه الفترة هو كتاب (تأريخ الحروب الصليبية . الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) لمؤلفه وليم الصوري المتوفى سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م). فهو في غاية الأهمية للأحداث التي عاصرها وشاهدها ، والخاص منها بالفصل الثاني الذي يتعلق بالتعاون الصليبي-البيزنطي في عصر نورالدين محمود وصلاح الدين، لأنه كان سفيراً لدى بيت المقدس و رئيساً لأساقفة صور، ومستشار للملك بلدوين الرابع، ولعب دوراً خطيراً للتنسيق للحملة المشتركة الصليبية البيزنطية، لذلك لذلك تميز روايته بغناها بالتفاصيل، فكانت المعلومات التي يذكرها في غاية الأهمية، لكونه شاهد عيان ومؤرخ معاصر للأحداث .

ثانياً- المراجع العربية و المعربة

إن المراجع الحديثة ساهمت هي الأخرى في إغناء الرسالة بمعلومات وتحليلات وآراء مفيدة، لأن فيها وجهات نظر مختلفة بين آراء المؤرخين الغربيين في تفسير الأحداث وآراء المؤرخين المسلمين فيها . ومن بين هذه الكتب و أهمها التي تناولت الحروب الصليبية تناولاً شاملاً ، وأفادت البحث ، كتاب (الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) لسعيد عبد الفتاح عاشور، والذي يعد من بين أهم المراجع العربية التي أفادت الرسالة بمواضيع كثيرة، إلى جانب كتب أخرى. مثل كتاب (الحروب الصليبية) لسالم محمد الحميدة. وكتاب (الحروب الصليبية في المشرق والمغرب) لمؤلفه محمد العروسي المطوي . وكتاب (الشرق الأوسط والحروب الصليبية) للسيد الباز العريني . وكتاب (الوطن العربي والغزو الصليبي) للأستاذ المعاضيدي وآخرون . وكتاب (فن الحرب الإسلامي في أيام الحروب الصليبية) لبسام العسلي. وكتاب (الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها) لمؤلفه حسين أحمد أمين. و مراجع كثيرة أخرى لا مجال لذكرها كلها هنا.

في حين تناولت كُتبٌ أخرى جانباً من الحروب الصليبية . ومن هذه الكتب مجموعة كتبها الدكتور

جوزيف نسيم يوسف وهي بعنوان : (لويس التاسع في الشرق الأوسط) و (هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل) و (العدوان الصليبي على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور)، والتي أفادت البحث في الفصل الرابع . كما كان لكتاب (الحملة الصليبية الخامسة) لمحمود سعيد عمران فائدة كبيرة في سرده لأحداث هذه الحملة، لذلك فقد أفادني كثيراً في ثنايا الفصل الثالث من الرسالة.

أما **المراجع المعربة** فإن الاستعانة بها أمراً ضرورياً من أجل الإطلاع على الوقائع والأحداث كما رواها الطرف الآخر، لأن فيها تحليلات وآراء مهمة لا يمكن الاستغناء عنها، والتي من بينها: كتاب (تأريخ الحروب الصليبية) لمؤلفه ستيفن رنسيمان، وكتاب (الحروب الصليبية) لمؤلفه آرنست باركر . وكتاب (تأريخ الحروب الصليبية) لمؤلفه هانس أبرهارد ماير، وكتاب (الحروب الصليبية) لأنتوني ويست، وكتاب (الحروب الصليبية) لمؤلفه ر.سي. سميل، وكتاب (الصليبيون في الشرق) لميخائيل زابوروف، وكتاب : (صلاح الدين الأيوبي دراسات في التأريخ الإسلامي) لهاملتون .آ.ر. جب، وكتاب (القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ٥٠٠-١١٠٠ م) لمؤلفه أرشيبالد ر. لويس . ومن الكتب المعبّوة الأخرى التي تناولت جوانب تاريخية وحضارية أخرى غير الحروب الصليبية لكنها لم تخلُ من إشارات وشذرات أفادت الرسالة ، منها كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) لأدم متز، وكتاب (تأريخ الشعوب الإسلامية) لكارل بروكلمان، وكتاب (تأريخ أوروبا في العصور الوسطى) لمؤلفه ه.أ.ل. فشر .

ثالثاً-المراجع الأجنبية غير المعربة

و من الكتب الأجنبية الأخرى غير المعربة ، و التي أجهدت نفسي في ترجمة ما يتعلق منها بموضوع الرسالة كتاب (A History of Egypt in the Middle Ages) لمؤلفه Stanley (Lane – Poole)، وكتاب (The Crusaders in the East) لمؤلفه W.B . Stevenson ، وكتاب (M.A)، وكتاب (Saladin) لمؤلفه (Andrew S . EhrenKreutz) . وكتاب (The Crusaders) لمؤلفه (Regine Pernoud)، وكتاب (Arab Historians of the Crusades) لمؤلفه (Francesco Gabrieli)، وكتاب (Louis IX and the Challenge of the Crusades) . لمؤلفه (William Chester. Jordan) . كذلك أفادني بالكثير من المعلومات الكتاب الفرنسي (Histoire des Croisades et du Royaame France de Jerusalem) لمؤلفه (Rene Grousset) . يُضاف إلى ما تقدم، الموسوعات الأجنبية التي أفادت الرسالة في نقاط مُحَدَّدة، وهي الموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica)، و الموسوعة الكولومبية (Columbia Encyclopedia)

رابعاً-الرسائل والأطاريح الجامعية

وبما أنه ينبغي على كل باحث أكاديمي الإطلاع على الدراسات الأكاديمية لمن سبقه من الباحثين ، بغية الاستفادة منها في بحثه ، لذلك فقد رجعنا إلى عدة أطاريح جامعية لها علاقة بموضوع البحث ، نذكر منها: (أسلحة الحصار عند العرب حتى نهاية العصر العباسي) ، وهي أطروحة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة بغداد من قبل الباحث محمود عباد محمد الجبوري ، و (عسقلان و الحروب الصليبية للفترة بين ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦-١٢٧٠ م) ، وهي أطروحة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة الموصل من قبل الباحث مصعب حمادي نجم عبد الله الزبيدي ، و (عصر الملك الكامل الأيوبي) ، وهي أطروحة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمه إلى كلية الآداب في جامعة الموصل من قبل الباحثة ذكرى عزيز محمد صالح الصائغ. و (صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأمريكية) ، وهي رسالة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمه إلى كلية الآداب في جامعة الموصل من قبل الباحث ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن ملا جاسم.

خامساً- البحوث المنشورة على شبكة الإنترنت

كما لا بد لي أن أشير إلى البحوث و المقالات المسجلة على شبكة الإنترنت، والتي أغنت الرسالة بمعلومات مفيدة، لا يسعني المجال هنا لذكرها تاركاً بيان تفصيلاتها في نهاية الرسالة ضمن قائمة المصادر والمراجع .

هذا و قد قدمت في الخاتمة ملخصاً لأهم النتائج التي توصلت إليها، كما وضعت مجموعة من الملاحق والخرائط التي تخص البحث . وفي الختام ، فالكمال لله وحده ، ولا يسعني إلا أن أذكر قوله تعالى: ((ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا))، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لخدمة المسيرة العلمية.

الباحث

الفصل الأول

الخلفية الجغرافية و التاريخية لمدينة دمياط و أهميتها الاقتصادية والعسكرية

أولاً-الخلفية الجغرافية

أ-موقع دمياط:

تقع مدينة دمياط على الشاطئ الشرقي لنهر النيل^(١)، شمال الدلتا بمصر^(٢)، وقد وصفها ابن بطوطة، وذكر أنها مدينة مرتفعة عن مستوى النهر، وأن أهل الدور الموالية للشاطئ عملوا مدرجات ينزلون بها إلهلياً ستقوا ماءهم بالدلاء^(٣). كما أنها تقع على ساحل البحر^(٤)، في زاوية بين البحر والنيل. ومن شمال دمياط يصب نهر النيل في موضع يسمى الأشتوم^(٥). و تبعد دمياط عن ساحل البحر مسافة^(٦)، قد دُرّت بحدود عشرين كيلو متر^(٧)، وعن مصب النيل في البحر خمسة عشر كيلومتر^(٨). ولكونها أقرب مدن مصر من المصب فإن النيل ينتهي عندها^(٩) وقد أورد لنا المقرئزي أبياتاً من الشعر في وصف دمياط عند التقاء النيل بالبحر منها:

(١) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، مطبعة الاوفسيت (بغداد/لا.ت)، ص ١١٧؛ وجدي: معارف القرن العشرين، مج ٤، ص ٦٧.

(٢) البغدادي: الإفادة، ص ٦٧.

(٣) رحلة، ص ٤٨-٤٩.

(٤) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح: كتاب البلدان، مطبعة بريل، (لیدن/١٨٩١)، ص ٣٣٨؛ ابن خرداذبه، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله: المسالك والممالك، مؤسسة الخانجي، (مصر/١٨٨٩)، ص ٨٢.

(٥) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣.

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٣٨.

(٧) وجدي: معارف القرن العشرين، مج ٤، ص ٦٧.

(٨) الشتاوي و ابراهيم زكي خورشيد: المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٢٢٨.

(٩) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٣٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٠٧؛ الحميري: الروض المعطار

ص ٥٧. ولمعرفة موقعها ينظر الخارطة في الملحق رقم (١).

مليكان سارا في الجحافل من جد

كأن التقاء النيل بالبحر إذا غدا

ولا طعن إلا بالمتقف الملد^(١)

وقد نزلا للحرب، واحتدم اللقا

ونظراً لكون دمياط مدينة تطل على البحر من بلاد مصر^(٢)، فقد وصفت بأنها نافذة مصر

على ساحل البحر^(٣). ويمتد جزء من أرضها داخل البحر بشكل مدبب في بدايته على شكل لسان

يسمى: ((لسان البر))، وهو مشهود له بطيب هوائه في الصيف^(٤)، مما زاد من جمالية موقع دمياط وأهميته

لاستحمام سكانها .

أما من حيث المناخ، فإن موقعها على ساحل البحر، جعلها تتمتع بصفة الاعتدال صيفاً

وشتاءً^(٥). ومن حيث خطوط الطول والعرض، فهي تقع على خط طول ٥٣ درجة و ٥٠ دقيقة،

وعلى خط عرض ٣١ درجة و ٢٥ دقيقة^(٦) ومنهم من ذكر قياسات أخرى مختلفة قليلاً عنها^(٧).

كما قسّم الجغرافيون العرب البلاد المصرية إلى قسمين: الوجه البحري، وعدد الكور فيه ثلاث

وثلاثون، ومنها كور دمياط وتينيس^(٨). أما الوجه القبلي فكان عدد الكور فيه هي اثنتان وعشرون

كوره^(٩). كذلك حددوا موقع دمياط بالنسبة للمناطق والمدن المصرية الأخرى، وأوضحوا المدن والقرى

التي كانت ضمن حدود الرقعة الجغرافية للمدينة أو كانت قريبة منها. فدمياط تقع إلى الشمال الشرقي

(١) الخطط، ج ١، ص ٢٢٤.

(٢) الهمداني، أبو بكر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل (ليدن

/١٣٠٦م)، ص ٦٤.

(3) Columbia Encyclopedia, sixth edition, 2003

الموسوعة منشورة في الإنترنت على الموقع :

< <http://www.bartleby.com/65/du/Dumyat.html> >.

(٤) وجدي: معارف القرن العشرين: مج ٤، ص ٦٨.

(٥) ابن رسته، أحمد بن عمر : كتاب الأعلام النفيسة، مطبعة بريل (ليدن/١٨٩١)، مج ٧، ص ٩٧١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦١.

(٧) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٥.

(٨) البكري: جغرافية مصر، ص ١٩، ٥٩-٦٣، ٧٣؛ وينظر الخارطة في الملحق رقم (٢).

(٩) ابن دقماق: الانتصار، ق ٢، ص ٩-١٠.

من القاهرة^(١)، وفي موضع بين القاهرة وتينيس، وكانت أقرب إلى تينيس^(٢). كما أنها تقع في الشمال الشرقي من الوجه البحري. يمر بها الطريق المؤدي إلى القاهرة، فيسير باتجاه مدينة طرخا، ثم شرمساح التي تقع على خليج دمياط.^(٣)

وأما موقعها من الأنهر والجزر والخلجان، فتقع دمياط على نهر متفرع من النيل يحمل اسمها هو: فرع دمياط^(٤). فقد كان في مصر سبعة عشر فرعاً تأخذ ماءها من النيل، وكان من أعظمها فرع دمياط، إذ يَتَشَعَّبُ النيل قبل الفسطاط عند منطقة شطنوف، فيتجه فرعٌ منه إلى الإسكندرية، والآخر - وهو فرع دمياط - الذي يتجه نحوها^(٥). ومن شمال دمياط يتجه هذا الفرع إلى البحر فيصب فيه في الموضع المعروف بالأشتوم، وعرض النيل هناك محدود بمائة ذراع^(٦). وفي البر الغربي من دمياط جزيرة، تُعرف جزيرة دمياط، يحيط بها ماء النيل والبحر^(٧)، وصفها ابن حوقل قائلاً: ((وفي مصر جزر، ومن أجل وأجمل جزرها جزيرتي دمياط وتينيس))^(٨). كما أن من أهم الخلجان في مصر خليج دمياط الذي يقع ما بين مدينة سمفود و دمياط^(٩). ومن خليج دمياط تتشكل بحيرة دمياط، التي تتصل ببحيرة تينيس من جهة الغرب، فتصبح ما يشبه البحيرة الواحدة، وهذا الموقع الجميل لمدينة دمياط أعطاها

(1) Encyclopedia Britannica Deluxe , Edition 2000

الموسوعة منشورة في الإنترنت على الموقع :

< www.britannica.com/eb/article?tocId=9028650&query=dimyat& >.

(٢) القزويني: آثار البلاد، ص ١٩٣.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٤٠.

(٤) القرطبي: الجامع، ج ١٦، ص ٩٨.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٣٢؛ المقدسي، مطهر بن طاهر: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة

الدينية، (القاهرة/ لا. ت)، ج ٤، ص ٥٩؛ المناوي، محمد حمدي: نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية

للطباعة والنشر، (القاهرة/ ١٩٦٦ م)، ص ١١٦.

(٦) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٢-٤٧٣، المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ١٤.

(٧) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٨) صورة الأرض، ص ١٤٦.

(٩) الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي: المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر و عبد

العال الحسيني، دار القلم، (الجمهورية العربية المتحدة/ ١٩٦١ م)، ص ٤١؛ ابن حوقل: صورة الأرض

ص ١٤٦.

بهاءً ونظارة، تغنى بها الشعراء، حتى أورد المقرئ قسيده في وصف موقعها وأنهارها وجمالها وطيب هوائها نُورد منها:

سقى عهد دميّاط وحيّاه من عهد فقد زادي ذكره وجداً على وجد
ولا زالت الأنواء تسقي سحابها دياراً حكّت من حُسنها جنة الخُلد
فيا حُسن هاتيك الديار وطيبها فكم قد حوت حُسنًا يجلُّ عن العُدّ
فله أنهار تحفُّ بروضها لكا المرهف المصقول أو صفحة الخدّ
هناك ترى عين البصيرة ما ترى من الفضل والأفضال والخير والمجد^(١)

إن هذا الموقع المتميز لمدينة دميّاط، وكثرة خيراتها، جعل لها أهمية متميزة من بين مدن مصر الأخرى، حتى أصبحت هدفاً ومطمعاً للأعداء والطامعين بها .

ب- سكان دميّاط ومساحتها

كان سكان دميّاط قبل الفتح الإسلامي أقواماً من مختلف الأجناس والأديان، منهم العرب المنتصرة، ومنهم الأقباط، ومنهم الروم. وقد وصف المقرئ هذا التجانس السكاني فيها عندما فتحها المسلمون وقال: ((فبرز إليهم نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم))^(٢). وبعد الفتح واستقرار الوضع فيها للمسلمين، بقي فيها من سكانها نصارى على دينهم تحت الذمة^(٣)، وهم من القبط^(٤).

أما بالنسبة لعدد سكانها، فلم تُسعدنا المصادر بإحصائية دقيقة للمراحل المتعاقبة خلال فترة الحروب الصليبية أو قبلها، وذلك بسبب عدم وجود الإحصاءات السكانية آنذاك، وكذلك عدم استقرار الوضع السياسي والسكاني للبلاد، لكثرة الهجمات المتعاقبة التي تعرضت لها المدينة من الغزاة الطامعين فيها^(٥)، والتي حالت دون استقرار أهلها وتشتتهم وهجرتهم منها أثناء الغزو، وعودتهم إليها

(١) الخطط، ج ١، ص ٢٤٤؛ وينظر، مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٤٦.

(٢) الخطط، ج ١، ص ١٧٧.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص ١٣٧؛ مجهول: الاستبصار، ص ٨٨.

(٤) الأقباط جيل من شعب مصر، قيل عنهم أنهم: ((أهل مصر وبنكها))، ويعني بذلك أصلها. (ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت/لا.ت، ج ٧، ص ٣٧٣؛ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، تحقيق، محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت/١٩٩٥م، ج ١، ص ٢١٧).

(٥) الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق، مصطفى فهمي الكتيبي، مطبعة الموسوعات، (مصر/لا.ت)، ص ٢٨١-٢٨٢.

في حال السلم، مما يؤثر ذلك على زيادة أو نقصان عدد السكان فيها. بيد أن بعض المراجع الحديثة أوردت أن عدد سكانها في عصر الملك الكامل، لما حاصرها الصليبيون سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) كان بحدود سبعين ألفاً^(١)، وفي رواية أخرى أن عددهم كان ستين ألفاً، ولم يبقَ منهم عند احتلالها من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف، وذلك بسبب الحرب، وتَشْيٍ وباء الطاعون فيهم، والذي أدى إلى فناء الكثير منهم^(٢). وهناك من ذكر أن عدد سكانها كان بحدود ثلاثمائة وواحد وتسعون ألفاً^(٣). إلا أن الرواية الأخيرة لم تحدد السنة أو العصر الذي تعود إليه الإحصائية. ونظراً لتعدد الروايات في ضبط عدد سكانها أثناء فترة الحروب الصليبية، فإننا لا يمكننا الجزم أو الوقوف عند رقم محدد، بل تبقى التقديرات هنا هي السائدة في هذا المجال.

وأما عن مساحتها، فقد ذكر الإدريسي أنها : ((ليست بالكبيرة))^(٤). مما يدل على أن مدينة دمياط صغيرة المساحة و هي شبه جزيرة طويلة محاطة بالمياه من ثلاث جهات. أما مساحتها آنذاك، كما وصفها مبارك بأنها مدينة صغيرة وطولها من الشمال إلى الجنوب بحدود ألف وستمائة وخمسون متراً، وعرضها بحدود ستمائة وخمسون متراً، ومجمل مساحتها بحدود ثمانين ألف متر^(٥). مما يدل على أنها مدينة صغيرة طولية الشكل.

ج-تخطيط دمياط:

تخطيط المدينة أو خططها، يعني مرافقها الحضارية والعمرانية والعسكرية في تأريخها^(٦). ولعل بين أهم خطط دمياط ما يتعلق منها بالجانب العسكري، كالأسوار والخنادق والأبراج. خاصة وأن موضوع بحثنا يدور حول مدينة دمياط في الحروب الصليبية، مما يجعلنا نركز على الأشياء التي تتعلق بهذا الجانب ووفق ما يأتي :

(١) عمران، محمود سعيد: الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (الاسكندرية ١٩٧٨م)، ص ٢٠٧.

(٢) غنيم، إسمت: الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية/لا.ت)، ص ٨٠.

(٣) البغدادي: الافادة، هامش (١١٣)، ص ٩٣.

(٤) نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٣٨.

(٥) مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١، ص ٥٢.

(٦) الخطط، ج ١، ص ٢٩٦-٢٩٧.

١- الأسوار

بالنظر لأهمية دمياط العسكرية والاقتصادية ، لأنها مرفأً بحرياً مهماً ، فقد كانت رُضةً لهجمات الغزاة المتكررة، وهو ما دفع القائمين على أمرها إلى الاهتمام بها وتحصينها لحمايتها من الغزو الأجنبي، فجعلوها مدينةً مُؤرّة^(١). إذ أشارت بعض المصادر إلى أن مدينة دمياط كانت محاطة بسور ، وإن هذا السور كان يحيط بقلعة أنشئت منذ أيام الرومان. ولكن بعد تصدع ذلك السور في العصر العباسي، أرسل الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ هـ/٢٤٧ هـ) إلى واليه عنبة وأمره ببناء سور حول المدينة، فاستجاب له الوالي. وبدأ يعمل بتشبيذ ذلك السور ابتداءً من يوم الاثنين الموافق الثالث من رمضان سنة (٢٣٩ هـ/٨٥٣ م)^(٢). ولا نعلم على وجه الدقة هل تم تجديد السور القديم ، أم بني سور جديد آخر .

أما عن تحصينات المدينة إبان الغزو الصليبي ، فقد ذكر أنه كان يحيط بالمدينة من الجهة البحرية سوران بينهما خندق، ومن باقي الجهات ثلاثة أسوار ليست متساوية الارتفاع. فالسور الخارجي أقل ارتفاعاً ومهمته حماية الخندق المائي، أما السور الأوسط فهو أكثر ارتفاعاً من السور الخارجي، ومُحصّن بثمانية وعشرين بُرجاً. وأما السور الثالث -وهو الداخلي- فهو الأكثر ارتفاعاً^(٣). والسبب في ذلك يعود إلى أن السور الداخلي يجب أن يكون كذلك من أجل سيطرة المدافعين عن المدينة على المهاجمين من حيث الرصد والمشاغلة. وفي رواية أنه استخدم في بنائها أحجار تم جلبها من بعض الاهرامات الصغيرة^(٤)، غير أن المصادر لم تقدم معلومات عن ارتفاع تلك الأسوار وعرضها والمسافة بين سور وآخر، وكذلك بين الأبراج، وهل لتلك الأسوار وما يهيل من أبراج أسماء معينة أم لا؟.

أما محيط السور الخارجي فكان قياسه (٤٦٣٠) ذراع^(٥)، كما أن لهذه الأسوار خمسة

(١) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص ١٩٣؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ١١٧.
(٢) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣؛ المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٤؛ زكي، قلعة صلاح الدين، ص ١٥٨.

(٣) ويذكر عمران في كتاب الحملة الصليبية الخامسة ، ص ٢٠٦-٢٠٧ ، أن المصادر العربية لا تشفي غلب الباحث في الحصول على المعلومات الكاملة عن مدينة دمياط القديمة.

(٤) العبادي و السيد عبدالعزيز سالم: تأريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٣٠.

(٥) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

أبواب^(١)، و قيل أنها أربعة^(٢)، بيد أن المصادر أحجمت عن ذكر أوصاف تلك الأبواب وأسمائها. وقد عمل المسلمون لاحقاً على حماية دمياط وسورها، فجعلوا عليه حُرَاساً مرابطين مهمتهم حماية المدينة^(٣). مما يدل على شدة الاهتمام بأمن المدينة وعدم السماح بدخول الغريباء والأعداء إليها بسهولة. ولكن يبدو أنه أجريت صيانة وتجديد على هذا السور سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م)^(٤)، مما يدل على أن السور كان موجوداً قبل هذا التأريخ بكثير، إذ تم إجراء الصيانة وإصلاح الأجزاء المتضررة منه، لكن هذه الأسوار أُهملت وُخِرت فيما بعد في عصر المماليك البحرية^(٥)، و لم يقتصر التخريب على السور فقط، بل طَمَالَ المدينة نفسها، إذ خربت اجزاء منها جراء الحصار والغزوات الصليبية لها، ذكر ذلك شيخ الربوة وقال: ((لَمَّا ضَيَّقَ عَلَيْهَا الْفَرَنْجُ هُدِّمَتْ))^(٦). مما يدل على أن خراب المدينة وأسوارها كان نتيجة تعرضها للعدوان الأجنبي البيزنطي و الصليبي.

٢- الخندق

كان من التقاليد العسكرية المألوفة في تحصين وحماية المدن آنذاك هو عدم الاكتفاء بالأسوار فقط، بل تعدى ذلك إلى حفر الخنادق التي تحيط بالأسوار المحيطة بالمدينة نفسها. فقد ذكر المقرئ أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أمر بقطع أشجار البساتين من حول مدينة دمياط والمباشرة بحفر خندق حولها، وكان ذلك سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)^(٧) وقد كان هذا الخندق يسير متوازياً بين السور الخارجي

(١) البكري: جغرافية مصر، ص ٨٩.

(٢) عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٢٠٧.

(٣) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص ٩٣.

(٤) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٥) المماليك البحرية: أصلهم من الأتراك، وكان ولاية مصر قد أكثروا من تجنيدهم، واسكنوهم في جزيرة الروضة. ثم سنحت لهم الفرصة لحكم مصر (٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠م - ١٣٨٢م). (حسن، علي إبراهيم: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، ط ٥، القاهرة/ ١٩٦٤ م، ص ٢٠١ - ٢٠٣).

(٦) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطابع بطرورخ، (قوبهانج/ ١٩٢٣م)، ص ١٣١.

(٧) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

والسور الأوسط، فضلاً عن أنه كان مغموراً بالماء^(١). ومن المرجح أنه كان يستمد مياهه من نهر النيل، غير أننا لم نجد ما يشير إلى بيان عرض الخندق ومقياس العُحق فيه ومصدر مائه، غير أن ذلك بالتأكيد يعكس حاجة المدافعين لمنع المهاجمين من التوغل بسهولة إلى الداخل.

٣- السلسلة الحديدية والأبراج والجسور

كان من جملة وسائل الدفاع الأخرى لمدينة دمياط السلسلة الحديدية الضخمة والقوية الممتدة على أرض النهر، والتي ارتبطت ببرجين على جانبي النهر^(٢). ويتحتم فيها أقفالاً محكمة الصنع، توضع عند أطراف السلاسل، تفتح وتغلق عند الحاجة، وتُسمى هذه السلاسل بـ(المآصر الحديدية)^(٣)، والغرض منها منع دخول السفن القادمة من البحر في نهر النيل عند الحاجة. وتزن هذه السلاسل حوالي مائة وثلاثين قنطاراً مصرياً^(٤)، إذ جرى العمل على وضع هذه السلسلة وإكمالها سنة (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م)، فبلغت كلفة النفقة عليها حوالي مليون دينار^(٥)، وهذا دليل قاطع على أهمية هذه السلسلة في عمليات الدفاع. وقد بقيت هذه السلسلة و البرج لفترة متأخرة من الزمن حتى وصفها ابن بطوطة أثناء مشاهدته لها وقال: ((وكان إذ ذاك على النيل برج منيع في غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر. وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة))^(٦). أما عن وصف وشكل هذين البرجين، فقد ذكر أن كل برج منهما يتكون من عدّة طوابق، وإن الطابق الذي في الوسط هو الطابق الرئيس للبرج، وتعلو كل برج قبة لها ثلاثة أقواس صغيرة^(٧). وبهدف تيسير حركة التنقل بين البرجين، أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء جسر من

(١) عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٢٠٦.

(٢) الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣، القزويني: آثار البلاد، ص ١٩٣؛ وينظر الخارطة في الملحق رقم (٣).

(٣) عواد، ميخائيل: المآصر في بلاد الروم والاسلام، مطبعة المعارف، (بغداد/ ١٩٤٨ م)، ص ٣٨٤.

(٤) كان الحديد يوزن بالقنطار في العهد الأيوبي، والقنطار يساوي مائة رطل، وكل رطل يساوي (١٦.٧) كيلو غرام. لذلك يكون وزن السلسلة حوالي (١١.٥٧١) كيلو غرام تقريباً. (عمران: الحملة

الصليبية الخامسة، ص ٢٠٥).

(٥) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٦) رحلة، ص ٤٩.

(٧) غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٧٤؛ عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٢٠٥.

الخشب عند سلسلة البرج سنة (٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م)^(١). وتأتي أهمية هذين البرجين في الناحية الدفاعية للمدينة، إذ أن السلسلة الحديدية الممتدة بينهما كانت تتميز بقوةها ومتانتها في منع مراكب الغزاة من دخول أرض مصر^(٢). كما أكد ابن كثير وجود هذين البرجين والسلسلة وبأنهما كالقفل، فقال: ((كأنها القفل على ديار مصر))^(٣). ويبدو من كل ما تقدم، أن المسلمين في دمياط لم يغفلوا وسائل الدفاع عن المدينة، لأن الدفاع و الهجوم مرحلتان متكاملتان من مراحل التكامل العسكري. فالأسوار والخنق وبرجا السلسلة وسائر التحصينات الدفاعية الأخرى كانت معروفة لديهم، لا بل أن الأوربيين الغزاة أخذوا الكثير من الأفكار العسكرية كبناء القلاع والأسوار وتجهيزها وتزيينها من المدن الإسلامية، لاسيما في المدة التي اعقبت بدايات الحروب الصليبية^(٤). وقد أقر المؤرخ (Lane-Poole) أن الأوربي اكتشفوا أهمية تلك التحصينات أثناء الحروب الصليبية وقاموا بتقليدها على سواحلهم^(٥).

ثانيًا. الخلفية التاريخية

أ. تسمية دمياط

دمياط، بكسر الدال المهملة، وسكون الميم، وباء مثناة تحت، وألف وطاء^(٦) ويُنطق بها أيضاً: دُمياط، بضم الدال، وهو النطق الغالب بين الناس^(٧). وسميت دمياط على اسم أحد أولاد

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥..

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق، أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الفكر، (بيروت/ ١٩٧٨ م)، ج ٩، ص ٣١٥.

(٣) اسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ط ٢، (بيروت/ ١٩٧٨ م)، ج ١٣، ص ٩٧٢؛ زكي قلعة صلاح الدين، ص ١٥٩.

(٤) العسلي، بسام، فن الحرب الإسلامي في أيام الحروب الصليبية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة/ لا.ت)، مج ٤، ص ٦٦٥-٦٦٦.

(5) A History of Egypt in The Middle Ages, op.cit, p.41.

(٦) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، تحقيق، يوسف علي الطويل، دار الفكر، (دمشق/ ١٩٨٧ م)، ج ٣، ص ٤٦١؛ مبارك، علي باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الأميرية، (بولاق/ ١٣٠٥ هـ)، ج ١١، ص ٣٦.

(٧) الشنتاوي، أحمد، وخورشيد، إبراهيم زكي: مادة (دمياط)، دائرة المعارف الإسلامية، (لا. م / لا. ت)، مج ٩، ص ٢٨٧.

أشمن) ، وهو ابن مصرئيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام^(١).

وتعرف دمياط في المصادر القبطية القديمة: تميّات أو تميّاتي^(٢)، ثم تغيرت هذه التسمية من تميّاتي (Tamite) وتطور لفظها إلى دمياط (Dimyat)^(٣). كما أن هناك العديد من المصادر ذكرتها بالذال المعجمة: دمياط^(٤)، أما ابن بطوطة فإنه ذكرها بالذال المهملة أثناء سفره إليها وقال: ((سافرت في أرض رملية إلى مدينة دمياط))^(٥). وهناك تسميات أخرى لمدينة دمياط لا مجال لذكرها كلها هنا^(٦)، إلا أن أغلب المصادر ذكرتها بالذال المهملة: دمياط^(٧)، والراجح أنها التسمية الحقيقية للمدينة.

ب. دمياط قبل الفتح الإسلامي

لم تسعنا المصادر التاريخية بشكل واضح عن تأريخ المدينة قبل الإسلام، ولكن هناك بعض

-
- (١) المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة/ لا.ت)، ج ١، ص ٢١٣.
- (٢) المرجع نفسه، مج ٩، ص ٢٨٨.

(3) Encyclopedia Britannica deluxe , Edition 2000

الموسوعة منشورة في الإنترنت على الموقع :

< www.britannica.com/eb/article?tocId=9028650&query=dimyat >

- (٤) القنوجي، صديق بن حسن : أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق، عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، (بيروت / ١٩٧٨ م)، ج ٣، ص ١٧؛ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، (بيروت/ ١٩٨٩)، ص ٣٣٣ و ٣٣٨-٣٤٠؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، مطبعة هيدلبرغ، ط ٤، (بيروت/ ١٩٨٥)، ص ٢٥٧.

- (٥) اللواتي، محمد ابن عبد الله ابن محمد أبو عبد الله: تحفة النظار في غرائب الأسفار وعجائب الأقطار، (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق، علي المنتصر الكناني، مؤسسة الرسالة، ط ٤، (بيروت/ ١٤٠٥)، ص ٤٩.
- (٦) للمزيد عن تلك التسميات، ينظر :

- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن: تأريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، (بيروت/ لا.ت)، ج ١٢، ص ٢٨؛ ابن دقماق، إبراهيم محمد بن أيذر العلاني : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت/ لا.ت)، ق ٢، ص ٨٠-٨١؛ يوسف، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية / ١٩٨٤ م)، ص ٩٠.

- (٧) البكري، أبو عبيد الله بن عبد الله بن عبد العزيز : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك، تحقيق، عبد الله يوسف الغنيم، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع (الكويت / ١٩٨٠ م)، ص ٦١؛ الحموي، الشيخ الأمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي : معجم البلدان، دار صادر، (بيروت/ ١٩٥٦ م)، مج ٢، ص ٤٧٣، ٤٧٢.

الإشارات الدالة على قدمها من قبل بعض المؤرخين، ذكرها الحموي بأنها: ((مدينة قديمة))^(١) ، كما وصفها الصوري بأنها ((مدينة هيبية وقديمة))^(٢) . وقد حلد المقرئزي تأريخ إنشائها بأنه يرجع إلى الفترة التي تلت ابناء نوح (عليه السلام)^(٣) ، وأن الذي أنشأها قليمون^(٤) . وهناك رواية ترى أن قليمون أسماها دمياط على اسم غلام كانت أمه ساحرة عنده^(٥) . وربما يرجع تأريخ انشائها إلى عصر الفراعنة ، إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم وفسره القرطبي في قوله تعالى : ((ونادى فرعون في قومه قال يا قوم ليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون))^(٦) . فقال القرطبي: ((إن الله تعالى يعني بذلك أنهار النيل وأهمها أربعة أنهار ، ومن هذه الأنهار نهر دمياط ، فقد كنت جنانا وأنهاراً تجري من تحت قصور فرعون ومن تحت سريره))^(٧) . مما يدل على قدم مدينة دمياط ، وأنها كانت موجودة منذ عصر الفراعنة، وأن أحد أنهار مصر العظيمة آنذاك كان يُسمى باسمها .

ج . دمياط من الفتح الإسلامي حتى الغزو الصليبي

كذلك لم تسعفنا المصادر هنا بشيء محدد عن تأريخ دمياط في العصر الإسلامي، سوى بعض الإشارات التي تخص مصر بشكل عام وبضمنها دمياط، من خلال رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس^(٨) ، ودعوته إلى الإسلام، كما أن هناك بعض الأحاديث^(٩) أوردتها بعض المصادر التاريخية

(١) معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٢؛ وينظر القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت / ١٩٦٠م، ص ١٩٣.

(٢) ولیم: تأريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة وتقديم، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت / ٢٠٠٣ م)، ج ٢، ص ٩٠٧.

(٣) الخطط، ج ١، ص ٢١٣.

(٤) ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٠-٤٧١، أن قليمون حكم مصر، لكنه لم يحدد فترة حكمه ولا أية دولة حكم.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧١؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٣.

(٦) القرآن الكريم: سورة الزخرف، الآية رقم ٥١.

(٧) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، ط ٥، القاهرة / ١٣٧٢ هـ، ج ١٦، ص ٩٨.

(٨) المقوقس: هو جريج بن متي ولقبه المقوقس، ملك مصر والإسكندرية في زمن النبوة، إذ كتب إليه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى الإسلام، وجاء في مقدمة الرسالة: ((بسم الله الرحمن الرحيم ... إلى المقوقس عظيم القبط)) . لكنه لم يسلم، حتى فتح المسلمون مصر في خلافة عمر (رضي الله عنه).

تتضمن البشارة بفتحها. إلا أنها لم ترد في كتب الصّاح المعروفة، ولذلك لا يمكن التعويل على صحتها، مما يجعلنا نُصحّح أن تلك الأحاديث وضعت في الفترات المتأخرة اللاحقة، وخاصة فترات الضيق والشدة أثناء الحروب الصليبية التي مَوّت بها ، لإعطائها أهمية دينية من شأنها حث المسلمين على الجهاد دفاعاً عن دمياط، وذلك لزيادة مكانتها الدينية والدفاع عنها كمدينة مقدسة .

أما في العصر الراشدي ، فقد أوردت المصادر كيف تم فتح مصر في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وبقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) ، وكيف توجهت تلك القوات الإسلامية نحو دمياط في سنة (٢١هـ / ٦٤١م)^(٢) . إذ ذكر الواقدي أن أحد أبناء المدينة أحدث ثقباً في سور دمياط وطلب من المسلمين التحرك لفتحها^(٣) ، فساروا باتجاه الثقب ووسّعوه ودخلوها منه مع خيولهم ، وبواسطتهم دخلها الإسلام. ثم شيد المسلمون المسجد الجامع ، ووضعوا أساسه عند فتحها^(٤) . وكان في المدينة آنذاك أربع كنائس لم يمسّها المسلمون بسوء^(٥) .

ومنذ فتح المسلمون مدينة دمياط بقيت آمنة مطمئنة من هجمات الطامعين ، إلا أنها تعرضت في العصر الأموي إلى هجمات سريعة من البيزنطيين ، لكنها كانت بعيدة عن فكرة الاستيطان ، إذ سرعان ما ينسحب الغزاة الروم بمجرد حصولهم على الغنائم وإحداث الخراب في المدينة . وكانت أولى تلك الغزوات سنة (٩٠هـ / ٧٠٨م) ، أما الثانية فكانت في خلافة هشام بن عبد الملك سنة

(ابن حزم، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين : تهذيب الأسماء واللغات، دار الفكر، (بيروت/ ١٩٩٦م)، ج ٢، ص ٤١٥ ؛ المباركفوري، صفى الرحمن : الرحيق المختوم، دار العلوم، (عمان/ ٢٠٠٢م)، ص ٣٣٥ . ٣٣٦) .

(١) في حديث روي عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : ((يا عمر إنه سيفتح على يديك ثغر، الإسكندرية ودمياط. فأما الإسكندرية فخرابها من البربر، وأما دمياط، فهم صفوة من شهداء، من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس)) . (القزويني آثار البلاد، ص ١٧٧) . كما أورد ياقوت الحموي الحديث نفسه، وزاد عليه في آخره : ((مع النبيين والشهداء)) . (معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٧٢ . ٢٧٣) .

(٢) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري : بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الكسرى الأميرية، (بولاق/ ١٣١١هـ)، ج ١، ص ٢٣ ؛ العسلي، بسام : فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، دار الفكر، (القاهرة/ ١٩٨٨)، مج ٢، ص ٤٢ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عمر: فتوح الشام، دار الجيل، (بيروت/ لا.ت)، ج ٢، ص ٤٥، ٤٨ ؛ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٣، ٢١٤ .

(٤) البكري : جغرافية مصر، ص ٤٧، ٥٥ ؛ حمادة، محمد ماهر : الوثائق السياسية والإدارية، مؤسسة الرسالة، ط ٢، (بيروت/ ١٩٨٢)، ج ٥، ص ٥٥ .

(٥) مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٥٢ ؛ العبادي، أحمد مختار، وسالم، السيد عبد العزيز : تأريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأحد البحيري، (بيروت / ١٩٧٢م)، ص ٤٧ . ٤٨ .

(١٢١هـ/٧٣٣ م) ، وفيها هاجم الروم دمياط بقوة بحرية قوامها (٣٦٠) سفينة ، وتمكنوا من قتل وأسر عدداً من المسلمين ثم انصرفوا عنها^(١).

أما في العصر العباسي، فقد تجددت غزوات الروم على مدينة دمياط. ففي خلافة المتوكل على الله، عندما كان أمير مصر آنذاك عنبسة^(٢)، تعرضت لهجوم بحري سنة (٢٣٨هـ/٨٥٢ م) ، وبقوة قوامها (٣٠٠) سفينة^(٣)، وكان وقت الهجوم يوم عرفة ، والمسلمون منشغلون في الاحتفال بعيد الأضحى ، إذ أقام عنبسة عرضاً عسكرياً بالمناسبة^(٤). وذهب بعض المؤرخين إلى القول أن سبب هذا الهجوم يعود إلى انزعاج بيزنطة من نشاط أسطول جزيرة كريت (إقريطش) ، والتي كانت على تحالف وثيق مع مصر^(٥)، إذ كلف دمياط تزود كريت بما تحتاجه من بضاعة وتبادل تجاري ، مما زبّه الروم إلى أهمية دمياط وما تمثله من خطر يهدد مصالحها . لذا وجهوا جهدهم إلى دمياط وحاولوا تأديبها رداً على ذلك^(٦). وقد تمكن الروم من قتل عدد كبير من أهلها، وأسروا عدداً من النسوة والأطفال وأهل الذمة^(٧). فضلاً عما قام به الروم من إضرار النار في جامع دمياط وفي كنائسها وعدد كبير من دورها^(٨). ويبدو ممّا

(١) مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٣٦.

(٢) عنبسة: هو ابن إسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسة، ولّاه على مصر . بعد عزل عبد الواحد بن يحيى . الخليفة المتوكل على الله جعفر، وكان ذلك في شهر صفر من سنة (٢٣٨هـ/ ٨٥٠ م). (الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الحضرمي : الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت / ١٩٠٨ م ، ص ٢٠١).

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، (مصر / لا.ت) ، ج ٢، ص ٢٩١ ؛ الذهبي، الحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز : دول الأسلام، تحقيق، فهمي محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر / ١٩٧٤ م) ، ج ١، ص ١٤٤ .

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٩٤ ؛ العدوي، إبراهيم أحمد : الأساطيل العربية في البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، (القاهرة / ١٩٥٧ م) ، ص ١٠٥ .

(٥) طرخان، إبراهيم علي: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، (القاهرة / ١٩٦٦ م) ، ص ٨٦ ؛ لويس، أرشيبالد. ر : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م) ، ترجمة، أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة / لا.ت) ، ص ٢٢٣ .

(٦) العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٤٠ .

(٧) الكندي : الولاة وكتاب القضاة، ص ٢٠١ ؛ الحموي : معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٢ ؛ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٤ .

(٨) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف

تمتع أن الروم في هذه الغزوة لم يفرقوا في عملية سبي النساء وإضرار النار في أماكن العبادة بين المسلمين وغيرهم . وتجدر الإشارة إلى أن عنبسة وبمجرد سماعه بخبر الهجوم سار بجيشه باتجاه الغزاة ومعه جمع من الناس ، لكنه لم يدركهم^(١) ، إذ رحلوا إلى تنيس ، فأقاموا بالأشتوم فترة قليلة ، ثم عادوا إلى ديارهم^(٢) . وبهذه المناسبة أورد المقرئ قصيدة للشاعر يحيى ابن الفضيل فيها نوع من الشكوى بعث بها إلى الخليفة المتوكل ، قال فيها :

أترضى بأن يوطئ رجليك عنوةً وأن يستباح المسلمون ويجربوا
حمار أتى دمياط ، والروم رتب بتيس منه رأي عين و أقرب
مقيمون بالأشتوم ييغون مثل ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط سيراً ولا درى من العجز ما يأتي وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار ضيعة بمصر ، وإن الدين قد كاد يذهب

وما لي وصلت الرسالة حتى أمر الخليفة المتوكل ببناء حصن دمياط^(٣) . إلا أن بناء ذلك الحصن لم يحم دمياط ، ولم يمنع الروم من غزوها . ففي سنة (٨٥٩/هـ ٢٤٥ م) ، وفي عهد يزيد بن عبد الله . وهو والي مصر بعد عنبسة . هاجم الروم دمياط مرة أخرى ، فخرج إليهم يزيد لكنه لم يلتق بهم كذلك ، إذ غادروها قبل وصوله إليها ، ولم تحصل المواجهة بينهما . لكن بعد عودة يزيد أغار الروم ثانية على دمياط مرة أخرى في السنة نفسها ، وكذلك لم تحصل المواجهة معهم لأن الروم غادروا دمياط مسرعين^(٤) . وروي أيضاً أن الروم أغاروا على دمياط مرة أخرى سنة (٨٦١/هـ ٢٤٧ م)^(٥) .

وفي العصر الإخشيدى بمصر ، استغل الروم ما حدث بعد وفاة كافور الإخشيدى ، فهاجموا على دمياط سنة (٩٦٧/هـ ٣٥٧ م) ، وبقوة قدرت بأكثر من عشرين سفينة ، فقتلوا وأسروا بحدود ١٥٠ شخصاً من المسلمين^(٦) .

ط ٤ ، (القاهرة / ١٩٧٩ م) ، ج ٩ ، ص ١٩٥ ؛ العبادي والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(١) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(2), Laine Poole: A History of Egypt in the Middle Ages , Frank cass and co. LTD , 1968 , p. 40 - 41.

(٣) الحموي : معجم البلدان ، مج ٢ ، ص ٤٧٣ ؛ المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٤) الكندي : الولاة ، ص ٢٠٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ . ٣٠٩ .

(٥) زكي ، عبد الرحمن : قلعة صلاح الدين وقلعة إسلامية معاصرة ، مطبعة نهضة مصر ، (القاهرة / ١٩٦٠ م) ، ص ١٥٨ .

(٦) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١ ، ص ٣٧ ؛ الشنتاوي و إبراهيم زكي

أما الغزوة الأخيرة للروم على دمياط ، فكانت في العصر الفاطمي ، أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى، وكان ذلك في جمادي الآخرة سنة (٥٥٠هـ / ١١٥٥ م) ، إذ تَوَجَّه الروم نحو دمياط بقوة قوامها (٦٠) سفينةً ، فعاثوا خلال الديار ، وقتلوا عدداً من المسلمين ، ثم غادروها إلى تنيس ورشيد والإسكندرية ، وأكثروا فيها الفساد^(١) . ويمكن أن نستنتج من تكرار غزوات الروم البيزنطيين على مدينة دمياط ، أن ذلك راجع لأسباب علة منها : اقتصادية وعسكرية ودينية ، تتمثل في طمعهم بخيراتها ، وللانتقام من أهلها بمختلف طوائفهم ، بسبب كون هذه المدينة كانت ولعهد قريب من تلك الغزوات تحت سلطة وسيطرة الموقس ، وكانت تدين بديانتهم .

وقد تبدو أهمية دمياط الدينية واضحة المعالم من خلال عدد المساجد فيها ، فذكر مبارك إن عدد مساجدها كان محدود (٤٥) مسجداً^(٢) ، فضلاً عن المسجد القدم الجامع فيها ، وقد وُصفت تلك المساجد بأن بناءها كان مُؤَبَّراً وجميلاً^(٣) . كما كان فيها مدرسة دينية ، وهي المدرسة المتبوية في جامع المتبوي^(٤) . إضافةً إلى وجود زاوية للعبادة فيها ، ذكرها و ابن بطوطة إنها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي ، وهو قدوة الطائفة الصوفية المعروفة آنذاك بالطائفة القلندرية^(٥) .

وكان للمسجد الجامع وباقي المساجد دوراً في قيام حركة ثقافية دينية وعلمية، بدت معالمها واضحةً من خلال بروز عدد من الأعلام برزوا فيها، عرفوا بالضلوع في الفقه وعلوم الحديث، فضلاً عن علوم اللغة والنسب. منهم بكر بن سهيل بن إسماعيل بن نافع أبو محمد الدمياطي، كان فقيهاً ، توفي سنة (٢٨٩هـ / ٩٠٠ م)^(٦) . وكذلك الإمامين الفقيهين محمد بن عيسى بن يوسف الدبحاوي، ومصطفى بن

خورشيد: المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٢٨٨.

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٤ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٣٧؛ الشنتاوي و ابراهيم زكي

خورشيد: المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٢٨٨.

(٢) الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٥٢.

(٣) وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، ط ٣، (بيروت / ١٩٧١ م)، مج ٤، ص ٦٧.

Encyclopedia Britannica Deluxe , Edition 2000

الموسوعة منشورة في الإنترنت على الموقع :

< www.britannica.com/eb/article?tocId=9028650&query=dimyat &

(٤) مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٥٢.

(٥) رحلة ، ص ٤٩.

(٦) الحموي : معجم البلدان ، مج ٢ ، ص ٤٧٥.

عبد السلام المنزلي^(١).

ومن رجال الحديث بدمياط القاضي أبي الفتح محمود ابن الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطي المتوفى سنة (٥٥٣هـ/١١٥٧م)^(٢)، وعبد السلام بن عبد القاهر، المتوفى سنة (٦١٣هـ/١٢١٧م) شتله الأخير في الفقه والخلاف إلى جانب الحديث، وعُيِّن قاضياً ومدرساً فيها، وقد أصبح قاضي قضاة مصر والوجه القبلي^(٣) ومنهم أيضاً ابن قُفل، الذي توفي فيها سنة (٦١٩هـ/١٢٢٧م) وكان لهؤلاء وغيرهم دوراً من شأنه بعث روح الجهاد في الناس كلما تعرضت دمياط لخطر الغزاة، بل كان فيهم من جاهد بنفسه ضد الصليبيين^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن اشتهار دمياط بصناعة النسيج - التي سنأتي على ذكرها لاحقاً في الأهمية الاقتصادية للمدينة - انعكس على الناحية الدينية كذلك، إذ تَشَرَّفَت دمياط بنسج كسوة الكعبة في بعض السنوات، ومما روي في هذا الجانب أن يحيى بن آلي حان قدم من دمياط سنة (٣٨٤هـ/٩٩٤م)، ومعه كسوتين للكعبة^(٥). مما زاد من الأهمية الدينية لدمياط في ذلك العصر، فضلاً عن كثرة علمائها ومساجدها.

ثالثاً - أهمية دمياط الاقتصادية والعسكرية

أ. أهمية دمياط الاقتصادية

تعد مدينة دمياط من المدن المهمة في مصر من الناحية الاقتصادية، إذ تتمثل فيها كافة جوانب الاقتصاد المصري. فهي من موانئ مصر المهمة، وفيها التجارة والصناعة والزراعة. فقد كانت دمياط من أهم موانئ العرب على البحر المتوسط^(٦). وأقربها إلى بلاد الشام^(١). وقد سلكت القوافل التجارية

(١) القنوجي: أبجد العلوم، ج ٣، ص ١٧.

(٢) ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، (القاهرة/ ١٩١٩م) ج ٢، ص ٤٧.

(٣) بدوي، أحمد محمد: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر، (القاهرة / لا ت.)، ص ٢٢.

(٤) اليافعي، عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي، ط ٢، (بيروت / ١٩٧٠م) ج ٤، ص ٣٥.

(٥) المقرئزي: إيعاظ الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق، جمال الدين الشيال، دار التحرير، (القاهرة / ١٩٦٧م)، ج ١، ص ٢٨٣؛ مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٤٨.

(٦) الحموي: محمد ياسين: تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقى، (دمشق / ١٩٤٥م)، ص ٧٦.

الطريق البحري الذي يبدأ من دمياط وينتهي باللاذقية^(٢). أما الطريق إلى الشام فيفتح من دمياط نحو عكا أو بيروت أو طرابلس، ومنها عبر الصحراء السورية إلى العراق^(٣). كما أنها كانت عقدةً بحرية على الطريق بين الشرق الأقصى والهند من جهة، وبين الموانئ الأوربية من جهة أخرى، حتى كان اسم دمياط يعد من بين أهم المدن التجارية الشهيرة في العالم^(٤). إذ كانت ترد إليها وتخرج منها بضائع متنوعة، أهمها القهوة والتمر والقطن وثياب الكتان^(٥). فكانت تحقق لمصر مورداً مهماً من تجارتها مع الشام وآسيا وبلاد اليونان. وكان فيها جماعة كبيرة من كبار التجار^(٦)، كما وصف الإدريسي سوقها وقال: ((كان سوقاً جامعةً لضروب بيع وشراء وأخذ وعطاء))^(٧). ونظراً لأن غالبية التجار كانوا من الغرباء عنها، فقد كان فيها. فضلاً عن الأسواق. فنادق وحمامات^(٨). مما أسهم في انتعاش التبادل التجاري فيها في سنوات السلم. كما أن موقعها على مصب النهر في البحر، جعل منها طريقاً نهرياً سهلاً لنقل البضائع القادمة عن طريق البحر إلى مدن مصر الأخرى الواقعة على ضفاف النيل وفروعه وقنواته^(٩). لذلك اشتهرت بـ ((المراكب النيلية)) التي تسير في نهر النيل وهي تحمل المواد التجارية من دمياط إلى مناطق

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلومصرية، ط٢، (القاهرة/١٩٧١ م)، ج٢، ص٩٦٦.

(٢) البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد/لا.ت، ص٨٥.

(٣) وهيب، عبد الفتاح محمد: دراسات في جغرافية مصر التاريخية، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية/١٩٦٢ م)، ص٩٨.

(٤) مصطفى، شاكراً: المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، مطبعة ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد/١٩٨٨ م)، ج٢، ص٤٥٢.

(5) City Guide Com – Egypt – (Dumyat)

بحث منشور في الانترنت على الموقع :

< [www.go-city-guide.com/city/Africa and Middle East/Egypt/Dumyat. Html](http://www.go-city-guide.com/city/Africa%20and%20Middle%20East/Egypt/Dumyat.Html)>.

(٦) ابن دقماق: الانتصار، ق٢، ص٨١.

(٧) نزهة المشتاق، ص٣٣٨. ٣٤٠.

(٨) ابن دقماق: الانتصار، ق٢، ص٨١؛ المقرئ: الخطط، ج١، ص٢٢٤.

(٩) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٦٦؛ العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تأريخ البحرية الإسلامية، ص١٦٣.

الوجه القبلي من بلاد مصر^(١).

ومما زاد من أهمية دمياط الاقتصادية ما تحصل عليه الحكومة من ضرائب على ما يرد إلى ثغر دمياط أو يُصدَّر منه ، إذ تفرض ضريبة الخمس على التجار الأجانب من غير المسلمين ، وذلك عن تجارهم الواردة إلى الميناء . كما أن هذه الضريبة ترتفع أحياناً بنسبة ٢٠% إلى ٣٥% من قيمة البضاعة الواردة^(٢) . ويذكر أن هذه الضريبة في ثغر دمياط كانت معروفة منذ القرن الرابع الهجري وكانت مبالغها باهظة^(٣) . لذلك اهتمت الحكومة بتحصيلها وتسجيلها ، وجعلت عليها رقابة تشرف على جمعها^(٤) .

كما ترجع أهمية دمياط الاقتصادية إلى شهرتها بصناعة النسيج بأنواعه الفاخرة، بسبب وفرة إنتاج الكتان الذي يزرع فيها بمساحات واسعة . إذ اهتم الفاطميون بزراعته و اعتبروه من مصادر الثروة المهمة فيها^(٥) . وتتجلى أهمية هذه الزراعة بكثرة مردودها خاصة في صناعة المنسوجات ، وهو ما دفع الحكومة إلى السيطرة عليها ، بحيث لا يباع الإنتاج إلا إلى سماسرة معينين من الدولة يتولَّون مهمة تصديره إلى بلاد الشام وأوروبا^(٦) . وقد أشار ياقوت الحموي إلى أهمية صناعة المنسوجات بدمياط، وكيف أن المنتج يصدر إلى مختلف البلدان وقال: ((وإنها تُتخف لجميع ملوك الأرض))^(٧) . مما يدل على جودة تلك المنتجات ، لأن من بين أهم من تُصدَّر لهم تلك المصنوعات هم الملوك ، كما كان للحكومة مصانعها الخاصة بالنسيج كذلك ، فيفرض على العاملين في تلك المصانع إنتاج نصيب معلوم يومياً^(٨) . ويمتحن

(١) حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة/ ١٩٦٧ م)، ج ٤، ص ٣٧٣.

(٢) ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، (القاهرة/ ١٩٦٤ م)، ص ٥١.

(٣) منز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة ، محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار الكتاب العربي، ط ٤، (بيروت/ ١٩٦٧ م)، ج ١، ص ٢٣٥.

(٤) مصطفى، شاكراً: المدن في الإسلام، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٥) سرور، محمد جمال: الدولة الفاطمية في مصر . سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة، (عابدين/ ١٩٦٥ م)، ص ٣٥٤ ؛ حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، (القاهرة / ١٩٦٤ م)، ص ٥٨٢.

(٦) ماجد، عبد المنعم: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، (مصر / ١٩٦٨ م)، ص ٢٩٩؛ عبد الحميد، صبحي: معارك العرب الحاسمة، بيت الحكمة، مطبعة الزمان ، (بغداد / ٢٠٠٣ م) ص ٣٥٤.

(٧) معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣.

(٨) القرويني: آثار البلاد، ص ١٩٣ ؛ الشتاوي و ابراهيم زكي خورشيد: المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٢٩٠.

القط عادة مهنة النسيج والحياكة التي كانوا بارعين فيها^(١).

ولم تتوقف صناعة النسيج في دمياط على نوع محدد ، بل كانت صناعات متنوعة ، مما يزيد في أهميتها الاقتصادية . من أمثلة ذلك الثياب المعروفة بالشراب^(٢) ، وهي من الكتان المسمى بالدمياطي^(٣) . وثياب القصب^(٤) وهي نوعٌ رقيق جداً^(٥) . ونسيج البوقلمون، وهو نوع فاخر لا مثيل له في بلدان العالم الأخرى آنذاك ، وصناعته متميزة ، حتى وُصفَ مبالغة بأن له لوناً : ((ذهبي ، و يتغير لونه بتغير ساعات النهار))^(٦) . وكما توجد فيها صناعة الفرش المسمى القلموني^(٧) ، وهو بالوانٍ ونقوش مختلفة . فضلاً عن ثياب أخرى تسمى الديقي^(٨) . وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة النسيج الأبيض^(٩) ، المتميز بالدقة ، حتى وصفه البعض بأنه يشبه غشاء البيض^(١٠) ، من شدة رِقَّةٍ به وندعومته . وصف ابن حوقل الحلل الدمياطية والتنسيّة وقال : ((ليس في جميع الأرض ما يدانيها في القيمة ، والحسن ، والنعومة ، والترف ، والرفقة ، والدقة))^(١١) . كما روى ياقوت الحموي عن رواج هذه الصناعة وقيمتها الباهضة ، وكيف أن أحد وجوه التجار أخبره أنه بيعَ في سنة (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م

(١) مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، (الإسكندرية/ ١٩٥٨ م)، ص ٨٨.

(٢) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي : كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت/ لا. ت)، ص ١٤٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ص ٥.

(٣) الشنتاوي و ابراهيم زكي خورشيد: المعارف الإسلامية، مج ٩، ص ٢٩٠ ..

(٤) المقدسي البشاري، شمس الدين محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، غازي طليحات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق/ ١٩٨٠ م)، ص ١٨٥.

(٥) متر : الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٥٣ .

(٦) خسرو، علوي ناصر : سفر نامة، تحقيق، يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط ٣، (بيروت/ ١٩٨٣ م)، ص ٧٧.

(٧) القزويني : آثار البلاد، ص ١٩٣.

(٨) متر : الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٥٣.

(٩) القزويني : آثار البلاد، ص ١٩٣.

(١٠) متر : الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٥١ - ٣٥٣.

(١١) صورة الأرض، ١٤٣.

(حُتَّان دميّاطيتان بثلاثة آلاف دينار، فقال: ((وهذا ما لا يُسمع بمثله في بلد))^(١).

أما في مجال الزراعة ، فإن دميّاط وبسبب موقعها المتميز على نهر النيل ، جعلها تشتهر كذلك بكثرة النواير ، التي كانت بأعداد كبيرة وجميلة ، وقد أورد المقرئزي أبياتاً في وصفها منها :

ولا سيما تلك النواير أنها تجدد حزن الواله المدنف الفرد
أطارحها شجوى وصارت كأنما تطارح شكواها بمثل الذي أبدي
فقد خلّتُها الأفلاك فيها نجومها تدور بمحض النفع منها وبالسعد^(٢).

كما اشتهرت بكثرة البساتين ، والتي كانت بحدود ثلاثمائة بستان ومنتزه^(٣) . وقد وصف ذلك المسعودي في ذكر دميّاط وقال: ((كانت أرضاً لم يكن مثلها استواء وطيب تربه ، وثراؤه . وكانت جناتاً ونحلاً وكرماً وشجراً ومزارع وكانت فيها مجاري على ارتفاع من الأرض ، وفُرى على قِرارها . ولم يرَ الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن نصالاً من جناتها وكرومها . ولم يكن بمصر كورة يُقال أنها تشبهها إلا الفيوم . وكانت أكثر خيراً من الفيوم . وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغربية ، وكان الماء منحدراً إليها لا ينقطع صيفاً وشتاءً ، يسقون منه جناتهم إذا شاءوا وكذلك زروعهم))^(٤).

وفضلاً عن كثرة مواردها الزراعية الأخرى توجد فيها الثروة السمكية كذلك^(٥) ، بسبب قربها من البحر ، وموقعها على شاطئ النهر ، كونها قريبة جداً من بحيرة دميّاط المعروفة آنذاك ببخيرة المنزلة، التي تكثر فيها أنواع من الأسماك^(٦) ، ومنها سمك البوري^(٧) ، والدولفين، إضافة إلى كثرة الطيور البحرية

(١) معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٧٣.

(٢) الخطط، ج ١، ص ٢٢٤.

(٣) ابن دقماق: الانتصار، ق ٤، ص ٢٩.

(٤) علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط ٤، (مصر/ ١٩٦٤)، ج ١، ص ٣٨٤.

(5) Columbia Encyclopedia , sixth edition , 2003

الموسوعة منشورة في شبكة الإنترنت على الموقع:

< <http://www.bartleby.com/65/du/Dumyat.html> >.

(٦) الحلبي، علي بن برهان الدين: السيرة الحلبية في سيرة الأئمة والمؤمنين، دار المعرفة (بيروت/ لا. ت)، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٧) ابن بطوطة : رحلة، ص ٤٨ . ٤٩ .

المتناهية في السمن^(١). ويبدو أن هذه الأهمية الاقتصادية كانت سبباً مهماً من أسباب طمع الغزاة البيزنطيين ثم الصليبيين فيها، ومحاولاتهم المتكررة لاحتلالها وامتلاكها لتحقيق مآربهم الأخرى.

ب- أهمية دمياط العسكرية:

تعد الأهمية العسكرية لمدينة دمياط من خلال كونها مدينة بحرية، وتصلح أن تكون ميناءً ومرفأً عسكرياً، لأنها تقع على ساحل البحر، ويمر منها فرع دمياط المتشعب من نهر النيل. كما تكمن أهميتها أيضاً في كونها مدينة مُحَصَّنَة عسكرياً وطبيعياً، فإذا سيطر عليها العدو فإنه يستطيع التحكُّم ببقية أقاليم مصر^(٢)، كما يستطيع التحكم بإمداداتها الواردة عن طريق البحر. لذلك ركَّز الصليبيون عليها وأكثروا من محاولاتهم لاحتلالها. هذا الموقع المهم للمدينة دفع الفاطميين - ومن بعدهم الأيوبيين إلى الاهتمام بأمر حمايتها، كذلك ركزوا كثيراً على بناء أسطولها الحربي^(٣). فذكر المقرئ أن بداية الاهتمام بالأسطول بدأ بعد هجوم الروم على دمياط سنة (٢٣٨هـ/٨٥٢م)، عندما أمر الخليفة العباسي المتوكل على الله بالعناية بأمر الأسطول وإنشاء المراكب وتخصيص الارزاق للمقاتلين في البر والبحر على السواء. كما نَسَبَ للأسطول القادة المتمرسون بأمر الحرب، و((كان لا ينزل في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بأمر الحرب))^(٤). وقد زاد من أهمية القاعدة البحرية لمدينة دمياط كون أرضها تصلح أن تكون مرسى بحرياً آمناً للأسطول، كما زاد من الأهمية العسكرية لها وجود السلسلة التي تمثل مانعاً مهماً لاختراق سفن الأعداء ودخولها قرب المدينة أثناء الحروب، مما يُبعد الغزاة عنها، ويمنع دخولهم إليها بشكل مباشر، ويؤمنُ السيادة للمسلمين في الجزء الشرقي من البحر المتوسط^(٥). ومن كل ما تقدم تبدو أهمية دمياط العسكرية من خلال التسابق بين نور الدين محمود و (جون دي برين) ومن بعده (عموري) لاحتلال مصر. فعرضت المدينة لغزو الصليبيين ومحاولتهم الاستيلاء

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٦؛ البغدادى، موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تحقيق، علي محسن عيسى مال الله، دار الحكمة، مطبعة التعليم العالي، (بغداد/١٩٨٧م)، ص ١٠١؛ القزويني: آثار البلاد، ص ١٩٣.

(٢) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، (بيروت/١٩٩٧م)، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٠.

(٣) المناوي، محمد حمدي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، (مصر/١٩٧٠)، ص ١٧٢؛ العدوي: الأساطيل العربية، ص ١٠٨.

(٤) الخطط، ج ١، ص ١٩٢.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٠ و ١٣٩.

عليها^(١). كما تجلّت هذه الأهمية في محاولة الصليبيين احتلالها، لأنهم كانوا يدركون أن الفوز باحتلال دمياط سوف يؤدي إلى الفوز باحتلال مصر بأكملها^(٢)، إلا أن هذا الحلم لم يتحقق لهم رغم كل محاولاتهم. مما يجعلنا نستنتج أن لمدينة دمياط أهمية عسكرية خاصة من بين مدن مصر الأخرى، لأنها تمثل ثغمة مصر، ومفتاح النصر والهزيمة، الأمر الذي جعلها عرضة للغزوات والحملات الصليبية منذ عهد نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي مروراً بالحملة الصليبية الخامسة والسابعة، والتي سنتناول تفاصيل دراستها في الفصول اللاحقة.

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٠؛ الهرفي، محمد علي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، دار الاصلاح، (لا.م/لا.ت)، ص ٢٠.

(٢) باركر، آرنست: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، ط ٢، (القاهرة/لا.ت)، ص ١٦٠.

الفصل الثاني

الغزو الصليبي لمدينة دمياط في عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي

أولاً - دوافع الغزو الصليبي لمدينة دمياط

أ - الأهمية الاستراتيجية لموقع دمياط

ب . الدوافع الاقتصادية

ج . الدوافع الدينية

ثانياً - الموقف الصليبي بعد ضم مصر إلى نور الدين

أ - الموقف السياسي (التحالف الصليبي البيزنطي)

ب . خطة المعركة لاحتلال دمياط

ثالثاً - الموقف الإسلامي

أ . إجراءات صلاح الدين

ب . إجراءات نور الدين محمود

رابعاً - سير المعركة

خامساً - نتائج المعركة

أ . الخسائر المادية والبشرية

ب . انتقال البيت الأيوبي إلى مصر

ج . تطور النزاع الصليبي -المصري

د -الاهتمام بصناعة السفن

هـ . وحدة الدولة الإسلامية

الفصل الثاني

الغزو الصليبي لمدينة دمياط في عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي

بالنظر لأهمية مصر بالنسبة للصليبيين من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، ولما تشكله السيطرة على هذه المدينة من أهمية كبيرة بالنسبة لوجودهم في بلاد الشام والقدس خاصة، لذا فإنَّ جُلَّ إهتمام الصليبيين أخذ ينصب على احتلال مصر بشتى الوسائل. أما بالنسبة لمدينة دمياط التي مر ذكرها، فإن لها أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية^(١)، مما جعلها الهدف الأول للصليبيين، وذلك لأهمية موقعها البحري، والذي شكل مفتاح النصر بالنسبة لهم. وهو جعل هذه المدينة عُرْضةً للهجمات الصليبية في هذه الفترة من تاريخه للبدء من عهد نور الدين وقائده صلاح الدين، وكذلك تعرضها ومحاوله احتلالها في الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة، والتي سنتناول دراستها لاحقاً. أما في سياق دراستنا هنا فأننا لا نريد الخوض في دراسة كل التفاصيل المتعلقة بمحاولات احتلال الصليبيين لمصر، وإنما نعرِّج لها باختصار، مع التأكيد على التفاصيل التي تخص محاولات الصليبيين لاحتلال مدينة دمياط وتعرضهم لها، وكذلك جهود المسلمين في إفشال هذه المحاولات وطردهم منها، والتي أدت في النهاية إلى فشل الصليبيين في احتلال مصر الهدف الرئيس لهم. وللوقوف على تفاصيل ما تقدم يمكننا أن ندرس هذا وفق ما يأتي .

أولاً . دوافع الغزو الصليبي لمدينة دمياط سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م)

من خلال دراستنا للموضوع تبين لنا أن هناك عدة دوافع للغزو الصليبي لمدينة دمياط، منها:

الأهمية الاستراتيجية لمدينة دمياط وأهميتها الاقتصادية والدينية:

أ- الأهمية الاستراتيجية لموقع دمياط

يبدو أن من أهم الأسباب العسكرية التي جعلت الصليبيين وبمشاركة البيزنطيين يسعون لاحتلال مدينة دمياط هو موقعها العسكري المتميز، إذ أنها تقع في منطقة مُحَصَّنَة من الناحية العسكرية ، تحميها بحيرة المنزلة من الخلف، والأبراج العسكرية من الأمام. كما أنها تسيطر على طريق السفن المارة في البحر المتوسط لقربها منه، فضلاً عن سيطرتها على السفن القادمة من البحر والمتجهة إلى القاهرة في نهر النيل. فهي تقف حجر عثرة أمام هذه السفن وتمنع وصولها إلى مصر، فتعزل مسيرها من خلال دفاعاتها

(١) راجع: الفصل الأول، ص ١٦-٢٠، ٢٩-٣٠.

لحين وصول الإمدادات والقوات العسكرية كما أنها تُعد من القواعد العسكرية المهمة في شمال مصر لحزن المؤمن والمواد العسكرية، كونه ميناءً بحرياً، مما جعلها عرضة لمحاولات متكررة لغزوها من قبل الصليبيين والسيطرة عليها لجعلها قاعدة عسكرية لهم على البحر ومركزاً لجمع الإمدادات. لذا كانت مدينة دمياط الهدف الأول للحملة الصليبية على مصر سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م) ^(١)، وكان ذلك في عصر نور الدين محمود وقائده صلاح الدين الأيوبي ^(٢)، الذي جاء إلى مصر تلبية لنداء الخليفة الفاطمي العاضد وزيره شاور. عندما ((اجتمع الفرنج والروم، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط، لتمكن القاصد لها من البر والبحر)) ^(٣).

و الذي شجع الصليبيين على محاولة احتلال مصر هو حالة ضعف الخلافة الفاطمية في هذه الفترة، إذ ترافق ذلك مع حالة النزاع الداخلي بين الوزيرين شاور وضرغام من جهة، على منصب الوزارة، الأمر الذي حدا بهما إلى الاستعانة بالصليبيين لتحقيق أطماعهما، وما رافق ذلك النزاع من حرص نور الدين وتخوفه من احتلال الصليبيين لمصر، والذي كان في حالة صراع مع الصليبيين في بلاد الشام.

(١) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط ٩، (بيروت / ١٤١٣هـ) ج ٢، ص ٤١٦.
(٢) نور الدين : هو محمود بن عماد الدين زنكي، تركي الأصل، أقسم مع شقيقه سيف الدين غازي السلطة بعد وفاة والده سنة (٥٤٠هـ / ١١٦٤م). إذ تم لشقيقه الولاية على الموصل والجزيرة حتى الخابور. وكان لنور الدين السلطة على بلاد الشام، واتخذ من حلب قاعدة لحكمه. ورث عن والده صفات الحاكم الفاضل، وتركزت سياسته الخارجية على طرد الصليبيين من البلاد الإسلامية. (مؤنس، حسين : نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة / ١٩٥٩م، ص ٥ وما بعدها ؛ برو كلمان، كارل : تأريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٨ ، بيروت/ ١٩٧٩م، ص ٣٥٠، ٣٤٧).

أما صلاح الدين: فهو يوسف بن أيوب المكنى (نجم الدين) بن شاذي، من الأكراد الروادية، وإليه تُنسب السلالة الأيوبية. قدم شاذي إلى العراق من بلدة دوين في أذربيجان. وكان إقطاعه حين قدومه مدينة تكريت، ومات شاذي فيها في ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ. ثم رحلوا عنها سنة ٥٣٣هـ، وقيل أن صلاح الدين ولد ليلة خروج عائلته منها. ثم تنقلوا بين الأمصار، وتقدموا في المناصب، حتى صاروا ملوكاً وآباء ملوك. وللمزيد من التفاصيل عن صلاح الدين الأيوبي ينظر: (ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق، جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة / ١٩٦٤؛ قلججي، قدری: صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر للميلاد، دار الكاتب العربي، ط ٥، لا.م / ١٩٧٩م).

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤١.

إذ كان (عموري) ملك مملكة بيت المقدس طامعاً في احتلال مصر، وتخوفه . هو الآخر . أن تكون مصر بيد نور الدين، وعندها تكون نهايةً للوجود الصليبي ومستقبله في هذه المنطقة. كما أنه يعد احتلال مصر تحقيقاً لأمن مملكته واستقرارها. لذا استغل كلا الطرفين، الصليبيين ونور الدين، فرصة استنجد الوزراء بهما، وتسابقا لتحقيق هذا الهدف في احتلال مصر. ومن أمثلة ذلك ما حصل سنة (٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م)، عندما استطاع ضرغام الاستيلاء على الوزارة لنفسه وطرد شاور، فاستعان الأخير بنور الدين الذي لى طلبه وأعانه بقوة يقودها أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين، وتمكنا من إعادته إلى الوزارة. بيأن شاور لم يَفِ بوعده لنور الدين، بل استعان بالصليبيين لإخراج شيركوه من مصر، فاجتمع شاور بقواته مع عسكر الصليبيين، وحاصر أسد الدين شيركوه في بلبس مدة ثلاثة أشهر، ثم انتهى الحصار بصلح بينهم^(١). لذلك قيل أن: ((شاور هو الذي أطمع الفرنج في الدولة)) المصرية^(٢).

وفي سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م)، جهز نور الدين جيشه مرة أخرى إلى مصر، بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبه صلاح الدين كذلك، وتمكن من الأستيلاء على الجيزة، فاستنجد شاور مرة أخرى بالصليبيين الذين أنجدوه، وساروا في أثر أسد الدين شيركوه إلى الصعيد، لكنه تمكن من إلحاق الهزيمة بهم. ثم سار شيركوه إلى الإسكندرية وتمكن من فتحها بمساعدة أهلها الذين رَجُّوا به، وجعل صلاح الدين عليها، غير أن عسكر مصر تعاون مع الصليبيين من جديد بطلب من شاور، وحاصروا صلاح الدين بالإسكندرية ثلاثة أشهر لكنه ظل صامداً ويقاوم، حتى عاد أسد الدين شيركوه وتمكن من فك الحصار عنه، وآتفقوا على الصلح مع دفع مال إلى أسد الدين شيركوه، أما الصليبيون فبقى لهم شحنة في القاهرة، على أن يعود كلا الطرفين إلى بلادهم^(٣). وفي سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م)، هلك الصليبيون بلبس وحاصروا القاهرة^(٤)، فأحرق شاور مدينة الفسطاط، فاستعان الخليفة العاضد بنور الدين الذي لى طلبه مرة أخرى^(٥)، فتقدمت القوات النورية للمرة الثالثة باتجاه مصر، وهربت القوات الصليبية مذعورةً عند سماعهم خبر التقدم. عندها عزم شاور على القبض على أسد الدين شيركوه والقضاء عليه، غير أن القوات

(١) نوري، دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م، مطبعة الارشاد، (بغداد/ ١٩٧٦ م)، ص ٧٣-٧٦.

(٢) اليمني، نجم الدين أبي محمد عُمارة بن أبي الحسن الحَكَمي: كتاب فيه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، عُنِي بتصحيحه، هرتويغ درنبرغ، مطبعة مَسُو، (شالون/ ١٨٩٧ م)، ص ٨٨.

(٣) المقرئزي: إتعاض الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٤ - ٢٨٥؛ العريني، السيد الباز: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، دار النهضة العربية (القاهرة / لا ت.)، ج ١، ص ٣٥-٣٦.

(٤) المقرئزي، إتعاض الحنفا، ج ٣، ص ٢٥٧ - ٢٩٢.

(١) أبْن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٩٩؛ الغامدي، عبد الله سعيد محمد: صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، (مكة / ١٩٨٥ م)، ص ٤٦.

النورية هي التي قبضت على شاور وتم قتله^(١). و بعد مقتل شاور انتهت مرحلة مهمة من مراحل الخيانة في مصر، والتي كانت تعد من بين أهم الدوافع التي أغرت الصليبيين على غزوها، لذلك لم يعد للصليبيين في مصر من يستندون إليه في الداخل^(٢)، خاصة وأن الوزارة أسندت إلى أسد الدين شيركوه^(٣).
 إلا أن مطامع الصليبيين ومحاولاتهم احتلال مصر لم تنته عند هذا الحد، بل زادت حدتها، إذ شعروا بالخطر على وجودهم في بلاد الشام، فوجهوا مخططاتهم للإفلات من قوة نورالدين عن طريق السعي لاحتلال مصر وهو الطريق الذي سيُهد لهم سبيل الاتصال بالغرب أيضاً^(٤). فقد أدركوا خطورة تطلعاته، وشعروا أنه إذا استولى على مصر فإنه يستطيع التضييق عليهم وسيطردهم من بلاد الشام^(٥).
 وأن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هو احتلال مدينة دمياط، إذ أن موقعها المميز كمركز متوسط بين البلاد المصرية والشام لا يقف عند هذا الحد، بل يضاف إليه استراتيجية أخرى، كون دمياط قريبة في موقعها من جهة البحر إلى جزيرة قبرص^(٦) وهو ما يؤهلها للاتصال بهذه الجزيرة عسكرياً، ويجعل مهمة الاتصال والإمداد للأغراض العسكرية أمراً يسيراً لهم. وبما أن دمياط مُحاطة بالمياه من ثلاث جهات، فإن هذه الميزة تجعل منها -عند الاستيلاء عليها- موقعاً عسكرياً آمناً. كما أن كثرة خيراتها وثرواتها، المتمثلة بالثروة السمكية والمحاصيل الخضرية وأنواع الفواكه من الأراضي الزراعية المحيطة بها، يُؤمن للجيش الصليبي المحتل حاجته من المؤن الكافية فضلاً عن أهمية دمياط الأخرى بسبب مينائها الذي ترسو فيه السفن الكثيرة من وإلى سواحل الشام وأوروبا وغيرها^(٧)، ومنها يكون الاتصال سهلاً عن طريق البحر بجزيرة صقلية والغرب الأوربي، مما يجعلها المفتاح الرئيس لاحتلال مصر، لهذا كانت دمياط هدفاً لاحتلال الصليبيين.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩ ص ١٨٦ وما بعدها ؛ البنداري، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد: سنا البرق الشامي (وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني)، تحقيق، رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت / لا. ت.، ق ١، ص ٦٢- ٧٨؛ سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قراوغلي التركي: مرآة الزمان في تأريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، (الذكن / ١٩٥٢م)، ج ٨، ق ١، ص ٢٦٨. ٢٧٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٠١؛ باركر : الحروب الصليبية، ص ١٦١.

(٤) نوري : سياسة صلاح الدين ، ص ٨٨-٨٩.

(٥) باركر : الحروب الصليبية، ص ١٥٨.

(٦) مقبل، فهمي توفيق : الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية، (بيروت / ١٩٨٠م)، ص ١٤١.

(٧) يوسف، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٩٣. ٩٤.

(٧) غنيم : الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٧٣.

ب . الدوافع الاقتصادية :

وكما عرفنا آنفاً الدوافع السياسية والعسكرية فأن هناك أسباباً اقتصادية دفعت بالصلبيين إلى استهداف دمياط، كان من بينها ميناؤها المهم الذي يعد المدخل الرئيس لاحتلال مصر ونظراً لأهمية هذا الميناء، فقد أصبحت دمياط مطمح أنظار الصليبيين، وكانت المدن التجارية الإيطالية المهمة مثل جنوا وبيزا والبندقية . هي الأخرى . تلمّ بالسيطرة على تجارة البحر المتوسط منذ بداية الحروب الصليبية، للسيطرة على تجارة العالم، وأن هذا الحلم لن يتحقق إلا بالسيطرة على الموانئ العربية المزدهرة في شرق وجنوب البحر المتوسط^(١)، والتي من بينها ميناء دمياط المهم. عندما اكتشفوا أهميتها التجارية على ذكر ابن تغري بردي الذي قال : ((اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها))^(٢).

وفضلاً عن أهمية مينائها هذا فإن وفرة للموارد الزراعية والحيوانية، كما تمر فيها تجارة الترانسيت القادمة من الهند من جهة، ومع بيزنطة والغرب من جهة أخرى^(٣).

و على الرغم من المنازعات السياسية والعسكرية أحياناً بين مصر والدولة البيزنطية، فأن العلاقات التجارية لم تنقطع بينهما، إذ كان البيزنطيون يستوردون المنسوجات من مصانع دمياط وتيس، كما تستورد مصر كذلك حاجتها من الغلال من الدولة البيزنطية^(٤) إضافةً لما تقدّم فأن جزءاً كبيراً من تجارة الشرق كانت ترد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط فيحمله التجار الأوربيون من دمياط إلى الغرب الأوربي، مما جعل لها أهمية تجارية متميزة، جعلتها مستهدفة من قبل الصليبيين والبيزنطيين. كما كان التجار الأوربيون يَفدون إلى دمياط بشكل جاليات، لكل جالية فنصل يشرف على شؤونهم ومصالحهم الاقتصادية^(٥). تلك الدوافع الاقتصادية دفعت بالقادة الصليبيين، أن يمنوا جنودهم بالوعود الحاملة من أجل حشد همم مقاتليهم و ذلك في اقتطاع جزء من دخل دمياط لهم في حالة تمكنهم من احتلالها، تشجيعاً لهم على القتال. ومن أمثلة ذلك ما قام به ملك بيت المقدس حينما أصدر مرسوماً بتاريخ ١١

(١) وهبة، مصطفى : موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، (المنصورة / ١٩٩٧ م) ص ١٣.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٤٥٠ ؛ المعاصيدي، خاشع، وسوادي عبد الحميد ودريد عبد القادر نوري: الوطن

العربي والغزو الصليبي، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل / ١٩٨١ م)، ص ١٢٤.

(٣) ماير، هانس ابرهارد : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق، عماد الدين غانم، مجمع الفاتح للجامعات، (طرابلس / ١٩٩٠ م)، ص ١٧٦ . ١٧٧.

(٤) سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٥٨.

(٥) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٦٣.

تشرين أول من سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) يقضي بمنح فرسان الأستبارية^(١) جزءاً هاماً من إيراد مصر، ونصبياً أكبر من دخل أهم مدنها المهمة وبخاصة دمياط والإسكندرية، في محاولة منه لتشجيعهم على مساندته في تحقيق مشروعه وهو إجراء يُنبئ عن عزمه على احتلال بلاد مصر بكاملها، وكان اعتقاده في إمكانية تحقيق هدفه مبنياً على توقعاته بإمكانية احتلاله لمدينة دمياط أولاً^(٢).

ومن خلال ما تقدم يبدو لنا جلياً أن ودوافع سياسية وعسكرية واقتصادية كانت وراء محاولات الصليبيين لاحتلال مدينة دمياط، لأنها الواجهة الأمامية لمصر. وهكذا دفعت هذه المدينة ثمن موقعها ومينائها المهم على البحر. وذلك بتعرضها لويلات وهجمات الحروب الصليبية بين فترة وأخرى.

ج . الدوافع الدينية:

يبدو من خلال البحث أن للصليبيين دوافع أخرى لها صفة دينية لغزو مصر واحتلال دمياط، من ذلك حسب ادعائهم هو ما يتعلق بتأمين قوافل الحجاج من النصارى المتوجهين بالأخص من الغرب الأوربي إلى بيت المقدس، التي ازدادت أعدادهم في القرن الحادي عشر حتى بلغت الآلاف، على الرغم من أنهم كانوا مسلحين في الغالب لحماية أنفسهم من أخطار الطريق^(٣). وبما أن هذه القوافل كانت تمر عبر البحر بميناء دمياط^(٤)، فقد فكروا بالاستيلاء عليها لتأمين حماية قوافلهم^(٥)، كي لا تتعرض للغزو أو القرصنة أثناء مرورها فيه.

وما يُؤكد هذا الهدف هو رغبة الصليبيين في نشر الديانة المسيحية، وخاصة الكاثوليكية منها، هو ما كشفت عنه الوقائع التاريخية عند احتلال الصليبيين لمدينة دمياط سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) في عصر الملك الكامل، إذ حوّلوا مسجدها الجامع إلى كنيسة كاثوليكية، وعملوا على تثبيت شعائرهم بها، كما

(٢) الاستبارية : وأصلها بالفرنسية : (Hospitaliers De Saint - Jean) تأسست في القدس، ومؤسسها القديس يوحنا المتصدق، ثم خلفه يوحنا الأنجيلي، وبعد وفاة الثاني سنة (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) خلفه الراهب الفرنسي ريموند لوبوييه. والأخير اشتهر عنه تطوير عمل الطائفة من مجرد منظمة هدفها إرشاد الحجاج وإيوائهم، إلى منظمة عسكرية تضم طائفة من الفرسان المقاتلين. أما شعارهم فهو الصليب الأبيض. (العسلي : فن الحرب الإسلامي، مج ٢، ص ٦٣٨ . ٦٣٩).

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٦٣.

(٤) يوسف، جوزيف نسيم: في تاريخ الحركة الصليبية، دار المعرفة الجامعية، (الإسكندرية / ١٩٨٩ م)، ص ٣١ . ٤٠٠.

(١) العسلي: فن الحرب الإسلامي، مج ٤، ص ١٢٣.

(٢) المعاضيدي وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٩ . ٢٠.

أبطلوا الطقوس الدينية التي جرى عليها النصارى الشرقيون في المدينة وأحلّوها طقوساً كاثوليكية. كما كبروا هذه الأفعال عند احتلالهم دميّاط في الحملة الصليبية السابعة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م)، حتى صار مسجدها الجامع كاثدرائية وعُيّنوا لُسقفاً لها^(١). مما يبين أهمية هذا الهدف بالنسبة للصليبيين في احتلال دميّاط من خلال نشر شعائهم في هذه المدينة.

ثانياً . الموقف الصليبي بعد ضم مصر إلى نور الدين

إن ضم مصر إلى نور الدين بقيادة صلاح الدين زاد من يأس الصليبيين وحقدهم عليه، الأمر الذي دعاهم إلى التعاون والتحالف مع البيزنطيين، من أجل استرجاع مصر من قبضة صلاح الدين. إلا أن كل هذه المحاولات فشلت ولم تُجدِ نفعاً أمام المسلمين. ويمكننا دراسة ذلك الموقف وفق ما يأتي:

أ - الموقف السياسي (التحالف الصليبي البيزنطي)

سبق الحرب الصليبية على دميّاط سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) فقدان الصليبيون الكثير من الممتلكات في بلاد الشام بصورة متتابعة^(٢)، إذ حرص نور الدين أن يُضَيّق الخناق على ممتلكات الصليبيين من جميع الجهات^(٣). كما كان لدخول مصر في حكم نور الدين . فعلياً . بعد أن دخلها جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه آثاراً خطيرة على موقف مملكة بيت المقدس، إذ أصبح نور الدين العدو الأول للصليبيين منذ أن دُست أقدام الصليبيين تُرّاب الشام^(٤). وشعّ ملكها (عموري) بخطورة الموقف بعد أن أكمل نور الدين طَوق الحصار على مملكته من الجنوب، في وقت كانت فيه ساحة الحركات الجنوبية مستقرة بالنسبة لهم^(٥). وذلك بسبب ضعف الخلافة الفاطمية في مصر.

(٣) يوسف، جوزيف نسيم: تاريخ الحركة الصليبية، ص ٨٤.

(٤) من ذلك فتح نور الدين قلعة حارم سنة (٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م)، والتي تُعد إحدى قلاع النصارى المهمة في بلاد إنطاكية، وفيها آستسلم كل من بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند كونت طرابلس. كما فتح نور الدين قلعة بانياس في السنة ذاتها. وفي سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) أغارت قوات نور الدين على حصن الأكراد وغنمت ما فيه من أموال. ثم قصدت عرقه فحاصرتها وتمت لها السيطرة عليها. كذلك تم فتح العريمة وصافيتا وحصن هوتين، وهو من أمنع الحصون الصليبية فانهزموا عنه وأحرقوه. (ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٨٦ . ٨٨ و ٩٤ . ٩٦)؛ وللمزيد من التفاصيل عن إنجازات نور الدين، ينظر: الصوري : تأريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٨٨٩، ٨٨٨، مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣٠٦ وما بعدها.

(١) باركر : الحروب الصليبية، ص ٧٨.

(٢) العسلي : فن الحرب الإسلامي، مج ٢، ص ١٠٣.

(٣) زابوروف، مخائيل: الصليبيون في الشرق، ترجمة، الياس شاهين، دار التقدم، (موسكو/ ١٩٨٦ م)، ص ١٥٤.

أما بعد سيطرة القائد أسد الدين شيركوه على مصر، وتسلُّهُ منصب الوزارة فيها، وما حصل بعد وفاته من استئثار ابن أخيه صلاح الدين بالحكم^(١)، فإن ذلك يعني من الناحية السياسية والعسكرية سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، وبخاصة الموانئ المهمة في الدلتا العليا بمصر، وأهمها ميناء دمياط وكذلك ما يُقابلها من بعض الموانئ المهمة على ساحل الشام^(٢). الأمر الذي جعل الصليبيين يخشون على ما بأيديهم من مُدن في بلاد الشام^(٣)، وشعورهم اليأس بالهلاك المحتم^(٤). وصف ذلك ابن الفرات وقال: ((وأيقن الفرنج بالهلاك))^(٥). لذلك جعلوا دمياط هدفهم الأول في خطتهم العسكرية، واتفقوا على غزوها وحصارها^(٦)، مُتَوَحِّينَ من ذلك تحقيق هدفين، هما: إضعاف موقف نور الدين في بلاد الشام أولاً، وكذلك إضعاف موقف صلاح الدين في مصر ثانياً^(٧)، إنطلاقاً من شعورهم بالخطر الذي يهدد مملكة بيت المقدس وطموحهم باحتلال مصر^(٨)، لأنه صار بإمكان صلاح الدين محاصرة المملكة بحراً خروجاً من مصر بأسطوله، وكذلك ضرب المدن الساحلية في بلاد الشام. كما أصبح بإمكانه إعاقة الحجاج الوافدين إلى القدس^(٩). مما حدا بالملك (عموري) أن يتوجه نحو الغرب إلى دول أوروبا طالباً مساعدتها، وباشراً في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لإنقاذ الموقف الصليبي في الشرق، كما

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٦.

(٥) غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ١٩.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (بيروت / ١٩٧٩ م)، مج ٥، ص ٢٠٨.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٣٩.

(٨) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، تحقيق، حسن محمد الشماع، مطبعة حداد، (البصرة / ١٩٦٧ م)، مج ٤، ج ١، ص ٨٢.

(9) Stevenson, W. B: the Crusaders in the East, Cambridge University Press, 1968, p.196.

(١) العسلي، بسام: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، دار النفائس، ط ٢، (بيروت / ١٩٨٧ م)، ص ٨٩.

(٢) سميل، ر. سي: الحروب الصليبية، ترجمة، سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت / ١٩٨٢ م)، ص ٣٤.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٧ - ٩٣٨.

كاتب الصليبيين في الأندلس وصقلية^(١)، مستمداً منهم العون، وموضحاً لهم ما استجد من ملك نور الدين لمصر، مسوغاً تخوفه من احتمالات تملك نور الدين لبيت المقدس والسيطرة عليه بجيشه وطرده الصليبيين منه، ومذكراً إياهم أن الصليبيين: ((خائفون على بيت المقدس من المسلمين))^(٢). وتجدر الإشارة أن تلك الاستغاثة لم تخفف على المؤرخين المسلمين، ومنهم ابن الأثير الذي قال: ((إن الصليبيين بالشام كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما، يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس))^(٣). لذلك قرر الصليبيون في مملكة بيت المقدس إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات الرفيعة عندهم إلى أمراء الغرب، لعرض المحنة المفردة للمملكة غير أن عاصفة هوجاء قذفت بالسفينة، فعاد المبعوثون بعد ثلاثة أيام من رحيلهم مذعورين^(٤).

ثم قام (عموري) بإرسال سفارة ثانية توجهت أولاً إلى البابا، الذي زودها عند مقابلتها بتوصيات إلى ملوك أوروبا. بعدها قصدت تلك السفارة ملك فرنسا (لويس السابع) غير أنه طُل في الرد ولم تحصل منه على جواب قنع. ثم غادرت السفارة فرنسا إلى انكلترا، الذي اعتذر ملكها (هنري الثاني) بمتاعب مملكته الداخلية مع خصومه. ولم يتيسر للسفارة التوجه إلى ألمانيا ومواجهة إمبراطورها (فردريك الأول)، بسبب الخصومة بين البابا والإمبراطور^(٥). ثم عادت تلك السفارة بعد عامين دون أن تحقق نجاحاً سياسياً، ذكر على هذا الصعيد^(٦).

ويبدو أن فشل السفراء بمهمتهم إلى دول الغرب الأوربي، وضع (عموري) في مأزق حقيقي، لذلك لم يجد أمامه غير الإمبراطورية البيزنطية معيناً للقيام بعمل مشترك، يضطلع من خلاله بإنقاذ موقفه وتحقيق أهدافه. وكانت بدايات الخطة تقضي بالتقرب من الإمبراطور البيزنطي (مانويل كومنين) وكسبه حليفاً استراتيجياً إلى جانبه، إذ بعث (عموري) ملك بيت المقدس وفداً إلى القسطنطينية

(٤) تاريخ ابن الفرات، مج ٤، ج ١، ص ٨٢.

(٥) ابن قاضي شهبة، بدر الدين: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق، محمود زايد، دار الكتاب الجديد، (بيروت / ١٩٧١ م)، ص ١٨٦.

(٦) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق، عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، (القاهرة / ١٩٦٣ م)، ص ١٤٣.

(٧) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٨.

(٥) مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣١٩. ٣٢٠.

(٦) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٨؛ وينظر، العربي، السيد الباز: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية، (القاهرة / ١٩٦٣ م)، ج ١، ص ١١٧؛ مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣١٩.

برئاسة رئيس أساقفة قيسارية، الذي عاد بعد سنتين جالباً معه^١ ماريا ابنة يوحنا، الأخ الأكبر للإمبراطور البيزنطي كزوجة للملك (عموري)، الذي تزوجها في التاسع والعشرين من آب سنة (٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م). وكان الغرض من هذا الزواج سياسي، وهو تحقيق التقارب الصليبي البيزنطي ضد عدوهم المشترك المسلمين. وفي غضون ذلك الصيف وصلت إلى صور سفارة من الإمبراطور، وهي تحمل رسالة إلى الملك (عموري)، يدّعه فيها بما آلت إليه بلاد مصر من الضعف وإنه^٢ يستطيع إذا ما تَحَدّت جهودهما على إخضاعها بسهولة. كما أوفد (عموري) أيضاً سفارة إلى الإمبراطور، كان وليم الصوري أحد أعضائها وتحوّل^٣ صلاحية المصادقة على ذلك الاتفاق^(١). وبعد وصول الوفد اتفق الجانبان على التفاصيل التي كان قد أعدّها المبعوث الملكي، حيث تم التوقيع على اتفاق التعاون المشترك بين بيزنطة ومملكة بيت المقدس، وكان ذلك في سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م)^(٢). ومن أهم بنوده. الاتفاق على إرسال قوة مشتركة نحو مصر لاحتلالها واقتسامها^(٣). ولعل اختيار مدينة دمياط بالذات، فصح عن أن المحرك الأساس لذلك المشروع هم البيزنطيون، اعتماداً منهم على أسطولهم، إذ اتفق (عموري) مع الإمبراطور البيزنطي (مانويل) على مُحاصرة دمياط براً وبحراً واحتلال مصر عن طريقها^(٤). وبموجب ذلك الاتفاق، يكون لمملكة بيت المقدس دواخل مصر وبلبيس والقاهرة، بينما تحصل بيزنطة على ما تبقى منها^(٥). وذكر آخرون أن (لعموري) هدفاً آخر من الاتفاق، هو توريث الإمبراطورية البيزنطية في حرب شاملة مع نور الدين، لكي يخفف عنه الضغط في الجبهة السورية من بلاد الشام^(٦).

ب. خطة المعركة لاحتلال دمياط :

لم يكتفِ (عموري) بإرسال سفارته. كما تقدم. إلى ملوك وأمراء الغرب، كما لم يكتفِ بما اتفق عليه أخيراً مع البيزنطيين، بل أرسل جماعة من القساوسة والرهبان إلى الإمارات الصليبية في الشرق

(٣) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٢٦. ٩٢٨

(٤) العربي : الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧١٧.

(٥) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١١ ؛ المعاضيدي وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٢٥ و ١٥٠. ١٥١.

(٦) سعداوي، نظير حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة/ ١٩٥٧ م)، ص ١٧. ١٨.

(١) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٣٠.

(٢) اليوسف، عبد القادر أحمد: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت/ ١٩٦٩ م)، ص ١٣١.

يخرضون الناس على الاشتراك بالحرب ضد المسلمين، ((فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح))^(١).
 أما على صعيد التحالف الصليبي . البيزنطي، فقد قامت الإمبراطورية البيزنطية بتهيئة أسطول ضخم بقيادة (الكسيوس كونتو ستيفانوس)، فغادر هذا الأسطول مياه الدردنيل (البسفور) سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) باتجاه مصر^(٢). و أما عن حجم هذا الأسطول فقد اختلفت الروايات بشأن مقدار قوته، إذ ذكر وليم الصوري، أن عدد سفنه كان بحدود مائة وخمسين سفينة حربية تعرف بالشواني^(٣)، إضافة إلى ستين سفينة جيدة التسليح كانت قد صُنعت خصيصاً لنقل الخيول، وكان فيها جسور لصعود ونزول الرجال والخيول من وإلى السفينة. كما يشتمل الأسطول أيضاً على عشرة إلى عشرين سفينة ذات حجم ضخم محملة بمختلف المواد الغذائية، إلى جانب تحميلها بالأسلحة وآلات الحرب ومعداته^(٤). وقد قدر مجموع السفن البيزنطية مابين مائتي وعشرين إلى مائتي وثلاثين سفينة مختلفة مختلفة الأنواع وهو رقم كبير يُشير إلى ضخامة المهام التي عُد لها هذا الأسطول. كما أشار ابن إياس إلى هذا الرقم كذلك^(٥). في حين أورد المقرئزي تفاصيل أكثر ضخامة من هذا العدد، مشيراً إلى أن قوة الأسطول البيزنطي تكونت من ألف ومائتي سفينة مزودة بالأموال والسلاح والدبابات والمناجيق^(٦)، وكانت معظمها مملوءة بالتجهيزات والعساكر^(٧). وقد أبحر الأسطول البيزنطي باتجاه جزيرة قبرص القاعدة

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٤٣ ؛ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة . (بغداد / ١٩٧٨ م) ، ص ٧٣.

(٤) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٦ ؛ رنسيما، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العربي، دار الثقافة، (بيروت/ لا.ت)، ج ٣، ص ٦٢٤؛ الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٨.

(٣) الشواني : الواحدة منها تسمى شيني أو شونة. وهي زوارق حربية تتحرك بالمجاديف، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم. كما تحتوي على مخازن للطعام وصهاريج للماء الحلو، حتى تساعد بحارتها وجنداءها على البقاء أطول مدة ممكنة في عرض البحر. (العدوي: الأساطيل العربية، ص ١٥٣).

(٦) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٩.

(١) بدائع الزهور، ج ١، ص ٧١ ؛ وينظر : عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٦١ ؛ الزبيدي، مصعب حمادي نجم: عسقلان والحروب الصليبية للفترة بين (٤٥٠-١٠٩٦/٥٦٩-١٢٧٠ م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل لسنة ٢٠٠٠، ص ٩٦؛

Stevenson : op. Cit, p.196.

(٢) الخطط، ج ١، ص ٢١٤ ؛ سعداوي : التاريخ الحربي المصري، ص ١٨.

(٣) الشرقاوي، عبد الله: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين، المطبعة الأزهرية، (مصر / ١٣١١ هـ)، ص ١١٧.

المتقدمة له^(١)، و التي فيها التحقت قوات إضافية إليه. ثم أرسلت قطعة بحرية صغيرة منه باتجاه ميناء عكا، تحمل أموالاً إلى (عموري) من أجل إنفاقها على تهيئة قواته للقتال، وكذلك من أجل الالتقاء به والاتفاق معه على رسم الخطة العسكرية لغزو دمياط. وبالوقت نفسه لتبليغ (عموري) أن بإمكانه إصدار الأوامر بتحريك الأسطول البيزنطي المتواجد في جزيرة قبرص عند تهيئة قواته للحركة^(٢).

في الوقت الذي كانت فيه قوات الأسطول البيزنطي جاهزة للحركة استعداداً للحرب، فأن قوات (عموري) لم تكن كذلك. إذ أن آثار الحرب السابقة التي شنتها قواته على مصر سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) لم تنزل عالقة في الأذهان^(٣)، و تؤثر سلباً على الموقف من الحرب المرتقبة. ومن أهم تلك الآثار رفض فرسان الداوية^(٤) الاشتراك بهذه الحرب، وتلك فرسان الاستبارية، بسبب الخسائر الفادحة التي التي لحقت بفرسانهم فيفطماً عما لاقته تلك القوات. ممن وقع منهم في الأسر. من قسوة في التعامل من قوات صلاح الدين^(٥). إن هذه العضلات أمام (عموري) تتطلب منه الحل والمعالجة قبل اتخاذ القرار بشن الحرب، وقد سبب ذلك في تأجيل القرار ببدء الحرب مرات عديدة. وقد وصف (Stevenson) ذلك التأجيل بالجن، إذ مرّت الأسابيع و لم تكن قوات (عموري) مستعدة للقتال^(٦). كما أن الظروف الطبيعية ساهمت في تأخير تحرك القوات الصليبية، إذ هبت ريح عاصفه أخرت سير الأسطول البيزنطي، مما جعل صلاح الدين يستفيد من ذلك التأخير في تقوية حامية

(٤) العسلي : الأيام الحاسمة، ص ٢٩٧.

(٥) الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٨.

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٣٨ . ٤٠.

(٧) الداوية: تعني فرسان المعبد (Knights Templar) تم تشكيلها في السنة نفسها التي تم تشكيل منظمة الاستبارية فيها وهي سنة (٥١٢ هـ / ١١١٨ م)، بمبادرة من أحد فرسان شامانيا وأسمه: هيو باينز. إذ تقدم بمبادرته إلى ملك بيت المقدس آنذاك وهو بلدوين الأول، وأقنعه بضرورة إنشاء طائفة تلتزم بالجانبين الديني والعسكري. وسمح لمقدم الطائفة ورجاله النزول في جناح خاص بالقصر، وبالتحديد في ساحة المعبد وهو المسجد الأقصى ومن هنا حملت هذه الطائفة اسم فرسان المعبد، وقد آنتضمت في طبقات ثلاث : الفرسان والأجناد ورجال الدين، أما شعارها فهو الصليب الأحمر. (العسلي : فن الحرب الإسلامي، مج ٤، ص ٦٣٩).

(٨) مع صلاح الدين مع الداوية والاستبارية سياسة حازمة، قضت بقتل من يقبض عليه من فرسانهم، وذلك بسبب تنكرهم للمبادئ الإنسانية وخلعهم للزني الديني، فصاروا في عداد المحاربين، ينقضون العهود، ويسفكون الدماء كما عرف عنهم التعصب الأعمى ومعاداتهم الشديدة للمسلمين. سعداوي، نظير حسان: جيش مصر في أيام صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، (القاهرة / ١٩٥٩)، ص ٦٢.

دمياط والاستعداد لمواجهة العدو^(١).

ومن أجل إرضاء وتشجيع فرسان الأستبارية على الإشتراك في الحرب، أصدر (عموري) مرسوماً مهماً في محرم الموافق ١١ أيلول من سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م) يقضي بمنحهم جزءاً مهماً من إيرادات مصر ومن دخل أهم مدنها التي من بينها دمياط^(٢). أما بارونات مملكة بيت المقدس، فأن تجربة الحرب السابقة لم تشجعهم على السرعة في اتخاذ القرار، لذلك لم يتخذ (عموري) قرار التقدم باتجاه دمياط حتى أواخر شهر محرم الموافق أيلول من تلك السنة. أما بالنسبة للأسطول البيزنطي، فقد صدرت له الأوامر بالتقدم إلى ميناء عكا أولاً^(٣)، إلا أن الاستعدادات لم تكن كافية لغاية شهر صفر الموافق تشرين الأول من ذلك العام^(٤). علماً أن الأعداد الصليبي للحرب لم يقتصر على النجاح في الجانب العسكري فقط، بل كان الاهتمام الصليبي منصباً على الجانب الاقتصادي كذلك، إذ حاول الصليبيون تخريب الاقتصاد المصري لما له من تأثير في إضعاف ميزانية الدولة ورفد الجبهة العسكرية. من ذلك نشر العملة المزيفة في مصر، مما تسبب بانخفاض قيمة الدينار الفاطمي وانعدام ثقة الناس بالعملة المصرية^(٥) فضلاً عما تقدم، فأن مدفوعات شاور إلى الصليبيين التي سبقت هذه الحرب، كانت قد أرهقت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية آنذاك^(٦). إلا أنه رغم كل التخطيط المتفق عليه بين الحليفين، فإن سير الأحداث لم يكن في صالحهما في ضوء خططهما الرامية إلى احتلال دمياط أولاً^(٧)، ثم استكمال بقية الأهداف الأخرى والمتمثلة باحتلال مصر كلها. إذ كان من ضمن خططهما العسكرية تحقيق عدة أمور، منها: غزو دمياط و مباغنة صلاح الدين، الذي اهتم بتحسين القاهرة والإسكندرية أكثر من اهتمامه بتحسين دمياط، لمنع إتحاد مصر مع بلاد الشام^(٨). وكذلك الاستفادة القصوى من تواجد الأسطول البيزنطي

(٣) سعداوي، جيش مصر، ص ١٨.

(٤) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١١ ؛ الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٨.

(٥) العربي : الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧١٩ ؛ رنسيان : تأريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٢٣.

(4) Stevenson : op. Cit, p.196 .

(1) Ehrenkreutz , Andrew. s : Saladin , state University of New York Press , (Newyork / 1972) , p. 104.

(2) Lyons , Malcolm Cameron , and Jackson , D. F. P , : Saladin the Politics of the Holy War , Cambridge University Press , (Cambridge 1982) 1984) , P. 49.

(٣) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠.

(٤) العربي : الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧١٩ . ٧٢٠.

المرافق للقوات الصليبية البرية، والذي أنيطت به مهمة حصار مدينة دمياط المهمة وأخذها ظناً منهم سهولة إمكانية تحقيق هذا الهدف، وجعلها موطئ قدم لهم على حد قول ابن شداد^(١). إلا أن مجريات الأحداث أثبتت في نهاية الأمر أن توقعات الأعداء كانت خاسرة، ولم تكن الأمور بالسهولة التي تصورناها وتمناها (عموري). كما أن التنسيق بين قواته وقوات الأسطول البيزنطي، لم يكن دقيقاً كذلك، مما تسبب في تأخره في إصدار الأمر وإعطاء الإذن بشن الحرب. وبذلك فقدت القوات الصليبية عامل المباغتة. كما أن صلاح الدين اكتشف خططهم وعرف نواياهم وأفشلها، فكان لديه مُسعاً من الوقت لإكمال استعداداته لهم^(٢).

و قد زاد هذا التأخير من مشاكل الأسطول البيزنطي، إذ أخطأ الإمبراطور (مانويل كومنين) في تقديره لمدة الحرب، وظن أنها لن تطول أكثر من ثلاثة أشهر، فنُزِدَ أسطوله بمواد الإعاشة والتموين ما يكفي لتلك المدة^(٣) في حين ظل الأسطول البيزنطي راسياً في جزيرة قبرص مدة طويلة^(٤). وبالوقت نفسه لم يتيسر له في جزيرة قبرص إمكانية تزويد سفنه بمواد تموين إضافية^(٥). لذلك استنفذ الأسطول البيزنطي معظم مخزونه من المؤن. ومما زاد الأمر تعقيداً أن موسمهم الزراعي في ذلك الوقت من تلك السنة لم يكن جيداً^(٦)، وهو ما جعل الدولة البيزنطية عاجزة عن إمداد أسطولها بكل ما يحتاج إليه. كما رفضت قوات (عموري) تزويد البيزنطيين ببعض ما يحتاجونه من المؤن التي كانت متوفرة في معسكرهم^(٧). وفي خضم هذا الوضع السيئ للأسطول البيزنطي آتجهت إحدى قطعه نحو ميناء عكا، وهي تشكو العجز في مواد التموين، غير أنها فوجئت أيضاً بعدم تيسرها هناك، مما زاد الموقف البيزنطي العسكري صعوبة وحرجاً أكثر

Grousset, René: Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem, (paris -1975) Vol.2, Librairie plon, p.543.

(٥) النواذر السلطانية، ص ٤٢ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠.

(2) Stevenson : op. Cit, p.196 .

(٣) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٢٣ ؛ العربي : الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧١٩.

(٤) واختيارهم لجزيرة قبرص راجع لسببين : أحدهما قربها من مصر، والآخر قربها من مراكز إمداداتها بالغرب الأوربي. (يوسف، جوزيف نسيم: تاريخ الحركة الصليبية، ص ١٢٥).

(٥) باركر : الحروب الصليبية، ص ١٦٣ ؛ الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٩.

(6) Stevenson : op. Cit, p.196 .

(٧) مؤنس : نور الدين محمود ، ص ٣٢٥.

أثناء هذه المهمة^(١).

و على الرغم من كل هذه الأوضاع السيئة، ألح قائد الأسطول البيزنطي على الملك (عموري) بالإسراع في تنفيذ الخطة والتقدم باتجاه دمياط، على أن يكون التقدم بحراً، وأن يتولى أسطوله مهمة نقل القطعات البرية، غير أن (عموري) رفض هذا الطلب^(٢). وبقي الوضع العسكري على ما هو عليه، ولم يصدر (عموري) أمره بالحركة إلا في الخامس عشر من تشرين أول سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩ م)، إذ أمر الجيش بأكمله الصليبي والبيزنطي، بالتجمع في مدينة عسقلان، بعد أن ترك قوة من الفرسان لحمايتها من خطط نور الدين الذي كان متواجداً في المنطقة المجاورة لدمشق. وتضمن أمره أن تتقدم القطعات برتلين: أحدهما : بري، ويتكون من قوات بيت المقدس و الآخر : بحري، ويتكون من أسطول بيزنطة الضخم^(٣). وقد وصف ابن كثير ذلك التقدم والمجوم قائلاً : ((وجاءوا إليها في البر والبحر رجاء أن أن يملكو الديار المصرية))^(٤). وقد كان مع تلك القوات معدات وأسلحة وآلات مختلفة، منها المنجنيقات والدبابات والجروح وآلات الحصار^(٥)، وكذلك الأبراج المتحركة ذات السبع طوابق التي تجري بسرعة، ويغطي جوانبها جلود غير مدبوغة تقيها من النار أثناء المعركة. وإلى جانب آلات الحصار استصحبوا آلات لنقب الأسوار^(٦). إن هذا الأعداد و الأسلحة الكثيرة و المتنوعة للجيش الصليبي جعلهم غثرون بقوتهم، وظنوا أنهم قادرون على تحقيق أهدافهم بسهولة، وحسم المعركة لصالحهم دون خسائر كبيرة. فضلاً عن وجود أسباب أخرى، منها وقوع دمياط على ساحل البحر وضعف دفاعاتها بتصورهم. لأن ذلك يجعل من احتلال دمياط إذا ما تحقق لهم قاعدة بحرية رئيسية، ومنطلقاً لاحتلال مصر

(١) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٢٤ و ٦٨٨ : الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٩ : باركر : الحروب الصليبية، ص ١٦٣.

(٢) ابن كثير : البداية، ج ١٢، ص ٢٦٠.

(٣) الصوري : تأريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٣٩.

(٤) البداية، ج ١٢، ص ٢٦٠.

(٥) الحنبلي : شفاء القلوب، ص ٧٣؛ و الدبابة : آلة حربية تُصنع من الخشب والجلود، يدخل فيها الرجال، ويقتربون بها إلى الحصن لنقبه، وتسمى دباباً لأنها تُدفع فتدب. أما الجرخ فهو نوع من القوس، تُرمى به النشاب والنفط، ويقال للذي يرمى به : الجرخي، (ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٢ هامش رقم ١، ٢).

(٦) سعداوي : التأريخ الحربي المصري، ص ١٨.

بأكملها وفي مقدمتها القاهرة^(١).

وتنفيذاً لأمر الملك (عموري)، تحركت القوات البرية من الجيش الصليبي باتجاه دمياط في الأول من شهر ذي الحجة سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م). أما الأسطول البيزنطي فكان قد أبحر من ميناء عكا^(٢)، وسار بمحاذاة الساحل من أجل ديمومة الاتصال مع القوات البرية^(٣). وفي اليوم التاسع من بدء الحركة، وصلت القوات البرية إلى مدينة الفرما^(٤)، وقد وجدت أن القوات البحرية كانت قد سبقتها في الوصول إليها، فتوَلَّى قسم من سفن الأسطول مهمة نقل القوات البرية إلى الضفة المقابلة لها. ثم تقدم الأسطول البيزنطي نحو دمياط، بعد أن ترك مدينة تينس إلى يساره مسافة عشرين ميلاً، ودخلت سفن الأسطول فم النيل، لكنها لم تستطع التقدم أكثر من ذلك وظَلَّتْ في موقع بين البحر والمدينة لوجود برج دمياط ذو السلاسل الحديدية الذي منعها من التقدم^(٥)، فَرَأَسَتْ قُبالة دمياط في أول صفر من تلك السنة^(٦). أما القوات الصليبية البرية، فتقدمت باتجاه مدينة دمياط وحاصرتها^(٧). وقد ذكر هذا الحصار الحصار لمدينة دمياط أبو شامة و قال: ((واجتمعوا عليها وحاصروها))^(٨). كما قال ابن الفرات: ((وأخذوا في حصارها محيطين بها من البر والبحر))^(٩). أما ابن تغري بردي فقال: ((فلما نازلوها حاصروها))^(١٠). كما وصف الحنبلي حصار دمياط وقال: ((فحاصروها وضيقوا عليها بالمناجيق))^(١١). وهي عبارات تدل على شدة حصار الصليبيين للمدينة. وقد كانت بداية هذا الحصار في الثالث

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص١٠٥.

(٢) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٣٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص١٠٥.

(٤) الفرما: مدينة مصرية قديمة تقع في الشمال الشرقي من الدلتا، وشرقي بحيرة المنزلة، وهي من أقدم الثغور الإسلامية في مصر. (البكري: جغرافية مصر، ص٦٠).

(٥) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٩٤٠-٩٤١.

(٦) المقرئ: الخطط، ج١، ص٢١٥؛ سعداوي : التأريخ الحربي المصري، ص١٨.

(٧) وقد ترافق وصول القوات الصليبية إلى مدينة دمياط في هذه الفترة، مع موت أسد الدين شيركوه الذي خَلَفَهُ في وزارة العاضد ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، (ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص١٠٥).

(٨) الروضتين، ج٢، ص١٣٩.

(٩) تأريخ ابن الفرات، مج٤، ج١، ص٨٣؛ المقرئ: إتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣١٥.

(١٠) النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٠.

(١١) شفاء القلوب، ص٧٣.

من شهر صفر الموافق ١ تشرين الثاني سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) ^(١).

إلا أن الملاحظ في هذا الحصار أن القوات الصليبية، مع حليفها البيزنطية كانت قد أعدت كل ما أمكنها من ^(٢) بذات وقوات لحصار مدينة دمياط، غير أن حصارها لم يكن محيطاً بالمدينة من جهاتها جميعاً، ولم يكن مغلقاً تماماً ^(٣). كما لم يتمكن الأسطول البيزنطي من دخول المدينة ليقطع عنها التعزيزات التعزيزات التي تأتيها من القاهرة، وذلك بسبب وجود السلاسل الحديدية الضخمة الممتدة على عرض النهر، وهي موانع تحول دون دخول السفن المعادية إليها ^(٤). كما كان للظروف الطبيعية أثر في تسريع هذا هذا المحوم، إذ أن سقوط الأمطار الشديدة جعل الصليبيين في سيل عارم من الماء، وتحولت الأرض تحت أقدامهم إلى أوحال، مما اضطرهم إلى حفر الخنادق حول خيمهم لتتجمع فيها مياه الأمطار ^(٥). كما أن الرياح كانت عكسية وقوية، الأمر الذي أدى إلى منع السفن الصليبية من دخول النهر ^(٦). إلا أنه أنه على الرغم من كل ذلك، فقد اشتد زحف الصليبيين باتجاه المدينة وقتلهم لها، كما كان بالوقت نفسه عسكر صلاح الدين هو الآخر يشن الغارات على الصليبيين من خارج المدينة، ((والعسكر تقاتلهم من داخل)) ^(٧).

ولغرض إحكام حالة الحصار الصليبي على مدينة دمياط، فقد جرى اختيار الحفّيين، وتأمين المواد المناسبة لهم، كما شيد الصليبيون برجاً شامخاً مؤلفاً من سبعة أدوار، يمكن عن طريقه مراقبة المدينة بكاملها. كما صمم الصليبيون آلات أخرى، منها ما هو ^(٨) لقذف الصخور وتدمير الأسوار، ومنها ما هو خاص بحماية مقاتليهم الذين يقتربون من أسوار المدينة فيجلسون في داخلها ^(٩)، وهم ((يضرّبونها بالمناجيق ويزحفون إليها ليلاً ونهاراً)) ^(١٠). كما قام الصليبيون بحفر أنفاق سرية تحت أسوار المدينة، مما تسبّب في انهيار أجزاء منها. أما أهل دمياط فقد ذكر الصوري أنهم بنوا برجاً مشابهاً لبرج الصليبيين، واستخدموه في الرد وبضراوة على الهجمات المقابلة وابتكروا خططاً قتالية ضد عدوهم، حتى بدا على الصليبيين علامات الجبن وضعف المعنويات في القتال، وكان من أهم أسباب ذلك الإهمال وسوء

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢٧٩؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٧٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٠٥؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤١. ١٤٢.

(٣) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤١.

(٤) سعداوي : التأريخ الحربي المصري، ص ١٩.

(٥) رنسيما: تأريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٢٥.

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٣؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠. ١٤٢.

(٧) الصوري : تأريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٢.

(٨) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢٧٩.

التخطيط والخيانة أحياناً^(١).

وفي أثناء هذه الظروف الصعبة للمهاجمين، تجددت الخلافات وأزمة الثقة بين القوات المتحالفة من جديد، خاصة بعد نفاذ مواد الإعاشة والتموين لدى القوات البيزنطية، ولم يبقَ لديهم أي نوع من الطعام. بينما كان لدى القوات الصليبية زاد كافٍ من الخبز والمؤن المختلفة، لأنهم توقعوا أن الحرب ستكون طويلة وحسبوا لها ما يقتضي من توفير المخزون من المؤن للمعركة القادمة^(٢). بيد أن قوات (عموري) رفضت تقديم شيء من المعونة للبيزنطيين رغم توفرها لديهم، لذلك دعا القائد البيزنطي الملك إلى القيام بهجوم عام وشامل على مدينة دمياط، إلا أن (عموري) رفض هذه الدعوة، لعلمه بتعزيزات القوات الإسلامية داخل المدينة^(٣) فضلاً عما تقدم فأن القوات البرية الصليبية لم تكن قادرة - هي الأخرى - على القيام بفعاليات مؤثرة لخشيته من القوات البيزنطية، لأن النوايا لم تكن مُخلصة بين الحليفين. لذا ظل الطرفان يشككان ببعضهما البعض، حتى تسرّبت شائعات بين رجال (عموري)، مفادها أن البيزنطيين ينوون الاستئثار بدمياط لأنفسهم، الأمر الذي أضعف قوة المهاجمين^(٤).

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٤٣.

(٣) الحميدة: الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٣؛

Ehrenkerez: op.cit,P.99-100.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٣؛ مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣٢٥.

غير أن **Stevenson** فنّد ذلك، وقال أن قوات (عموري)، خلال فترة حصارها لدمياط، أظهرت عدم كفايتها في القدرة على مواجهة المسلمين. الأمر الذي جعل أزمة الثقة واضحة للعيان بين المتحالفين، حتى بدا بعضهم يلوم الآخر على فشلهم^(١).

ويرى ماير من زاوية أخرى، إن بيزنطة لم تحن (عموري)، بل أن الخيانة كانت من طرفه هو. ويستند في ذلك إلى القول أن الإمبراطورية البيزنطية أصدرت تعليمات مكتوبة إلى قائدها لديه، أن لا يقدم على أية خطوة دون موافقة (عموري)^(٢). و لكن في الحقيقة مهما قيل من تفسير حول أزمة الثقة بين الطرفين، فأنها كانت أمراً واقعاً، وكان لها تأثيرها الواضح على نتائج المعركة وخسارتها للصليبيين، وعدم تمكنهم من احتلال دمياط.

ثالثاً . الموقف الإسلامي

إن موقف الملك الصليبي (عموري) في بلاد الشام، وتحركه تجاه الغرب الأوروبي، و إعادة تحالفه القديم بتجديد اتفاقية التعاون المشترك مع الإمبراطور البيزنطي (مانويل كومنين)، ثم تقدم تلك القطاعات باتجاه دمياط ومحاصرتها، لم تُضعف من عزيمة القوات الإسلامية بقيادة نور الدين محمود في الشام باعتباره القائد العام للقوات الإسلامية، وصلاح الدين الأيوبي في مصر باعتباره القائد الميداني للمعركة هناك. بل جعلت لكل منهما إجراءاته التعبوية والعسكرية من أجل المعركة القادمة وطرد القوات الغازية، والتي ترتب عليها فك الحصار عن دمياط. وهي نتيجة في غاية الأهمية والبطولة والتخطيط العسكري الناجح لصالح الدين و نور الدين محمود. ولتوضيح تلك الاجراءات المتخذة من قبلهما، سنتناولها تباعاً وكالآتي:

أ . إجراءات صلاح الدين :

لابد من الإشارة إلى أن صلاح الدين تَخَلَّصَ من أعدائه داخل مصر قبل بدء الحرب الصليبية على دمياط، إذ تعامل بنجاح مع التمرد للقوات السودانية والأرمنية^(٣)، والتي كان وجودها داخل مصر يشكل مَفْزَداً للخيانة والظعن من الخلف، بسبب تعاملها غير المعلن مع القوات الصليبية.

أما القوات السودانية أو ما يُعرف ((فرقة السودان))^(٤)، فقد تمكن صلاح الدين من القضاء عليها وعلى رئيسها مؤتمن الخلافة وإعدامه بسبب اتصاله مع الصليبيين. كما تخلص صلاح الدين كذلك

(1) The Crusaders in the East , op. Cit, p.196.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٨١، ٤٢٩، ٤٣٠.

(3) Ehrenkreutz op. Cit, p,134.

(٤) كان في الجيش الفاطمي حوالي ثلاثين ألفاً من المشاة السودانيين، وأفواجاً من الفرسان البيض وهم من الأرمن، ويُمثل هؤلاء قوة الخليفة العاضد. (جب، هاملتون. آ.ر : صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الإسلامي، ترجمة، يوسف أيّيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت / ١٩٧٣ م، ص ١٢٠).

من فرقة الأرمن^(١). بينما يرى جب أن هذه الفرقة لم تبد منها خيانة، وإنما تعاونت مع صلاح الدين ضد هجوم (عموري) على دمياط سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م)^(٢). وهو رأي لا يمكن الأخذ بصحته، لأن صلاح الدين قضى على حرس الخليفة العاضد من الأرمن، كما قضى على حراسه من السودان، و قام بإشعال النار في ثكناتهم^(٣). وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يؤولون إلى درجة كبيرة على الأوضاع الداخلية في مصر و المعادية لصلاح الدين، لم يعلموا وحلفاؤهم البيزنطيون أن صلاح الدين قضى على فرقتي السودان والأرمن المواليين لهما إلا بعد دخولهم الأراضي المصرية^(٤). ومنذ ذلك الحين صار المقاتلون من الأكراد و الأتراك الذين حطوا محل السودانيين والأرمن هما عماد صلاح الدين وسنده في الداخل^(٥)، فضلاً عن من يثق بهم من مقاتلي مصر وبلاد الشام^(٦). إلا أن صلاح الدين لم يأمن جانب الخليفة العاضد وحاشيته على الرغم من قيامه بتلك الإجراءات^(٧)، فما قام به من أعمال. في تلك المرحلة. لم يكن بوصفه وزيراً للعاضد فحسب، بل بوصفه نائباً عن نور الدين^(٨). و التي أدت هذه السياسة المزدوجة إلى احتفاظ صلاح الدين بمنزلة عالية لدى نور الدين، وعدم إثارة مخاوفه من استقلاله بحكم مصر بسبب الخطوات السريعة التي دعم بها موقفه من الداخل^(٩).

أما بصدد العدوان الصليبي على دمياط، فأن صلاح الدين بعد أن تلقى خبر الهجوم على دمياط

(١) للمزيد من التفاصيل عن المؤامرات التي قاموا بها ضد صلاح الدين، يُنظر: ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٣ وما بعدها؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٧١. ٧٢؛

Stevenson : op. Cit, p.196.

(٢) صلاح الدين الأيوبي، ص ١٢٠.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٠٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٥؛ الحميدة: الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧١؛ مؤنس: نور الدين، ص ٣٢٣.

(٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٨٩.

(٦) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٠٩.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٥. ١٠٦.

(٨) كان صلاح الدين منذ توليه الوزارة مزدوج الولاء، فهو وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمي، وقائداً لجيش نور الدين صاحب الشام والمرتبطة بالخلافة العباسية في بغداد. ومع ذلك كان يتبع في سياسته إزاء الرجلين الحكمة والأناة. (غنيم: الدولة والأيوبيون الصليبيون، ص ٢٠).

(٩) كان نور الدين يحب صلاح الدين ويعتمد عليه، حتى أنه لقبه الأمير (الاسفهلار)، والاسفهلار لقب يعني قائد الجيوش. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٩؛ العسلي: فن الحرب الإسلامي، مج ٢، ص ٩١).

فوجئ به ^(١)، إذ كان في تصوره أن هدف القوات الصليبية البرية سيكون مدناً أخرى مثل القاهرة أو بلبس، وأن الأسطول البيزنطي سيكون هدفه الإسكندرية، لذلك اهتم بتحسين تلك المدن أكثر من غيرها ^(٢). من جهة أخرى، لم يكن في دمياط سوى حاميتها وهي قوة صغيرة من الجند ^(٣)، ومع ذلك قامت تلك الحامية وبمؤازرة سكان المدينة المجاهدين باستقبال حصار الصليبيين ومقاومته بصبر أملاً في وصول التعزيزات إليهم، وقد وصف ابن الفرات صمود أهلها قائلاً: ((وصبر أهلها ومن صار إلى نجدتهم، على كثرة عدد الفرنج وشدة قتالهم)) ^(٤). كما كان هناك تعاون بين المسلمين والأقباط في مدينة دمياط، أظهروا من خلاله تلاحم أهل المدينة ووحدتهم ضد الصليبيين الغزاة ^(٥). في خضم هذه المحنة الخطيرة برزت شخصية وحكمة صلاح الدين، بما آتخذهُ من إجراءات تعبوية وعسكرية سريعة لمعالجة الموقف، التي كان من أهمها قراره بإدارة المعركة من قهره في القاهرة، حيث لم يجد من الحكمة أن يترك القاهرة للأسباب آنفة الذكر ^(٦)، و كما رواه ابن الأثير في رسالة وجهها صلاح الدين إلى نور الدين و قال فيها: ((إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت عليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في إثري، والفرنج أمامي، فلا تبقى لنا باقية)) ^(٧). ويبدو واضحاً أن صلاح الدين كان متخوفاً من مغادرة القاهرة من مؤامرة قد يُدبرها أعداؤه الذين بالداخل ويطعنوه من الخلف ^(٨) لذلك فأن صلاح الدين أنفذ إلى دمياط حملةً لحمايتها، تكونت من الرجال والفرسان، وجعل قيادتها لابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي، وزودهما بما تحتاجه الحملة من أموال

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٢؛ مؤنس: نور الدين محمود، ص ٣٢٥.

(٢) عاشور: ١- الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٨٨؛ ٢- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، سلسلة أعلام العرب، ع ٤١، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر، (لا. م. / لا. ت)، ص ٨٧.

(٣) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، المطبعة الأميرية، (القاهرة/ ١٩٧٥ م)، ج ٢، ص ١٥؛ الحميدة:

الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٠.

(٤) تاريخ ابن الفرات، مج ٤، ج ١، ص ٨٣.

(٥) قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٠٧.

(٦) ألبنداري: سنا البرق الشامي، ق ١، ص ٨٦.

(٧) التأريخ الباهر، ص ١٤٣؛ وينظر: أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٣٩.

(٨) المقرئزي: الخطوط، ج ١، ص ٢١٥.

وسلاح وذخائر ومؤونة، وكَلَّفَتْهُ أَمْوَالاً طائلة^(١). إذ كان من المهام الرئيسة لحماية دمياط هو الدفاع عنها من الطريق الذي كان متوقعاً دخول الصليبيين منه^(٢). فدخلت قوات صلاح الدين إلى دمياط، قبل أن أن يُطبق الصليبيون عليها الحصار^(٣). وقيل أن القوات التي أرسلها صلاح الدين تمكنت من دخول المدينة رغم الحصار المضروب حولها، مستفيدين من كون الحصار لم يكن عليها من جميع الجهات. كما أمدَّ دمياط بمواد الإعاشة والسلاح، ذكر ذلك ابن الأثير وقال: ((أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، و اتصل الحصار وتواصل الأنصار))^(٤). كما توافد إليها الأمراء،^(٥) و وعد صلاح الدين المقيمين بدمياط بالاستمرار في مدَّهم مدَّهم بالرجال والآلات لأبعاد العدو عنهم، وأكثر في منحهم العطايا والهبات^(٦)، كما رُوِّع أموالاً إضافية إضافية على الجيش لضمان ولائهم له. مما مكن صلاح الدين من السيطرة التامة على الموقف هناك^(٧).
بيأن صلاح الدين لم يكن مطمئناً تماماً من الخليفة الفاطمي العاضد، لكنه وجد نفسه مضطراً أن يطلب منه مالا يَتَقَيَّ به هو وجيشه ضد الصليبيين، فبعث له العاضد بشئ كثير^(٨). ومنهم من رأى أن صلاح الدين قام بالضغط على العاضد وطلب منه المزيد من الدعم المادي^(٩)، حتى استجاب له العاضد وأمدَّه بمبلغ من المال يُقدر بمليون دينار، وهي الهبة التي أكدها صلاح الدين وأعترف بها مُتَّناً وقال : ((ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مَدَّةً مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى

(١) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٣٩ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٣ ؛ علي، محمد كرد : كتاب خطط الشام، مطبعة الترقى، (دمشق / ١٩٢٥ م)، ج ٢، ص ٣٩

(2) Ehrenkreutz : op. Cit, p. 80

(٣) العريني : الشرق الأدنى، ج ١، ص ٤٢ ..

(٤) الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ و ينظر : أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤١ . ١٤٢ ..

(٥) البنداري : سنا البرق، ق ١، ص ٨٦

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٣ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠ . ١٤٢ ..

(7) Ehrenkreutz : op. Cit , p. 80.

(٨) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢٧٩ ..

(9) Ehrenkreutz : op. Cit , p. 80.

التياب وغيرها))^(١). ويبدو هنا أن الخليفة العاضد وقف إلى جانب صلاح الدين مادياً في هذه المحنة، لأنه المجال الوحيد الذي يستطيع المساعدة فيه، بعد أن فقد جيشه الخاص المتمثل بفرقتي السودان والأرمن إذ أصبح صلاح الدين هو الحاكم الفعلي لمصر، ومساعدته هذه هي ربما تكون خوفاً و مداراة لصلاح الدين دون أن تكون حُجاً وطواعية.

وبالنظر لكون نور الدين هو القائد الفعلي لقوات الشام ومصر، كان لا بد لصلاح الدين من إعلامه عن حقيقة الموقف. لذا أسرع صلاح الدين إلى إخباره بالوضع الذي آلت إليه دمياط وحصارها^(٢)، وطلب منه مدداً بالتعزيزات وبكل سرعة لمواجهة الخطر الصليبي^(٣). إذ أوضح ذلك في رسالة بعثها إلى نور الدين قال فيها : ((إن قعد عن الفرنج أخذوا دمياط، وجعلوها معقلاً لهم يَتَقَوَّونَ به على أخذ مصر))^(٤). فاستجاب له نور الدين . كما سنرى ذلك لاحقاً . ودعم صلاح الدين مادياً ومعنوياً وعسكرياً.

ب . إجراءات نور الدين محمود

كان لخبر نزول الصليبيين على دمياط وحصارها وقعاً كبيراً على نور الدين^(٥)، ((فاغتمَّ واهتم وَاستصعب الملم))^(٦). لذلك باشر وعلى الفور باتخاذ إجراءات عدة، كان لها آثارها الإيجابية في إنقاذ إنقاذ الموقف الإسلامي في هذه الحرب. إذ باشر بإرسال تعزيزات وقيادة قطب الدين خسرو

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص١٠٦ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٤٠ ؛ اليافعي : مرآة الجنان، ج٣، ص٣٧٨.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٣٩ ؛ بيومي، علي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، (مصر / ١٩٥٢ م)، ص١٦٩.

(٣) باركر : الحروب الصليبية، ص١٦٣.

(٤) ابن كثير : البداية، ج١٢، ص٢٦٠.

(٥) ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية، ص١٨٧ ؛ وقيل كان من شدة اهتمام نور الدين بأمر المسلمين، أنه حينما حينموصوله خبر حصار دمياط، كان يُقرأ عليه حديث موضوعه التبسُّم، فطلب منه بعض طلبية العلم بالحديث أن يتسم. فغضب من ذلك مشيراً لهم إلى استحائه من الله عز وجل من أن يراه مبتسماً والمسلمون محاصرون بدمياط. (أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٤٤؛ ابن كثير : البداية، ج١٢، ص٢٦١).

(٦) أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٤٢.

الهذيان^(١)، الذي أمره بالانطلاق بالعسكر لخصوص الحرب إلى جانب القوات الإسلامية في مصر^(٢). فاستجاب هذا للأمر، وسار بالجيش، ووصل مصر في منتصف ربيع الأول الموافق ١٣ كانون الأول سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م)^(٣). وقيل كان وصوله إلى دمياط قبل رحيل الصليبيين عنها بأسبوع^(٤). ثم تابع نور الدين إرسال التعزيزات^(٥)، وبأسلوب فريد جعلها إرسالاً، أي أرتالاً كثيرة سارت بعضها إثر بعض^(٦)، مما يدل على أهمية الأجراء ورجاحته في حينه.

ويبدو أن غرض نور الدين من إرسال قواته بأرتال متتابعة هو لتحقيق أهداف كانت في غاية الأهمية من الخطورة في الموقف الإسلامي، وذلك لإدخال الرعب في قلوب الأعداء، ولتأمين سرعة الحركة، والتخفيف من المشاكل الإدارية على الطريق، فكلما كانت الأرتال المتقدمة صغيرة، كلما خفّت حركتها، فلا يشكل تموينها معضلة إدارية^(٧). إذ ليس من الممكن تأمين تهيئة القوات بأكملها وبسرعة مَرَّة واحدة، بل لا بد أن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. كما أن التأخير في إرسالها لحين إتمام كامل القوات يعني فقدان عامل السرعة الذي تتطلبه الحرب، خاصة أن صلاح الدين طلب منه إسعافه بالقوات بأقصى ما يمكن من السرعة. وقد وصف البنداري أهمية تلك التعزيزات لنجدة صلاح الدين وقال: ((فَأَنْ لِلنَّجْدَةِ قَلِيلَةٌ كَانَتْ أَوْ كَثِيرَةً، صَيِّتًا يُورِثُ شَمْلَ الْعَدُوِّ تَشْتِيَةً وَحُبْلَ ذُو الْعُتُوِّ تَبْتِيَةً))^(٨).

كذلك قام نور الدين بأجراء آخر لا يقل أهمية عن الأول، أراد به تخفيف الضغط على دمياط، بِشَنِّهِ العديد من الغارات على مواقع الصليبيين في بلاد الشام^(٩). حتى وصلت غاراته أماكن لم تبلغها سابقاً، مغتنماً فرصة غيبة الصليبيين عنها بسبب ذهابهم للمشاركة في الحرب لغزو دمياط^(١٠).

(١) ألبنداري : سنا البرق، ق، ١، ص ٨٧.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٢.

(٣) المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٥.

(٤) ألبنداري : سنا البرق، ق، ١، ص ٨٧ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٣ ؛ جب : صلاح الدين الأيوبي، ص ٩١.

(٥) الحنبلي : شفاء القلوب، ص ٧٣.

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٤٣ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٣٩ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية، ص ١٨٦ ؛ المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٧) الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٢.

(٨) سنا البرق، ق، ١، ص ٨٧.

(٩) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ المقرئزي : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٥.

(١٠) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٤٤ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٣٩.

وكان قد أعدَّ لهذه المهمة جيشاً كبيراً، جاس به الديار، وغنم منهم أموالاً طائلة، وقتل وسبى أعداداً كثيرة^(١). و قد صف المؤرخون العرب هذه الإجراءات وأهميتها العسكرية والتعبوية، و بينوا أنها كانت لرفع معنوية صلاح الدين وهزيمة الغزاة الصليبيين^(٢). كما كان لنور الدين هدف آخر من تلك الغارات، هو إشغال قلوب الصليبيين المحاصرين لمدينة دمياط^(٣)، وقد بيَّن ذلك ابن الفرات و علل إجراءات نورالدين بأنها كانت لدفع الصليبيين للتحرك إلى حفظ البلاد الشامية فيتركوا دمياط^(٤). وهنا تكمن عبقرية نور الدين العسكرية، وحسن تقديره للمواقف في الحروب. فحرره خارج نطاق ساحة المعركة الحقيقية، كانت نوعٌ من الحرب النفسية ضد الصليبيين المشاركين فعلاً بحصار دمياط. وهو إجراء كان له تأثير كبير على القيادة الصليبية وخاصة الملك عموري، الذي قرر في نهاية الأمر الانسحاب من حول مدينة دمياط خائباً وخالي الوفاض، كما سترى ذلك لاحقاً في معركة دمياط.

رابعاً . سير المعركة

بعد أن تواصلت قوات الطرفين وتقابلت بكل ثقلها، واشتد الأمر على أهل دمياط، الذين ثبتوا على محاربة الصليبيين^(٥)، واصل صلاح الدين إرسال الإمدادات والنجادات إليهم عن طريق النيل. فكان فكان رجال صلاح الدين يَشُنُّون الغارات عليهم من خارج دمياط، والعساكر تقاتلهم من داخل المدينة^(٦).

أما الصليبيون فقد استمروا بمحاصرتهم لدمياط، والزحف عليها وضربها بالمناجيق^(٧). كما قذفوا عليها وابلاً من السهام والقذائف الحجرية لتدمير الأسوار والمنازل الملتصقة بها^(٨). أما حول مدينة دمياط وما جاورها من المناطق، فقد انصرف الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون إلى النهب

(١) ابن كثير : البداية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٠٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، مج ٤ ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٥) المقرئ : ١ . الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٥ ؛ ٢ . اتعاظ الحنفيا ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤١ . ١٤٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧١٢ .

(٧) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ .

(٨) الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٤٢ .

والغارات^(١)، قصدهم من ذلك الحصول على مواد التموين والإعاشة التي نفذت تماماً عند قوات الأسطول البيزنطي، والتي لم يبقَ لديهم منها على حد قول الصوري أي نوع من الطعام^(٢) وأمام هذه الصورة من الموقف، وجد الصليبيون أن انتظارهم قد طال لمدة خمسين يوماً أمام مدينة دمياط^(٣)، دون أن يتمكنوا من اقتحامها واحتلالها، في وقتٍ بدأوا الحرب وقد كان ظنهم أن احتلالها ميسوراً، وأنها ستصبح منطلقاً لهم نحو البلاد المصرية.

أما عن الموقف البطولي لصالح الدين وأهل دمياط، فأنتهم لم يغفلوا عن الجانب البحري وأهميته في هذه المعركة، إذ خرجت سفينة محملة بالخروقات، ودخلت بين سفن الأسطول البيزنطي وأخذت تحرقها، وأوقعت فيها خسائر كبيرة^(٤). كما ذكر الصوري أن ست سفنٌ مقاربة من نوع الشواني احترقت لاحتراقاً تاماً، ولولا يقظة الملك (عموري) وشحذه لَمَّ بِمُحَارَّةِ لَكَانِ الأسطول البيزنطي اشتعل بأكمله^(٥). كما استغل أهل دمياط ظاهرة جريان النيل من الجنوب إلى الشمال، فأطلقوا على سطح الماء أواني فيها موادٌ مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي أضراراً بالغة، مما أجبره على الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة^(٦).

كما أخذ الفتور يدبُّ في نفوس الصليبيين وقلوبهم، وأخذت الأخبار ترد إليهم عن تقدم القوات الإسلامية بقيادة نور الدين في بلاد الشام ومهاجمتها لأراضي وممتلكات بيت المقدس، وأنه قتل الكثير من رجالهم وسبي النساء والأطفال، وغنم الأموال مما أضعف معنوياتهم^(٧). و زاد من تخوفهم من احتمال قيام قيام صلاح الدين بالم هجوم المضاد عليهم من الخلف، إذ انتشرت شائعات مفادها أن صلاح الدين قد حشد قوات من جميع أنحاء مصر وبلاد الشام، وأنه يخطط للزحف نحو فلسطين لتدمير الصليبيين

(1) Lane-Poole : op. cit , p.192.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤١٧ ؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣٧٨ ؛ السيوطي، عبد الرحمن محمد بن أبي بكر : حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة / ١٩٦٨ م)، ج ٢، ص ٥.

(4) Lyons and Jackson : op. cit , p.48.

الحميدة: الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٢. والسفن الحارقة: من المراكب الحربية الكبيرة وجمعها (حراريق)، وهي مخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذي يرمى بالمناجيق أو بالسهم. (سرور : الدولة الفاطمية، ص ١٥٠) .

(٥) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٤.

(٦) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٣.

(٧) ابن كثير : البداية ، ج ١٢، ص ٢٦.

هناك^(١). وهو ما جعلهم يفكرون بجد في الانسحاب من دمياط لتدارك موقفهم في مملكة بيت المقدس، والتي أصبحت مهددة أيضاً بخطر غزوها من قبل قوات نور الدين^(٢).

وفضلاً عما تقدم من معضلات جابهت القوات الصليبية، فإن هاجس الشك وعدم الثقة بين الحليفين الصليبي - البيزنطي، أدى إلى عدم التنسيق وانعدام التعاون بينهما. من ذلك ما أشيع داخل المعسكر الصليبي، بأن البيزنطيين ينوون الاحتفاظ بمدينة دمياط بعد سقوطها^(٣). لذلك رفض الصليبيون تزويد رجال الأسطول البيزنطي بمواد الإعاشة والتموين رغم توفرها لديهم^(٤). كما ذكر الصوري أن المحاصرين من أهل دمياط بدأوا يشعرون بالثقة، وانطلقوا من باب خلفي من أبواب السور مقابل معسكر الصليبيين، وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش. كما زاد من قوة المسلمين نجات كثيرة أخرى كانت تصل إليهم عن طريق البر والبحر، الأمر الذي جعل سكان المدينة وما بداخلها من قوات، مصدر ذعر كبير لأعدائهم أكثر مما كان الصليبيون بالنسبة لهم^(٥) فضلاً عما تقدم من عوامل عسكرية أضيف إليها عوامل طبيعية وهي غضب الطبيعة و بما صَبَّهُ على القوات الصليبية من أمطار ، حَوَّلَت معسكراتهم إلى مستنقع كبير، اضطروا فيه إلى حفر الخنادق حول خيامهم^(٦). وقد أورد سميل أن أن أحد الأشخاص الذين عايشوا تلك الحرب، شهد على ذلك ووصف حالة الأوضاع المزرية ومعاناة الصليبيين من البرد والأحوال وقلة المؤن والأموال^(٧). إلا أن المؤرخ الصليبي وليم الصوري ، الوسيط في المراسلات بين الصليبيين والبيزنطيين خَفَّفَ من وقع الهزيمة، وبيَّر سبب الفشل الصليبي في تلك الحرب من وجهة نظره بعدم المباشرة بالهجوم على دمياط براً وبحراً في الوقت المناسب^(٨)، ويقصد بذلك الهجوم على المدينة في اليوم الأول الذي رست فيه سفنهم على سواحلها. وإذا كان هذا هو أحد أسباب الفشل

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٨ . ٩٥٠.

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(3) Stevenson : op. Cit, p.196.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٣ ؛ العريني : الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧٢٠.

(٥) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٤.

(٦) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٧ ؛ العريني :

الشرق الأوسط، ج ١، ص ٧٢٠.

(٧) الحروب الصليبية، ص ٧٤.

(٨) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٦.

في نظره، فإنه ^١ من الأسباب الحقيقية لفشل الحلف الصليبي . البيزنطي، مقاومة أهل دمياط العنيفة للغزاة والمحتلين، فضلاً عن الإعداد المتآلف والمرتب والذي جاء استجابة فاعلة لضرورات الظروف بين القائد الكبير نورالدين وأحد عسكريه الواعدين صلاح الدين الأيوبي.

بيد أن المتتبع لسير المعركة الطويلة، يجد في الواقع أن لكل من تلك العوامل المتقدمة في عهده وتأثيره على مجريات الحرب ونتائجها، حتى بدأ التذمر واليأس بين الصليبيين، وبات الجميع يشعرون أن جهودهم قد تبددت، ورأوا أن الأمر الأمثل لهم هو العودة إلى أوطانهم قبل الهلاك بسبب المجاعة أو الهلاك بسيف المسلمين ^(١). لذلك فكروا في السبيل إلى النجاة، وقرر (عموري) الانسحاب من دمياط بعد حرب ضروس وحصار للمدينة دام خمسين يوماً ^(٢)، أو أكثر بقليل ^(٣). وكان رحيلهم عن دمياط في الخامس والعشرين والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م) ^(٤)، إذ انسحبوا باتجاه عسقلان ووصلوها في ربيع الثاني الموافق كانون الأول من ذلك العام ^(٥). وكان لرحيل الصليبيين عن دمياط وقعاً طيباً في نفوس المسلمين ^(٦)، كما كان أثره كبيراً في نفوس المؤرخين المسلمين، ومنهم ابن الأثير الذي وصف طمع الصليبيين وهزيمتهم في دمياط متهكمهم، وشبهه فشلمهم في غزوتهم هذه ((كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين)) ^(٧). كما أجمع المؤرخون على فرحهم وتشقيهم بهذه الهزيمة

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٥.

(٢) ابن الأثير: ١. الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ ٢. التاريخ الباهر، ص ١٤٠ ؛ الياضي: مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣٧٨.

Stevenson : op. Cit, p.196.

(٣) وتراوحت هذه الأقوال بين واحد وخمسين يوماً وخمسة وخمسين يوماً، ينظر: (ألبنداري : سنا

البرق، ق ١، ص ٨٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢١٥ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ص ٧١).

(٤) المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٥) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٢٦ ؛

Ehrenkreutz : op. Cit , p. 80.

(٦) نظراً لأهمية ليلة رحيل الغزاة عن دمياط فقد قيل : أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيلهم في منامه النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) وقال له : ((أعلمم نورالدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط هذه الليلة. فقال يا رسول الله، ربما لا يصدقني فاذا ذكر لي علامة يعرفها. وقال: قل له بعلامة ما سجدت في تل حارم ... قال، فانتبهت ونزلت إلى المسجد، فتعرضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا. فَأَرْخَتْ تلك الليلة، وكانت هي بالضبط ليلة الرحيل عن دمياط. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٤٣. ١٤٤).

(٧) الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ ؛ وينظر، أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية، ص ١٨٦.

للسليبيين، ووصفوها بالذل والعجز والخيبة بالنسبة لهم^(١).

خامساً . نتائج المعركة

كانت المحصلة النهائية لهذه الحرب هي خسارة الصليبيين، وانتصار المسلمين، والتي ترتب عليها نتائج باهرة، كانت برأي المؤرخ الغربي بلدوين، نقطة تحوّل في منطقة شرق البحر المتوسط. فتجاحتها كان سيطيح بصلاح الدين وهو لم يزل في بداية حياته السياسية. كما أن فشلها يعني نهاية للتحالف المشترك الصليبي - البيزنطي^(٢) وقد وصف البنداري صبر المقاتلين وصمودهم ونصرهم على الغزاة في هذه المعركة وقال : ((و استشرى الشر، لكن أصحاب أولياء الله صبروا وصابروا، وتآزرّوا، وأمسوا على القتال وأصبحوا، وتاجروا لله وربحوا، وهادّوا بنيان الكفر المرصوص المرصوف))^(٣). وترتب على انتهاء الحرب لصالح المسلمين نتائج هامة كان من أبرزها :

أ . الخسائر المادية والبشرية

لم تقتصر هذه الخسائر على ما صُرف أو هُرم أثناء الحرب التي استمرت بحدود خمسين يوماً . أو أكثر بقليل . بل إن الغزاة أصبحوا مضطرين بفعل الهزيمة إلى إحراق ما تبقى لهم من معدات، وبالأخص ما تُقل عليهم حملة من الآلات الحربية كالمنجنقات وغيرها^(٤). ففي يوم الرحيل عن دمياط أحرقوا معدات الحصار التي لم يتمكنوا من سحبها حتى لا تقع بأيدي المسلمين^(٥). وفي الوقت نفسه حصلت قوات المسلمين بانتصارها على الكثير من أموالهم، حتى قيل أن صلاح الدين أخرج منها ((أموالاً لا تُحصى))^(٦). كذلك حصل على الكثير من آلائهم العسكرية^(٧)، فضلاً عن التزام الصليبيين بدفع مبلغ مبلغ كبير من المال إلى صلاح الدين، وبالجلاء فوراً من دمياط وأراضي مصر الأخرى، وذلك بمقتضى

(١) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٢؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، (بيروت/ ١٩٦١م)، ج ٥، ص ٦٦؛ الرومي، أحمد عبد الجواد : صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة الخانجي، (مصر : لا ت)، ص ٥٢.

(٢) ملا جاسم، ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن : صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الأستشراقية الإنكليزية والأمريكية، (رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل لسنة ١٩٩٢م)، ص ٩٢.

(٣) البنداري : سنا البرق، ق ١، ص ٨٦-٨٧.

(٤) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥؛ الصوري : تأريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٥.

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ . ١٠٦.

(٧) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠.

معاهدة صلح طلبوها هم، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك في شهر ربيع الأول الموافق كانون أول من سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م) ^(١).

أما عن خسائريهم البشرية، فإن القوات البحرية للأسطول البيزنطي أنهكتها التعب بسبب نفاد مواد التموين والإعاشة، وأصاب جنودها الضعف والنحول والمرض ^(٢). غير أن المصادر لم تحدد عدد القتلى، و بما أن الصليبيين لم ييؤحوا بخسائريهم البشرية الحقيقية جراء الهزيمة حفاظاً على الروح المعنوية، خوفاً من التشقي بهم. لذلك ظلت هذه الخسائر خاضعة للتقديرات المتضاربة على الرغم من أنهم فقدوا خلقاً كثيراً ^(٣)، قُدِّرَ بالآلاف ^(٤). فضلاً عن غرق الكثير من سفنهم بعد إبحارها من السواحل المصرية بقليل، حتى قيل أن عدد السفن التي غرقت يقدر بحدود ثلاثمائة سفينة ^(٥). بل ذكر الصوري أنه لم يبق سليماً من الأسطول البيزنطي سوى بضع سفن ^(٦). وقد أدى ذلك إلى غرق عدد كبير من رجالهم، بحيث ظلت الأمواج تقذف بجثث الغرقى من البيزنطيين إلى الساحل أياماً ^(٧).

ومنذ ذلك الوقت كرس (عموري) نفسه لحماية ممتلكات دولته في بلاد الشام، ولا يغادر مخيلته ما حلَّ به وبجيشه، على الرغم من أن أحد قواد جيشه والمدعو (جلبرت آشلي) ظل متكابراً يرفض التصديق والأقرار بالهزيمة ^(٨). كما حاول مؤرخ غربي الالتفاف على العبارات، متجاوزاً الاعتراف بالهزيمة فقال: ((حتى إذا تطاول الحصار، وعجز البيزنطيون من الحصول على حاجاتهم الضرورية إلا بشق الأنفس، قنع أمرك (عموري) من الغنيمة بالإياب، على أن يُعطى مبلغاً من المال)) ^(٩). وهذا القول مغاير للحقائق التاريخية، لأن ما أجمعت عليه المصادر هو أن (عموري) لم يغنم شيئاً، بل خسر كل شيء، ولم يُعطَ مبلغاً من المال، بل كان رحيله هزيمة له ولحلفائه، إذ عاد الصليبيون إلى بلادهم فوجدوها خاوية على عروشها، بفعل الغارات والحروب التي شنتها عليها نور الدين. أما في الجانب الإسلامي فكان لا بد من دفع ثمن النصر، باستشهاد أعداد كثيرة من

(١) المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥؛ باركر : الحروب الصليبية، ص ١٦٣.

(٢) ألبنداري : سنا البرق، ق ١، ص ٨٦. ٨٧؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٣؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ١٤٠.

(٤) ألبنداري : سنا البرق، ق ١، ص ٨٦.

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، مج ٤، ج ١، ص ٨٥؛ المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٩٤٦.

(٧) رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٢٦؛ الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٣؛ عاشور :

الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٣. ٧١٤.

(8) Stevenson : The crusaders in the east , op. Cit, p.196.

(٩) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٥٢.

المسلمين، وخاصة أثناء حصار المدينة وقذفها بالمنجنيقات لأكثر من خمسين يوماً، مما أوقع بين أهلها الكثير من الضحايا إلا أن ذلك كان هيناً على المسلمين طالما فشل الغزاة الصليبيين في تحقيق هدفهم^(١)، وذلك كما يظهر من كثرة الشهداء و العدد الكبير من القتلى في الجانب الصليبي، مما يدل على ضراوة المعركة وخطورتها على المسلمين.

ب- تحول صلاح الدين من الدفاع إلى الهجوم

أظهر صلاح الدين في هذه الحرب من حسن القيادة والدراية ما سجّله له التأريخ بالحمد والثناء^(٢). وكان لهذا النصر أهمية بالغة، فهو أول نصر حربي على الصليبيين لصلاح الدين بعد أن تولى منصب الوزارة بالقاهرة^(٣). كما يمثل من جهة أخرى بدايةً لطور جديد من تأريخ النزاع المصري . الصليبي. فبعد أن كان الصليبيون يُوالون الغارات على مصر في عهد الفاطميين، اقتضت جهودهم على الدفاع عن مملكة بيت المقدس^(٤)، وبذلك تحوّل موقف صلاح الدين من حالة الدفاع إلى الهجوم. وبهذه المناسبة أرسلت البشائر وكتب التهاني، فقد تلقّى الخليفة العاضد رسالة تهنئة من صلاح الدين مهندس النصر في دمياط^(٥). وفي الوقت نفسه أرسل صلاح الدين البشائر إلى نور الدين وهو بحلب^(٦). كما أن نور الدين كتب إلى العاضد يهنئه بما تحقّق على يد صلاح الدين من النصر^(٧). وظهر النصر^(٧). وظهر صلاح الدين للمصريين على أنه المنقذ بعد الانتصار الذي تحقّق في معركة دمياط، مما

(١) ابن كثير : البداية ، ج ١٢، ص ٢٦٠.

(٢) نقاش، زكي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، (بيروت / ١٩٥٧ م)، ص ٤٨.

(٣) في شرّ، هـ. أ. ل : تأريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة، محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار

المعارف، ط ٥، (مصر / ١٩٦٩ م)، ق ١، ص ١٩٠.

(٤) حسن : تأريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٠٥.

Lane-Poole : op. cit , p.192.

(5) Ehrenkreutz : Saladin, op. Cit, p. 81.

(٦) الحنبلي : شفاء القلوب، ص ٧٨.

(٧) ألبنداري : سنا البرق، ق ١، ص ٨٧ . ٨٨.

وتجدر الإشارة إلى أن العاضد أرسل كتاباً إلى نور الدين، يطلب فيه سحب الجنود الأتراك من مصر خوفاً منهم، والاقترار على صلاح الدين. فكتب إليه نور الدين يهنئه بالنصر وقال: ((... وأن الفرنج لا تؤمن غائلتهم، والرأي إبقاء الترك بديار مصر)). (ابن قاضي شعبة : طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، الحافظ

زاد من حب المصريين له و التفافهم حوله^(١). كما قيل بحقه الشعر الكثير^(٢)، إبتهاجاً بالنصر.

ج . الاهتمام بصناعة السفن

كمكان من نتائج هذه المعركة، بعد النصر الذي حققه صلاح الدين على التحالف الصليبي . البيزنطي هو اهتمامه بصناعة السفن، لأنه رأى أهمية الأسطول في الحرب، وأدرك ضرورة بناء جيش قوي وقوة بحرية كفوءة لحماية مصر والصمود بوجه أي غزو محتمل حدوثه، فأنفق في هذا السبيل ما أمكنه لتحقيق مشروعه^(٣). لذلك سارع الجنوية . لضمان مصالحهم التجارية مع مصر . بعد أن لمسوا النجاحات التي حققها صلاح الدين، وعرضوا عليه مساعدتهم له في تكوين الأسطول، وبدأوا يجهزون صلاح الدين بما يحتاجه من أخشاب ومعادن وقار وقطران وغيرها مما يستخدم في بناء الأساطيل، إضافة إلى السلاح وما يحتاجه الجيش^(٤). فازدهرت في عصره دور صناعة السفن في مصر، وأمر ببناء السفن ونقلها على ظهور الجمال إلى أيلة^(٥)، بعد أن حاصرها براً وبحراً، حتى استسلمت له، وكان ذلك في العشر الأول من ربيع الآخر من سنة (٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م)^(٦).

د . وحدة الدولة الإسلامية :

عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت / ١٤٠٧ هـ، ج٧، ص١٩٠ .

(١)نوري: سياسة صلاح الدين، ص١٠١

(٢)منها قصيدة لعمارة اليمنى، جاء فيها :

جلبوا إلى دمياط عند حصارها
وجلّوا عن الإسلام فيها كربةً
عزّ القوي، وذلة المغلوب
لو لم يجلّها أتت بكروب

وللشهاب فتيان الشاغوري، قصيدة بالمناسبة نورد منها :

ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً
يزيد عن الأحشاء والعَدَّ جمعهم
وليس له من كثرة القوم ساحل
أُلف أُلوف خيلهم و الرواجل

أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٤٤-١٤٦، وينظر، رشيد، ناظم: (جهاد صلاح الدين الأيوبي)، مجلة المورد، مج١٦، ع٤، ١٩٨٧، ص١١١.

(3)Ehrenkreutz :op. Cit, p. 107.

(٤)الكناني، مصطفى حسن محمد : العلاقات بين جنوه والفاطمين في الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١ م / ٤٨٨ . ٥٦٧ هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (الإسكندرية / ١٩٨١ م)، ص٢٧٧؛ حسين، محسن محمد: (جيش صلاح الدين)، مجلة المورد ، مج١٦، ع٤، ١٩٨٧، ص٥٧.

(٥)أيلة : من كور الوجه البحري في مصر، وهو مرفأ يقع في خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر. (البكري :

جغرافية مصر، ص١٨ و ٦٣؛ زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص١٨٩).

(٦)غوانمة، يوسف حسن درويش: إمارة الكرك الأيوبية، منشورات بلدية الكرك، (عمان / ١٩٨٠ م) ص٩٩.

إن من بين أهم النتائج الأخرى التي تحققت بعد هذا النصر المؤزر للمسلمين، هو تأكيد وحدة المواقف بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، تلك الوحدة التي كانت السبب الرئيسي في صد المحجوم الصليبي على مدينة دمياط^(١). وذلك ((لما جلباه على الصليبيين من قوات براً وبحراً))^(٢) هذه المواقف الموحدة بين القائد العام للقوات الإسلامية، والقائد الميداني صلاح الدين، أدى بالطرفين بعد فك الحصار عن دمياط واستقرار الأوضاع في مصر إلى التفكير بوحدة المسلمين. وهذا ما فعله صلاح الدين فيما بعد، عندما نفذ رغبة نور الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر إذ عقد مجلساً ضم أمراء الجيش وقواده والفقهاء، وتم الاتفاق على إرجاع مصر إلى حاضرة الخلافة العباسية سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)^(٣). وكان هذا الأمر بمثابة ناقوس الخطر الذي هدد الصليبيين في قلب مستعمراتهم في بلاد الشام وخاصة في فلسطين. بحيث أصبح بإمكان صلاح الدين و نور الدين توجيه الجهد المشترك ضد العدو المشترك، وكان لهذه الوحدة وقعاً صاعقاً على رؤوس الصليبيين^(٤). وقد وصف ابن الأثير ضم مصر الذي تم بهدوء ودون مشاكل وقال: ((ولم ينتطح فيه عنزان))^(٥)، مما يدل على قبول الناس في مصر مصر وفرحتهم بهذا الضم. وبذلك تكون وحدة المسلمين في مصر وبلاد الشام قد تحققت بمجهود نورالدين وصلاح الدين وبفضل التلاحم الإسلامي ونسيان التباينات في مواجهة العدو الخارجي الغازي.

(١) المناوي: الوزارة والوزراء، ص ٢٣٤.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز : العبر في خبر من غير، تحقيق، صلاح الدين المنجد، مطبعة الحكومة الكويتية، ط ٢، (الكويت / ١٩٤٨ م)، ج ١، ص ١٨٩.

(٣) المقرئزي : ١ . الخطط، ج ١، ص ١٧٥ ؛ ٢ . تعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٣٢٥ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب، ص ٧٥ . ٧٦ .

(٤) يوسف، جوزيف نسيم : في تاريخ الحركة الصليبية، ص ٩٣.

(٥) الكامل، ج ٩، ص ١٠٥ . ١٠٦ ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج ١، ص ٤٤٦ . ٤٤٧ .

الفصل الثالث

دمياط والحملة الصليبية الخامسة

أولاً- الموقف الصليبي

أ- التهيئة السياسية:

ب- التهيئة العسكرية:

١- التعبئة البشرية

٢ -التعبئة المادية والمعنوية

ج- سير الحملة

د- احتلال دمياط

١- وفاة الملك العادل

٢- مؤامرة ابن مشطوب

٣- الموقف السلبي للأعراب

٤- النقص في قوات الدفاع عن دمياط وفي المؤن وتفشي الأوبئة

ثانياً- الموقف الإسلامي

أ- التهيئة السياسية والعسكرية قبل احتلال دمياط

ب- التهيئة السياسية والعسكرية بعد احتلال دمياط

ثالثاً- سير المعركة بين الجانبين

أ- تقدم القوات الإسلامية ، وتشكيل جبهة عسكرية ، وإعلان النفير العام

ب- كسر السدود

ج- قطع طريق العودة إلى دمياط

د- منع وصول الإمدادات

رابعاً- نتائج الحملة

الفصل الثالث

دمياط والحملة الصليبية الخامسة

كان الملك العادل^(١)، طوال فترة حكمه الممتدة من سنة (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م) - (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)، يحاول المحافظة على العلاقات الودية مع الصليبيين، وذلك بهدف تحقيق السلام، وتنمية الصلات التجارية وخاصة مع الإيطاليين منهم^(٢). إلا أن تلك السياسة لم تنجح مع الصليبيين الذين كانت لهم أطماعاً وأهدافاً سياسية و اقتصادية، دفعتهم للتخطيط إلى حملة صليبية أخرى لاحتلال مصر، ألا وهي ما سُمِّيَتْ بالحملة الصليبية الخامسة، والتي سنتناول دراستها هنا خلال هذا الفصل وكما يأتي :

أولاً الموقف الصليبي

أ - التهيئة السياسية:

كان لتحرير المسلمين بيت المقدس في السابع والعشرين من رجب، الموافق الثاني من تشرين أول من سنة (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م)^(٣)، ردود أفعال في أوروبا، دفع بمعظم ملوكها إلى تناسي الأحقاد والاتفاق على محاربة المسلمين في بلاد الشام، والعمل على إعادة بيت المقدس مرة أخرى. وكان ذلك بدعم و تحريض من البابا (أنوسنت الثالث)، الذي سَخَّر كل ما لديه من إمكانيات ودهاء لتحقيق ذلك

(١) الملك العادل :هو سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذي بن مروان.

وللمزيد عن سيرته، ينظر: (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٧٠-٢٧٥؛ ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٣٢-٢٤٠؛ النعمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي: المدارس في تأريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ٢، بيروت/ ١٤١٠ هـ، ج ١، ص ٢٠٦).

(٢) حتي، فيليب: تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، ط ٢، (بيروت/ ١٩٧٢ م)، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٣) ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي: تأريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية (النجف / ١٩٩٦ م)، ج ٢، ص ١٢٩؛ الشقيري، مصطفى: الصليبية الحديثة ماذا تريد؟، دار التوزيع والنشر الإسلامية، (القاهرة/ ٢٠٠٣ م)، ص ٣٥.

الهدف^(١)، إذ استغل حملة الأطفال^(٢) بشكلٍ أثار فيه مشاعر النصارى. وقال عنها : ((أخرجنا هؤلاء الصغار، فبينما نَغُطُّ في نومنا، ساروا مبتهجين لفتح الأراضي المقدسة))^(٣). فكانت حملة الأطفال حافزاً للنصارى -حكاماً ومحكومين- نحو المشاركة في حملة صليبية جديدة^(٤)، وهي الحملة التي امتدت أحداثها ما بين : (٤٦١٤هـ/١٢١٧م) - (٤٦١٨هـ/١٢٢١م).

غير أن البابا لم يكن مقتنعاً بإمكانية استعادة بيت المقدس من خلال حملات الأطفال^(٥)، كما أنه كان غير راضٍ عن النتائج المترتبة على الحملة الصليبية الرابعة، والتي خرجت في وقتها عن قيادته، واتجهت إلى بيزنطة بدلاً من مصر، وحاربت النصارى في القسطنطينية بدلاً من محاربة المسلمين^(٦). كما أنها فشلت في تحقيق أهدافها في بلاد الشام أو في توحيد الكنيستين^(٧). كذلك فإن النظرة المتعالية للبابوية جعلت الفجوة كبيرة في المواقف البابوية والدولة البيزنطية. لأن البابا (أنوسنت الثالث) كان يسعى لأن تكون الكلمة العليا له في أمور الدين والدنيا، حتى أنه شبه البابوية بالشمس والإمبراطورية بالقمر الذي يستمد ضوءه من الشمس، لذلك دعا إلى سيادة البابوية على

(1) A Short History of Palestine ,A Look at The Ancient History of the land of Palestine up to the Advent of Islam .

بحث لكاتب مجهول منشور في الإنترنت على الموقع:

<http://www.ir/world service/imam/palestine /14.htm>

(٢) حملة الأطفال: وهي حملة قادها (ستيفن) سنة ١٢١٢ م، وغالبية المشاركين فيها ممن هم دون سن البلوغ، ودعا فيها المسيحيين في فرنسا وأنحاء أخرى من بلاد الغرب للتحرك إلى المشرق الإسلامي وتحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين.

للمزيد من التفاصيل عن حملة الأطفال، ينظر: رنسيमान: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٤٩ -

٢٥٦؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٠٤.

(٣) باركر: الحروب الصليبية، ص١٠٧.

(٤) وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٤٥؛ رنسيमान: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٥٦ - ٢٥٧.

(٥) العسلي، فن الحرب الإسلامي، مج٤، ص١٨٥.

(٦) شليبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، (القاهرة/ ١٩٧٢

م)، ج٦٠، ص٤٧٤ - ٤٧٥.

Lane-Poole: op.cit,p218-219.

(٧) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٠٧.

الإمبراطورية^(١). كما أن البابا لم يجد أملاً في التعاون مع الدولة البيزنطية، لذا قرر العودة لفكرة الإعداد لحرب صليبية تسير مباشرة من الغرب الأوروبي^(٢). فحث ملوك أوروبا للعمل على إرجاع القدس من أيدي المسلمين، فأطاعوه ولم يمانعوه في ذلك^(٣).

في الوقت نفسه وافق ملك بيت المقدس (جون دي برين)^(٤) على هدنة مع الملك العادل أمدها خمس سنوات^(٥)، تبدأ في النفاذ في تموز (٦٠٩هـ/١٢١٢م). وكتب إلى البابا رسالة يحثه فيها على أن تكون الحرب الصليبية القادمة نحو الأرض المقدسة في فلسطين بعد انتهاء أجل الهدنة^(٦). والتي استفاد منها الصليبيون في الشام في تجميع قوتهم والاتصال بغرب أوروبا والبابا^(٧)، وهو ما يبين مدى التناغم والتعاون والتنسيق بين مملكة بيت المقدس والبابا، في سبيل تحقيق هدفهم واسترداد بيت المقدس.

أما البابا فإنه ما إن استلم رسالة ملك بيت المقدس، حتى شرع في التحريض والتهيئة للحملة الصليبية الخامسة، وبدأ جهوده بإصدار منشور طالب فيه باشتراك جميع المسيحيين فيها دون تمييز، ودون النظر إلى الطبقة والمقدرة. ويهدف هذا المنشور عند صدوره سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) إلى استنهاض حمية المسيحيين، فتقرر بموجبه القيام بمواكب شهرية من أجل الدعاء لتخليص الأراضي المقدسة، وكان البابا واثقاً في منشوره من أن أيام الإسلام تتجه نحو الهاوية^(٨). ودعوة البابا هذه هي دعوة لعموم المسيحيين، مستغلاً

(١) غنيم: الدولة الإيوبية والصليبيون، ص ٦٩.

(٢) العسلي، فن الحرب الإسلامي، مج ٤، ص ١٨٥.

(3) A History of Palestine, op.cit, No.p.

(٤) جون دي برين، رغم أنه ملك ما يُسمى آنذاك بمملكة بيت المقدس، إلا أن مقر مملكته هو عكا بدلاً من القدس، بسبب تحرير القدس. (المعاضدي وآخرون: الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٠٤).

(5) Stevenson: op.cit, p98.

(٦) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٤٠.

(٧) التكريتي، محمود ياسين أحمد: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ٥٦٤ هـ - ٦٤٨ هـ / ١١٦٨ م - ١٢٥٠ م، دار الرشيد للنشر، (بغداد / ١٩٨١ م)، ص ٢٧٠.

(٨) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

ما قام به الملك الملك العادل من بنائه لحصن الطور^(١) سنة (٦٠٩ هـ/١٢١٢ م)، والذي تم شحنه بالرجال والذخائر والسلاح^(٢)، لأن هذا الحصن كان يُشكل خطورة على الدويلات الصليبية في بلاد الشام، بسبب موقعه المتميز على جبل الطور المطل على الطرق المؤدية إليهما جعله يحث الخُطى للإسراع في القيام بحملة صليبية تكون قاصمة للعالم الإسلامي^(٣).

وفي سبيل حشد كل الجهود، فقد انصرف البابا نحو المساهمة في حل الخلافات بين الملوك والحكام، إذ بدأها بحل الخلاف بين حُجَّوه وبيزا، وذلك لأهميتهما في نقل قوات الحرب ومعداتها إلى فلسطين^(٤).

ومن أجل تنظيم الحملة الدعائية للحرب، وإعداد الخطط اللازمة لإنجاحها، عقد البابا (أنوسنت الثالث) مؤتمرًا كنسيًا بمدينة روما في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة (٦١٢ هـ/١٢١٥ م)^(٥)، و انضم للمؤتمر جمعٌ غفيرٌ من رجال الدين، ومندوبون عن ملوك ألمانيا و انكلترا وفرنسا واسبانيا وهنغاريا والمملكة اللاتينية في القسطنطينية، وكذلك مندوبون عن قُولا أخرى. فصار يمثل جميع المسيحيين في أوروبا وبيت المقدس. وبدأ البابا كلمته في المؤتمر، التي عبّر فيها عَمَّا تقاسيه مملكة بيت المقدس -بحسب زعمه- من انتهاكات للاماكن المقدسة من جانب المسلمين، وطالب الجميع بمساعدة البابوية في مهمتها. ثم تكلم مندوب مملكة بيت المقدس، فأفاض في بيان ما تُعانيه بلاده من حالةٍ وصفها بالسيئة. وأعقب ذلك مناقشتهم لمشروعاتٍ عدّةٍ حول كيفية استعادة بيت المقدس^(٦)، كما تعاهد الجميع على استعادتها من

(١) حصن الطور: قلعة منيعة على رأس جبل الطور، بالقرب من عكا. بناه الملك العادل. وتاريخ بنائه قريب من تأريخ ذلك الهجوم. (الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٧.

(٣) عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) رنسيما: تأريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٠٧.

(5) Pernoud, Régine: The Crrsaders, Translated by Enid Grant, (Edinburgh and London -1963), p. 227.

(٦) وهبه: موجز تأريخ الحروب الصليبية، ص ٤٥.

المسلمين^(١). بيد أنهم اتفقوا على أن تكون مصر هي وجهة الحملة الصليبية الجديدة، وبالذات نحو مدينة دمياط لأسبابٍ سَوقِيَّةٍ منها قُرْبُها من مراكز الصليبيين في الشام وبخاصة عكا، ولأن دمياط هي الطريق المؤدي إلى القاهرة، وأن احتلالها سوف يسهل مهمة احتلال مصر بأكملها^(٢)، كما أن في هزيمة مصر ضماناً لبقاء المستوطنات الصليبية بأمان في بلاد الشام^(٣). وقد نجح البابا في حشد التأييد لدعوته، فكان المؤتمر بمثابة تظاهرة سياسية وعسكرية ودينية، جُمِعَتْ عن قيادة الكنيسة لهذه الحملة^(٤).

وكان أول من استجاب لدعوة البابا ملك المجر (أندري الثاني)، ودوق النمسا (ليوبولد السادس)^(٥). كما توصل الحُضُور إلى الاتفاق على الالتزام بالهدنة الموقعة بين الملك العادل والملك (جون دي برين)، وإلى حين انتهاء الأجل المحدد لها في عام (٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م)^(٦). كما وُحِدَ شهر حزيران من ذلك العام موعداً لتجميع المحاربين^(٧). وكانت هذه هي بداية التهيئة السياسية للحملة الصليبية الخامسة التي جرى التبشير لها من قبل البابا. كما أن الالتزام بالهدنة حَقَّقَ الأمان للصليبيين، بعدم مهاجمة العادل لمملكة بيت المقدس، إذ لم يعايدُ شكل خطراً عليها، وذلك لتخوفه من قيام حرب صليبية جديدة^(٨).

كما دعا المؤتمر إلى سلامٍ عام بين المسيحيين في دولهم طوال فترة الهدنة مع الملك العادل . فكانت فرصة جيدة من أجل الإعداد للحرب . والتي كان من أولوياتها ، فرض الحصار على مصر والبلاد

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٢) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٦٧.

(3) Grousset ,op.cit,p.174.

(٤) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٥) العسلي: فن الحرب الإسلامي، مج ٢، ص ١٥٨؛ المطوي، محمد العمروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية ، (تونس / ١٩٥٤ م)، ص ٧٧.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٨٣.

(٧) و حُدِّدَ أيضاً أن يكون التجمع في مرفأين جنوب إيطاليا، هما مرفأ برنديزي ومرفأ مسينا، بهدف أن يمنح البابا بركته شخصياً للأسطول، (ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٠).

(٨) المعاضدي وآخرون: الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٠٣.

الإسلامية، فتقرر وقف كل صنوف التجارة مع الشرق، وبخاصة مع مصر أثناء فترة الهدنة^(١)، ومنع نقل الإمدادات العسكرية لعموم المسلمين^(٢). كما قررت الكنيسة حرمان أي مسيحي يقوم ببيع مواد حربية للمسلمين من حرته و عَدَّه عبداً، وعقوبة كل من يعمل إلى جانب المسلمين في الحرب المرتقبة بمصادرة أملاكه. كما أُعطي الحق لكل من يقبض على تاجر مسيحي وهو يتعامل مع المسلمين أن يعامله مُعاملة الأسير^(٣) ويبدو واضحاً أن الهدف من تلك الإجراءات الصارمة من قبل الصليبيين هو لإضعاف مصر تمهيداً لغزوها، مبتدئين باحتلال دمياط.

و بينما كان الإعداد للحملة يقترب من نهايته، فأُنْبِأ البابا (أنوسنس الثالث) قد توفي سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م)، وخلفه البابا (هونوريوس الثالث) الذي أخذ على عاتقه مهمة التنسيق بين ملوك أوروبا لتوجيه الحملة في الوقت المناسب^(٤). إذ لم تنقُص إلا أياماً معدودة على تولّيه منصب البابوية، حتى كتب إلى الملك (جون دي برين) في عكا، يخبره أن القوات الصليبية على وشك التوجه إليه، وأن عليه حثّ ملوك أوروبا على المشاركة فيها^(٥). ولضمان نجاح المشروع الصليبي في هذه الحملة فأُعرضوا على (كيكاوس)^(٦)، ملك سلاجقة الروم التعاون معهم، غير أن الأخير رفض، ومما يؤكد ذلك أننا لم نجد في المصادر ما يُشير إلى مشاركته معهم في هذه الحملة.

وقد أشار (Grousset)، أن الصليبيين اعتمدوا أيضاً على مساندة وتأيد نجاشي الحبشة

(١) باركر، الحروب الصليبية، ص ١٠٧.

(2) Crusade the later Crusades and the Decline of the Latin Enclaves, No.p.

بحث لكاتب مجهول، منشور في شبكة الإنترنت على الموقع:

www.kat.org/kat/historyRel/Ehr/crusade.htm.

(٣) غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٧١.

(٤) العسلي: فن الحرب الإسلامي، مج ٢، ص ١٥٨.

(٥) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣١٢.

(٦) كيكاوس آن كيخسرو: هو ملك سلاجقة الروم للفترة من ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م لغاية ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م. (ابن

الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٢٥).

(إثيوبيا) القسيس (جان)^(١)، لكننا لم نجد عند غيره كذلك ما يشير إلى تعاونه أو مشاركته في هذه الحملة.

ب- التهيئة العسكرية

إن الإعداد لأي حرب، يتطلب حشد الطاقات البشرية وتعبئتها، والعمل على تمويل تلك الحشود والطاقات في سبيل إنجاحها. ولذا اتخذ الصليبيون لإنجاح هذه الحملة عدداً من الإجراءات منها:

١- التعبئة البشرية

على أثر انتهاء فترة الهدنة المعقودة بين الملك العادل والملك (جون دي برين)، وصلت إلى عكا سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) طلائع القوات الصليبية للحملة الصليبية الخامسة^(٢)، وتمركزت فيها. إذ جاءت عن طريق البحر أعداداً كبيرة من الجموع البشرية^(٣)، وصارت بقيادة (جون دي برين) ملك مملكة بيت المقدس، ومعه ممثل البابا (بيلا جيوس)^(٤). ذكر المقرئ ذك، و وصف تلك الجموع قائلاً: ((فصاروا بعكا في جمع عظيم))^(٥). وكانت معظم تلك الجموع من المجر والنمسا، والتي كانت قد تجمعت في مدينة (سبلت) في باديء الأمر، ومنها أبحرت على الفور بقيادة (ليوبولد السادس) ملك النمسا^(٦). ثم أبحر بعده بفترة وجيزة (أندري الثاني) ملك المجر. كما تابعت إمدادات الصليبيين من ((رومية الكبرى)) مقر البابا^(٧). كذلك وصلت إلى عكا أوائل أيار سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، قوات من الجنود الاسكندرانيين، وقوات أخرى تحت قيادة (هنري) ملك هولندا^(٨). كما أرسلت فرنسا عدداً محدوداً من

(1) Histoire des Croisades, Vol.2, op.cit, p209.

(٢) التكريتي: الأيوبيون، ص ٢٧١.

(3) Gabrieli, Francesco: Arab Hhistorians of The Crusades, Routledge and Kegan Paul, (London /1957), p.255.

(٤) و مما ذكر بهذا الشأن أن البابا كان قد أرسل اثنين من الكاردينالات كممثلين عنه إلى الجيش الصليبي، هما: الكاردينال كارسون، وكان انكليزياً. والكاردينال بيلاجيوس، وهو من أصل برتغالي. وقد توفي الأول، وبقي الثاني

ممثلاً للبابا. (Pernoud: op.cit, p.219).

(٥) الخطط، ج ١، ص ٢١٥. سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢٥٤.

(٦) المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ٤٧ و ٧٧.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٢٥٤؛ وينظر: ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢١٩.

(٨) غنيم: الدولة الإيوبية والصليبيون، ص ٧٣.

المقاتلين، الذين أبحروا من ميناء برنديزي^(١). وأرسلت قبرص جموعاً من المقاتلين بقيادة ملكها (هيو)^(٢). كما انضم إلى الجيوش الصليبية أمير أنطاكية (بوهيمند الرابع)^(٣). وفي ألمانيا احتشد جمع كبير من الصليبيين، وساروا من جنوب شرق أوروبا نحو الأراضي المقدسة إلى مكان تجمعهم في عكا^(٤)، فضمت القوات الصليبية عندئذ مقاتلين من سائر أنحاء أوروبا، مضافاً إليهم قوات الإمارات الصليبية بالشام وفي مقدمتها فرسان الداوية والإسبتارية^(٥).

وقد اختلف المؤرخون في تقديرهم لعدد المحتشدين بعكا، فمنهم من قال أن عددهم كان خمسة عشر ألفاً^(٦)، ومنهم من ذكر أن عددهم كان حوالي ثلاثين ألفاً^(٧)، وذكر ثالث أن هذا العدد مبالغ فيه^(٨). إلا أن المقرئزي بالغ أكثر من ذلك فقال: كانوا بحدود السبعين ألف فارس وأربعمئة ألف راجل^(٩)، ونلاحظ هنا أن المقرئزي وفي أكثر من مناسبة يقدم أعداداً تدل على غلو في تقدير الأحجام والمساحات. يد أنه ومهما اختلفت المصادر في عدد المقاتلين الصليبيين، إلا أنها تُجمع على أن عدد الجيش الصليبي كان كبيراً، وفاق في عدده كل جيش ظهر في فلسطين بعد عصر صلاح الدين الأيوبي^(١٠).

٢- التعبئة المادية والمعنوية

إن فترة الهدنة بين (جون دي برين) والعاذل كانت فرصة محسوبة لها من أجل الإعداد التام للحرب من جانب الصليبيين، إذ تضمنت مقررات مؤتمر (اللايتران) الكنسي الذي مرّ ذكره سابقاً بنوداً مهمة تُخصّص تمويل الحرب. ومن أمثلة ذلك وجوب تأدية الذر من قبل جميع الأحرار، وأن يلتزم رجال الدين

(١) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٢.

(٢) شاك، محمود: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط ٦، (لا. م. / م. ٢٠٠٠م) ج ٥، ص ١٢٠.

(٣) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٢.

(٤) باركر: الحروب الصليبية، ص ١٧.

(5) Gabrieli: op. cit, p.255.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ٥٨٣.

(٧) عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ١٩.

(٨) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٥.

(٩) الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(١٠) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٢٠؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٦٣.

ولمدة ثلاث سنوات بدفع ضريبة لصالح الحرب مقدارها ٢٠%، والاكتفاء بنسبة ١٠% من دخل الكراذلة. كما تقرر أيضاً أن على من لا يشارك في الحرب بنفسه أن يتولى تسليح ثلاثة محاربين ولمدة ثلاث سنوات^(١). ثم بدأ البابا حملة تبرعات جمع خلالها ثلاثين ألف جنيه وثلاثة آلاف مارك فضة^(٢)، سُخِّرَتْ جميعها لصالح الحرب. كما تقرر في المجمع كذلك، منح مزايا مادية للمقاتلين، وكذلك للمشاركين فيها بصورة غير مباشرة كصانعي السفن وغيرهم. وكذلك إعفاء جميع المشاركين في الحرب من الضرائب والرسوم، مع تأجيل الديون المستحقة خلال فترة المشاركة، فضلاً عن منح مزايا معنوية وروحية للمشاركين في الحرب، منها المساواة بين من يجهز محارباً ومن يشارك بنفسه في الحرب، ومنح المقاتلين حماية بابوية حتى موعد عودتهم أو وصول خبر مقتلهم^(٣). كما قرر البابا منح الغفران التام من الخطايا أو ما يسمى ((صك الغفران)) لكل من يُقَدِّمُ سفنه لنقل المقاتلين، وكذلك للعاملين في بناء السفن، والمساهمين في نفقات الحرب. وكان لتلك البنود صدقٌ مؤثراً كان من شأنه نُزوح جماعي لتجار الإسكندرية - المسيحيين منهم - إلى عكا في سنة (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) وغلبةً منهم في المشاركة بالحرب الصليبية المرتقبة^(٤). أما عن عدد سفن الجيش الصليبي، فقد ذكر أنها كانت أكثر من مائة وعشرين سفينة حربية كبيرة، وأكثر من ثمانمائة سفينة حربية صغيرة^(٥).

ج- سير الحملة

بعد انطلاق القوات الصليبية من دول المجر والنمسا وفرنسا و ألمانيا وهولندا ودول أوربية أخرى، وصلت طلائع تلك القوات -عبر البحر- إلى مركز التجمع في عكا سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، و انضم إليها فصائل الفرسان من الاستتارية والدواية^(٦). وفي عكا عقد مجلس حرب مؤلف من قادة الغزاة

(١) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٠.

(٢) غنيم : الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٦٩-٧٠.

(٣) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٠-٣١١.

(٤) جب: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢١٠.

(5) Pernoud: op.cit, p.256.

(٦) عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ١٩٨؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٦٢-٢٦٣؛

الصلبيين، وتقرر فيه القيام بهجمات سريعة تشمل الطور وأماكن أخرى من بلاد الشام^(١).

وبالفعل باشرت القوات الصليبية بتنفيذ مقررات مؤتمر (اللايتزان) ، فبدأت حرب استنزاف لمشاغلة القوات الإسلامية المتواجدة هناك، و للتمويه على هدفها الحقيقي وهو احتلال مصر. ففي شعبان الموافق تشرين الثاني سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) تقدمت القوات الصليبية نحو بيسان من الأردن^(٢) ، وكانت فيها قوات الملك العادل، وقد وصلتها قادمةً من مصر، إلا أنه لم يجد فائدةً من مُلاقاتهم قُلَّة جيشه مُقارنةً بقوات الصليبيين^(٣)، مما دعاه إلى الانسحاب إلى خسفين^(٤)، تفادياً من الهزيمة التي باتت مُحَقَّقة في حالة المواجهة معهم. لذلك غادر بيسان إلى دمشق، وبعد انسحابه منها احتلتها القوات الصليبية، واستولوا على ما فيها من ذخائر^(٥). كما أوغل الصليبيون في قتل المسلمين وأسر الكثير منهم ونهب أموالهم، وكانت مدة مقامهم في بيسان ثلاثة أيام^(٦). ثم هاجموا مدينة بانياس، وغادروها أيضاً بعد ثلاثة أيام^(٧). وبعدها توجهوا إلى مُرج عكا، وهي المناطق الريفية المحيطة بعكا وسائر القرى التي كانت هناك^(٨)، وقد أخذوا عند عودتهم الكثير من الغنائم والسبايا والأسرى^(٩).

وفي منتصف شهر رمضان من سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) توجهت تلك القوات نحو مدينة صور، باتجاه مدينة الشقيف، ونزلوا بينها وبين مدينة بانياس، فنهبوا ما أمكنهم في صور والشقيف ثم عادوا

زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٤.

(١) التكريتي: الأيوبيون، ص ٢٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٤. وينظر الخارطة في الملحق رقم (٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٤. سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٨٣؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٣.

(٥) الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٢٤؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٦٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٢٥؛ النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٢٥؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٨) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٩) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٨٣؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

إلى مُرج عكا^(١). وقد وصف ابن الأثير جسامته ووحشية ما فعله الصليبيون في غزواتهم تلك وقال :
 ((والذي سَلِمَ من تلك البلاد كان مُخْفًى حتى قَلَر على النجاة))^(٢).

لكن على الرغم من الفضائع التي ارتكبتها الصليبيون في هجماتهم السريعة المتقدمة، فإن الملك (جون دي برين) لم يكن راضياً بما حَقَّقوه من مكاسب، بل أراد أن يُحقق تفوقاً أكبر؛ سَوَّغَ لنفسه استحقاقه للقيادة الصليبية، فأَعَدَّ من جانبه قوة عسكرية لتدمير حصن الطور. فتقدم الصليبيون باتجاهه ونزلوا أسفل جبل الطور في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شعبان الموافق ٥ كانون أول سنة (٦١٤ هـ/١٢١٧ م)، وأقاموا هناك إلى اليوم الثاني من شهر رمضان وكانت تلك الأيام مُشَوَّبةً بالضباب، فلم يشعر أهل الطور إلا والصليبيين عند باب الحصن قد أَلْصَقُوا رماحهم بالسور. ففتح المسلمون الباب، وخرجوا إليهم الفارس و الراجل، وقاتلوه حتى اضطروهم إلى التراجع إلى أسفل الجبل^(٣)، إلا أنهم عاودوا الهجوم وحاصروه^(٤)، غير أن المسلمين دافعوا عنه دفاعاً مستميتاً^(٥)، لكن الصليبيين حاولوا حاولوا مرة أخرى حتى تمكنوا من صعود الجبل، ووصلوا إلى السور وكادوا يملكون لكنهم فشلوا^(٦). وفي اليوم الرابع من رمضان - من ذلك العام - أعاد الصليبيون الكَرَّةَ ومعهم سُلُحٌ عظيم ألصقوه بالسور، فقاتلهم المسلمون، وروَّوا السُلُمَ بالنفط فاحترق، وقتل عنده جماعة من أعيانهم ومن بينهم أحد قادتهم^(٧)، فتشاءموا قادتهم^(٧)، فتشاءموا بمقتله، وعادوا إلى عكا، وكانت مدة حصارهم له سبعة أيام^(٨)، أما خسارتهم في تلك تلك الغزوة فكانت فادحة، وبخاصة في الأرواح^(٩).

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٥، ج١، ص ٢٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٣١٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١، ص ٥٨٥.

(٤) ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق، سامي

الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، (دمشق/ ١٩٦٨)، ج٣، ص ١٨٠.

(٥) النعمي: الدارس، ج٢، ص ٢٠٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٣١٥؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٥، ج١، ص ٢٢٢.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١، ص ٦٠٣؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٢٥.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٣١٥؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢١٥.

(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٨٠.

و يَسُوغُ رنسيمان سبب فشل الصليبيين في السيطرة على حصن الطور، في أن الملك (جون دي برين) لم ينتظر مساعدة الطوائف الدينية و العسكرية، كما لم ينحاز لنصرته ملوك المجر وقبرص^(١). وتناسى حقيقة شدة المقاومة التي أبدتها المدافعون عن الطور.

وبعد معارك الاستنزاف المتقدمة، وعودة القوات الصليبية من حصارها لحصن الطور إلى عكا فإنها ظَلَّتْ فيها حتى بداية سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)^(٢). ولما لم تأت الحرب في بلاد الشام بنتيجة جيدة للصليبيين، شعر ملك المجر باليأس، فقرر الرجوع إلى بلاده أما بقية العساكر الصليبية، فقد اختلفت من جديد حول الهدف الذي تتوجّه إليه قواتهم، فمنهم من رأى أن الاتجاه نحو دمشق ومحاصرتها أولاً، لأنهم إذا أخذوها ملكوا جميع الشام. ومنهم من رأى الاتجاه إلى مصر أولاً^(٣). ولتحقيق ذلك الهدف الهدف عقدوا مجلس حرب آخر في عكا في شهر نيسان من هذه السنة^(٤)، قرروا فيه أن يقصدوا مصر أولاً^(٥). كما تقرر في مجلس الحرب أن تكون مدينة دمياط هي الهدف الأنسب لبدء الهجوم^(٦)، وكان من بين المؤيدين لهذا القرار الملك (جون دي برين)^(٧). فقد استنتج من التفوق البحري للصليبيين أن كسب المعركة أمرٌ مُحْتَمٌّ^(٨) لذلك ترك حاميةً قوية للدفاع عن عكا ضد أي هجوم إسلامي مستقبلاً^(٩)، وقدرت قوة تلك الحامية بخمسمائة فارس^(١٠). و بعد أن أكملوا استعداداتهم العسكرية أبحروا بسفنهم باتجاه دمياط^(١١).

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٦٣-٢٦٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٧؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٨٩.

(٤) وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٨؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٢٨؛ علي: خطط الشام، ج ٢، ص ٨٥.

الشام، ج ٢، ص ٨٥.

(6) Stevenson: op.cit, p.303.

(7) Pernoud: op.cit, p.219.

(8) Grousset: Vol.2, op.cit, p.207.

(٩) عاشور: مصر والشام، ص ٧٣.

(10) Grousset: Vol.2, op.cit, p.208.

(١١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٨؛ ابن خلدون: العبر، مج ٥، ص ٤٤٣.

وقد تحركت القوات الصليبية بحراً من عكا، ووصلت جزيرة دمياط، إذ رست السفن في الساحل على الضفة الغربية من نهر النيل، وكان بينهم وبين دمياط نهر النيل، وذلك في نهاية شهر صفر الموافق ١ حزيران من سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) ^(١). وفور وصولهم هناك أقاموا مخيمهم مقابل المدينة، وكانت الضفة الضفة الغربية ليست آمنة بسبب سيطرة برج دمياط على مجّمع مصب النيل في البحر ^(٢). مما يعني أن مكان نزولهم لم يكن موقفاً من الناحية العسكرية. لذلك باشر الصليبيون فور وصولهم ببناء سور وحفر خندق لأجل حماية أنفسهم من الهجوم ^(٣)، وهي خطة عسكرية مُتبعة تقليدياً لحماية جنودهم ^(٤). ولهذا جنودهم ^(٤). ولهذا الغرض جلبوا معهم آلات الحصار وأبراجاً متحركة، يمكن وضعها على سطح السفن وتحريكها عند اللزوم، للهجوم على برج دمياط بقصد السيطرة عليه، والذي كان مليئاً بالمدافع عن ^(٥). وبعد استكمال استعداداتهم العسكرية هناك، شرعوا في التوجه إلى دمياط لمحاصرتها.

د-احتلال دمياط:

على الرغم من توجه الصليبيين إلى دمياط ومحاصرتها بعد قتال شديد مع أهلها، إلا أن ذلك لم يغير شيء على أهل دمياط، لأن الإمدادات من إغاشة وذخيرة كانت تصلهم باستمرار، ولأن الحصار عليهم لم يكن تاماً. فقامت القوات الكامل كانت قرية منهم، كما أن نهر النيل كان يشكل حاجزاً فاصلاً بينهم وبين الصليبيين ^(٦). فهم كما ذكر ابن الأثير: ((ممتنعون لا يصل إليهم أذى، وأبوابها مُفتحة، وليس عليهم من الحصر ضيق ولا ضرر)) ^(٧). غير أن عوامل كثيرة لم تكن بالحسبان، ساعدت بالحسبان، ساعدت على تغيير الموقف لصالح القوات الصليبية في هجومها ضد قوات الكامل وحامية

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥.

Gabrieli:op.cit,p.258.

وهناك من ذكر أن تأريخ وصول الصليبيين إلى جزيرة دمياط كان في الثالث من ربيع الأول من ذلك العام. (أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٠٩؛ ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٢٨؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٢٦).

(2) Gabrieli:op.cit,p.255.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٥) ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٣٠.

Gabrieli:op.cit,p.256.

(٦) الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٢٤؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٦.

Gabrieli:op.cit,p.257.

(٧) الكامل، ج ٩، ص ٣١٦.

١- وفاة الملك العادل :

في أواخر جمادى الأولى، الموافق ٣٠ آب سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)، وبعد سيطرة الصليبيين على برج دمياط وقطع السلسلة الحديدية، أرسل الملك الكامل رسلاً هو (شيخ الشيوخ صدر الدين) إلى أبيه الملك العادل، فأخبره بما حدث، ((فَدَقَّ العادل بيده على صدره، ووضَّ من قَهْرِهِ مَرَضَ الموت))^(١)، فمات مغموماً^(٢)، في جمادى الثاني من ذلك العام^(٣). وكان لخبر الوفاة تأثيره على معنويات المقاتلين المقاتلين المسلمين، فَضَعُفَت النفوس^(٤)، واضطربت الجيوش الإسلامية^(٥)، وطمعت بهم عساكر الصليبيين الصليبيين فنهبت بعضاً من أموالهم^(٦). وهناك من ذكر أن العادل أوصى أولاده قبل وفاته بإرجاع فلسطين فلسطين عِوضاً عن دمياط^(٧)، للتدليل على اهتمام العادل بمدينة دمياط، غير أننا لم نجد في المصادر العربية ما يشير إلى هذه الرواية.

٢- مؤامرة ابن المشطوب :

كان من جُملة أمراء مصر في عصر الملك الكامل ابن المشطوب^(٨)، الذي تميز بكثرة أتباعه الذين الذين كانوا يطيعونه وينقادون له. فأراد بالاتفاق مع أمراء آخرين خلع الملك الكامل وإحلال شقيقه الفائز بدلاً عنه^(٩)، فلما علم الكامل بالمؤامرة ترعزت ثقته بجيشه. ووردت آراء مختلفة حول تصرف

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢٢.

(٢) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٩٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٦؛ القرمانى، أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي، أخبار الدول و آثار الأول في التأريخ، عالم الكتب، (بيروت / لا.ت)، ص ١٩٥.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٤.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٩؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٤١.

(٦) أبو الفداء: المختصر، ج ٦، ص ١٦.

(7) Grousset : Vol.2, op.cit, p.218.

(٨) ابن المشطوب: هو عماد الدين أحمد بن علي، وأصله من الأكراد الهكاريه، (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٦).

(٩) الغساني، الأشرف أبو العباس إسماعيل بن العباس: المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق، شاعر محمود عبد المنعم، دار البيان، (بغداد / ١٩٧٥ م)، مج ١، ص ٣٦٣.

الكامل ورد في عمله إزاء ذلك، فذكر البعض أنه توجه إلى أشمون إطناح^(١) ونزل عندها^(٢)، وفي نيتته التوجه إلى اليمن^(٣). ومنهم من ذكر أن الملك الكامل بعد علمه بالمؤامرة أخذ بمداواة المتآمرين كونه في مواجهة العدو يؤلم على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المظفر^(٤). وفي رواية أخرى أن مؤامرة ابن المشطوب لم تكن حقيقة، بل هي خدعة من صنع الصليبيين^(٥).

وسواء كانت مؤامرة ابن المشطوب حقيقة أم خدعة، فإنها فعلت فعلتها في النفوس، فاضطرب الجيش وتركوا موقعهم في بحيرة المنزلة، ولحقوا بالملك الكامل بعد أن تركوا كل شيء إلا ما خفف حمله^(٦)، فتمكن الصليبيون من عبور النيل إلى بر دمياط، وذلك في السادس عشر من ذي القعدة الموافق ٩ شباط سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)^(٧). ودخلوا معسكر الملك الكامل، وغنموا ما فيه ((بغير منازع منازع ولا ممانع))^(٨). وربما لم تكن النتيجة كذلك لو كان الملك الكامل موجوداً في معسكره، مما استدل يستدل على صحة المؤامرة. كما أن الوقائع التاريخية تشير دائماً إلى أهمية وجود القائد في أرض المعركة ثمغاته فيهماله أبلغ الأثر في حماس المقاتلين واستماتتهم من أجل النصر^(٩). غير أن الواقع كان

(١) أشمون إطناح وتسمى أيضاً (أشموم طنّاح)، كانت قصبة عامرة بالأسواق والحمامات والفنادق ضمن كورة الدقهلية. وهي اليوم قرية عادية تقع شرقي محافظة الدقهلية وتعرف باسم (أشمون الرمان). (ابن دقماق: الانتصار، ق ٢، ص ٦٨).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٤٨.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١١٦.

(٤) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء انباء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت/ ١٩٦٨ م)، ج ٥، ص ٧٩؛ أبو الفداء، المختصر، ج ٦، ص ١٦؛ ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٥٠.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٨٠؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٦.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٥٠؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٩) الصائغ، ذكرى عزيز محمد: عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، لسنة (١٩٨٨ م)، ص ٨٤-٨٥.

عكس ذلك، وحصل ما حصل، فصارت دمياط وحدها تدافع عن نفسها، بعد احتلال الصليبيين لمعسكر الكامل. بيد أنه في هذا الوقت وصلت لمعسكر الكامل نجدة من أخيه المعظم، الذي وصل مُسرعاً إلى مصر، وكلما لوصوله أثراً كبيراً في مساعدة الكامل في التصدي للمؤامرة والقضاء عليها، وإخراج ابن المشطوب إلى الشام^(١). كذلك تم إخراج الفائز إلى بلاد الشرق، بحجة تكليفه بمهمة إحضار النجدة للملك الكامل. إذ أن إخراج ابن المشطوب والفائز كان له أبلغ الأثر على عزيمته من قَمِي من الأمراء المتآمرين، فدخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طواعية^(٢). وبعد القضاء على مؤامرة ابن المشطوب، عاد الكامل من جديد لمواجهة الصليبيين، الذين كانوا قد استغلوا ظروف الكامل وأحاطوا بدمياط وقطعوا الاتصال بها نهائياً^(٣). فعاد الجيش الإسلامي بقيادة الكامل، واستولى على المخيم الجنوبي للصليبيين في العادليه-في فارسكور- بحيث وجب على الصليبيين أن يواجهوا في الشمال المدافعين عن دمياط، وفي الجنوب الجيش الأيوبي. وقد تغير الموقف لصالح المسلمين، لذلك بقيت دمياط تدافع عن نفسها مدة تسعة أشهر أخرى ضد جميع المحاولات الصليبية^(٤).

٣- الموقف السلبي للأعراب :

بعد عبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية من أرض دمياط، واستيلائهم على معسكر الكامل الذي غادرته قواته بسبب حركة ابن المشطوب، اجتمعت الأعراب بمختلف قبائلها، والذين جاؤوا من سيناء الشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى العامة التي نجمت عن الغزو الصليبي، فأغاروا على القرى المجاورة لمدينة دمياط ونهبوها، وقطعوا الطرق، ودمروا كل شيء^(٥). وبالغوا في النهب والسلب، حتى كانت أفعالهم ((أضرَّ شيء على أهل دمياط))^(٦).

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٨٠.

(٣) بعد محاصرة دمياط و انقطاع الإتصال بها، ظهر شابٌ فدائي هو علم الدين شمايل، الذي اتصف بالشجاعة، إذ كان يخاطر بنفسه ويذهب إلى دمياط سباحة، رغم تواجد السفن الصليبية قربها، فيدخل المدينة و طَلِّعَ على أحوالها، ويزرع الثقة في نفوس أهلها، مَ ذَكَّرًا أن النجدة قادمة إليهم، كما يأخذ رسائل أهلها ويعود بها سباحةً إلى جيش الكامل. (المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٩٨).

(4) Grousset: Vol.2, op.cit, p.220.

(٥) عاشور: مصر والشام، ص ٧٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٨٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٥.

و مما تجدر الإشارة إليه، أنليس جميع العُربان في المنطقة آنساقوا في هذا التيار، بل كان لبعضهم موقفاً مشرقاً في مقارعة الصليبيين عند غزوهم لمدينة دمياط، ذكر هذه الحقيقة المقريري، ووصف عملياتهم البطولية في حق الصليبيين كل ليلة، حتى أقضوا مضاجعهم، وأظهروا من الشجاعة ما مكنهم من أخذ الخيم بمن فيها من الصليبيين^(١).

٤-النقص في قوات الدفاع عن دمياط وفي المؤن وتفشي الأوبئة:

كان من أسباب سيطرة الصليبيين على معسكر الملك الكامل بعد أن أحكموا الحصار على دمياط من البر والبحر وضربها بالمناجيق^(٢)، أن هذه المدينة كانت حامية صغيرة قياساً بالحشود الصليبية الغازية^(٣)، ولأن القوات المدافعة عن المدينة كانت تفتقر إلى العدد الكافي من المقاتلين^(٤). مما سبب نقصاً في جميع الإمدادات للمدينة بسبب إحكام الحصار عليها، فتعذر على أهلها الحصول على الأقوات^(٥)، التي غلت عندهم^(٦)، مما تسبب في هلاك الكثيرين منهم بالجوع والوباء^(٧). كما أوشكت أوشكت مؤن المدينة على النفاذ تماماً، حتى بقي بعض أهلها بدون طعام، وبلغ الجوع ببعضهم إلى أكل الميتة. وكلما ضاق الأمر بأهل دمياط، اشتدت مضايقة الصليبيين لهم، حتى ساءت أحوالهم تماماً. فأرسل الأمير جمال الدين الكناي قصيدة على لسان أهل دمياط، بعث بها إلى الكامل يصور له حالهم ويستنجد به لتخليصهم، نورد منها:

يا مالكي: دمياط تُغرُّهُ دَمْتُ
شرفاته وكأن تبحُّ أصوله
.....

(١) الخطط، ج ١، ص ٢١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٥٠؛ الغساني: المسجد المسبوك، ص ٣٦٣.

(٣) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٧.

(4) Gabrieli: op.cit, p.258-259.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٥٠؛ مبارك: الخطط التوقيفية، ج ١١، ص ٣٩.

التوقيفية، ج ١١، ص ٣٩.

(٦) و ذكر المقريري عن ذلك أن سعر بيضة الدجاجة وصل عدة دنانير، وأن بقرة ذبحت وبيعت بثمانمائة دينار، والدجاجة بثلاثين ديناراً. (الخطط، ج ١، ص ٢١٧).

(٧) ذكر المقريري أيضاً، أن القبر أصبح يحفر بأربعين مثقالاً، بعد أن امتلأت مساكن المدينة وطرقها بالموتى (الخطط، ج ١، ص ٢١٧).

أشكو إليك عدو سوءٍ أحدثت
فالبر قد منعت إليه طريقه
فخضوعه باد على أبراجه
ولئن قطعت عن القيام بنصره
ودَهَتْ قُوَى القرآن فيه و رفعت
وعلا صدى الناقوس في أرجائه
هذا وَحْمُك وصف صورة حاله
وكفاك يا ابن الأكرمين بأنَّه
قَوْحَاءَ هُ فيك يا من لَمْ يَخِرْ بِ
و اذخر ليوم البعث فعلاً صالحاً

بجميعه، فرسانه و خيوله
والبحر عَوَّلْنَصْرَه أُسطوله
وحنينه و بكأؤه و عويله
جَهَّتْ نضارته و آن ذُبُوله
صُلبانه، وتُلمِي به إنجيله
وخفى على سمع الورى تهليله
حَمَّاءَ، وجملته وذا تفصيله
أضحى عليك من الورى تعويله
أبدأً لراجي جوده تأميله
الله ضامن أجه و كفيله^(١)

وبما أن مدينة دمياط، كانت حصينة جداً، وأن أقوى نقطة في تحصيناتها هو برجها، لذا فقد وجه الصليبيون معظم قوتهم الرئيسية إليه لتدميره^(٢)، وبدأوا الهجوم عليه بسفنهم وبالحرقات وقذائف المنجنيق المتواصلة، التي أعدوها مسبقاً لذلك، بعد أن دفعوا بسفنهم إلى البرج ليقاتلوا من فيه^(٣)، لكنهم لم يستطيعوا يستطيعوا التقرب منه لشدة بأس المقاتلين وصمودهم فيه^(٤). كما أن الملك الكامل كان صابراً على قتالهم محاولاً صدُّهم عن دمياط^(٥). حتى أمر (أوليفر) رئيس كاتدرائية كولومبيا بتصميم آلة حصار من نوع خاص، وكاد المسلمون أن يدمروا تلك الآلة بالنار الإغريقية^(٦). ذكرت ذلك بيرنود (Pernoud) (عن أحد شهود العيان، أن المسلمين استخدموا النار الإغريقية التي كانوا يطلقونها من البرج فتأتي كالفيضان، ناشرةً الرعب بين الصليبيين. لكن الصليبيين سرعان ما تعلموا كيفية حماية أنفسهم ومعداتهم منها. فقاموا بأكساء الآلات والعدد بجلود الحيوانات لمنعها من الاحتراق، كما تعلموا كيفية إطفاء تلك

(١) الحنبلي : شفاء القلوب، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٤-٣١٥.

(٤) الحميري : الروض المعطار، ص ٢٥٧.

(٥) أبو الفداء : المختصر، ج ٦، ص ١٣ ؛ ابن كثير : البداية، ج ١٣، ص ٧٩٢ ؛ النعمي : الدارس، ج ٢، ص ٢٠٥.

الدارس، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٦) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٥.

النيران . ليس بالماء . ولكن بالخَلِّ والرمل، وهي وسائل استخدمها العرب قبلهم بوقتٍ طويل^(١) . ولم تتوقف محاولات الصليبيين في الاستيلاء على البرج، على الرغم من تدمير آلاتهم وأسلحتهم^(٢) .

بيد أن الصليبيين بعد محاولات كثيرة دامت لأربعة أشهر^(٣)، نجحوا في السيطرة على البرج، عندما عملوا ؛ رجاً من الصواري على سُفنٍ كبيرة أسماها المقريزي : ((بطسةٌ كبيرة استعملوا فيها سلا لم طويلة، فأقلعوا بها حتى أسندوها إلى البرج، وقتلوا من به حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه))^(٤) . فدخلوا عليه^(٤) . فدخلوا الطابق العلوي للبرج، وقتلوا جميع من وجدوه فيه، أما من كان في الطابق الأوسط فقد تمكنوا من أسرهم^(٥) . بعد ذلك قطع الصليبيون السلاسل الحديدية التي كانت تغلق مدخل النيل، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)^(٦) .

وبعد أن تمكن الصليبيون من السيطرة على البرج وقطع السلاسل، نَصَبَ الكامل . عوضاً عن السلاسل . جسراً كبيراً لمنع الصليبيين من عبور النيل، وقاتل الجيش الإسلامي عليه قتالاً باسلاً^(٧)، وكان الملك الكامل يتردد بين العادلة^(٨) ودمياط لتدبير أمور الحرب والإشراف بنفسه على القتال، لكن ذلك لم يمنع الصليبيين من قطع الجسر^(٩) .

و قد أخذ الملك الكامل عدداً من السفن الكبيرة فملأها بالحجارة، ثم حرقها فغرقت في النيل فمنعت السفن الصليبية من التقدم^(١٠) . وبذلك تمكن الملك الكامل من الاستمرار بفرض سيطرته

(1) The Crusaders , op.cit , p.162 – 163.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦١ .

(٣) الحميري : الروض المعطار، ص ٢٥٧ .

(٤) الخطط، ج ١، ص ٢١٦ .

(5) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p257.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٥ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٩٣ ؛ أبو شامة : الدليل على الروضتين، ١٠٩ .

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٥ ؛ ابن الفرات : تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٤٧ .

(٨) العادلة: مدينة أسسها الملك العادل سنة (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)، عند غزو الصليبيين وتهديدهم لمدينة

دمياط. (ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٠ ؛ ابن خلدون : العبر، مج ٥، ص ٣٤٤) .

(٩) المقريزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٦ .

(١٠) الذهبي : تأريخ الإسلام، ص ٢٤ ؛ الحميري : الروض المعطار، ٢٥٧ .

على مجرى النيل. إلا أنه شعر بخطورة الموقف، فأرسل سبعين رسولا لجميع أنحاء العالم الإسلامي، يطلب النجدة منهم، ويستحثهم على المساعدة، ويخوفهم من تغلب الصليبيين على مصر^(١).

وبفضل الإجراءات المتقدمة لم يتمكن الصليبيون من دخول دمياط^(٢)، فقصدوا خليجا يسمى الأزرق، كان النيل يجري فيه قديماً في أوقات الفيضانات، وقاموا بحفره وعمقه باتجاه معاكس لمسار السفن الغارقة، وأوصلوا النهر عبر هذه القناة إلى البحر، وأرسلوا سفنهم باتجاه هذا الطريق إلى بورة^(٣) وإلى منطقة الجيزة المقابلة للمكان الذي يُخيم فيه الملك الكامل لمهاجمته من هناك. إذ لم يكن لهم سبيل لمواجهة مقر قيادته بسبب أن مدينة دمياط كانت تحجز بينهم وبينه^(٤). وحينما وصل الصليبيون بورة، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع قوات الملك الكامل، وبدأوا بمهاجمتها عبر النهر، لكن هجماتهم المتكررة لم تحقق أي نجاح^(٥). أما أهل دمياط، فإنهم رغم إحاطة الصليبيين بالمدينة، لكنهم قاتلوا بشرف وبضراوة دفاعاً عن مدينتهم^(٦).

و بعد حصار مستمر لمدينة دمياط دام أكثر من ستة عشر شهراً^(٧)، أبدى خلاله المسلمون من أهل المدينة وحاميتها ومن انضم إليهم من المجاهدين قوة وشجاعة لا نظير لها في الصبر والصمود، إلا أن ما سبق ذكره من عوامل كان لها فعلها المؤثر على حامية دمياط ومقاومتهم فاضعاً أهلها عن حفظها، بعد أن عظم عليهم القتال واشتد بؤسهم في القتال والجرح^(٨). وفي نهاية تشرين أول من سنة

(١) غوانمة: أمانة الكرك الأيوبية، ص ١٩٥.

(٢) وذكر الحميري في كتابه الروض المعطار صفحة ٢٥٧، أن الصليبيين تمكنوا في هذه المرحلة من أخذ دمياط. وهو قول لا سند له، وكما سنرى من خلال الأحداث اللاحقة.

(٣) بورة: من المدن المصرية القديمة على فرع النيل الشرقي بين دمياط وفارسكور. (البكري: جغرافية مصر، ص ٦٧).

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٦؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٤.

(5) Gabrieli :op.cit,p.257.

(٦) مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١١، ص ٣٩؛ الشيال، جمال الدين: دراسات في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة (بيروت / ١٩٦٤ م)، ص ٧٦.

(٧) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٨٨.

(٦١٦هـ/١٢١٩م) بعث الملك الكامل خمسمائة مقاتل، من خيرة المقاتلين المماليك وحاول إدخالهم إلى الحامية مع مؤنهم، لكنهم أخذوا على حين غرة، فأُسر البعض وقُتل البعض منهم وُفنت جثثهم في خندق المدينة^(١). مما جعل الكامل عاجزاً عن نصرتهم، حتى اضطر إلى عرض الصلح على الصليبيين، فقد تعهد بموجبه تسليم القدس وإعادة صليب الصلبوت الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه عند فتحه لبيت المقدس مقابل انسحابهم من المدينة، إلا أن ممثل البابا (بيلاجيوس) رفض هذا العرض^(٢). فاضطر المسلمون إلى مراسلة الأعداء، وأعلنوا موافقتهم على تسليم دمياط على شرط أن يخرجوا منها بأهلهم وأموالهم بأمان، (و اجتمع الأقبياء وحلفائهم على ذلك)^(٣).

ولم تمضِ إلا أياماً قليلاً حتى ورد إلى الصليبيين نبأ من رجال استخبارات (بيلاجيوس)، مفاده أن السور الخارجي لمدينة دمياط خالٍ من الحراسة. فاستغله الصليبيون وزحفوا يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان، الموافق الثالث عشر من تشرين الثاني من ذلك العام، وتسَلَّقوا السور الخارجي، ثم إلى السور الداخلي للمدينة بدون مقاومة^(٤). وفي رواية أخرى أن أهل دمياط بعد أن عجزوا عن المقاومة، فتحتوا أبواب المدينة، ورغوا أعلاماً على السور و سَلَّموا المدينة بالأمان^(٥)، فقابل الحفاظ على حياتهم، بعد حصار دام ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً^(٦). بيد أن الصليبيين غدروا بأهلها، ووضعوا السيف في الرقاب، وغالوا في القتل والأسر^(٧). حتى انتقد المؤرخ الغربي (Grousset) هذا التصرف من الجانب الصليبي، مشيراً إلى أن ذلك لا ينبغي أن يكون خاصة وأن المدينة أخذت بالأمان والاستسلام^(٨). كما أقر مؤرخ غربي آخر بهذه الحقيقة، موضحاً شدة وطأة الهجوم الصليبي على أهل دمياط، بحيث أن من بقي حياً من تلك الحامية المنهكة تم ذبحه بلا رحمة^(٩). وأكد زابوروف هذه المذبحة وقال : ((من أصل

(1)Grousset:Vol.2.op.cit,p.227.

(٢) سبط ابن الجوزي:مرآة، ج٨، ق١، ص٦٠٣؛ الحنبلي : شفاء القلوب، ص٣٠٤.

(٣) زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص٢٩٧.

(٤) رنسيومان: تأريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٨٧-٢٨٨.

(٥) سبط ابن الجوزي:مرآة، ج٨، ق١، ص٦٠٣؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص٢٨.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج١، ص٢١٧.

(٧) المقرئزي: الخطط، ج١، ص٢١٧؛ السيوطي: تأريخ الخلفاء، ص٤٥٦.

(8)Histoire des croisades ,V.2.op.cit,p.229.

(9)Poole:A history of Egypt,op.cit,p.222.

٨٠٠٠ مقاتل مسلم في دمياط لم يَسَلِّمْ منهم سوى ٣٠٠٠ فقط^(١). وقد غادرها معظم أهلها، ولم يبق فيها سوى مَن لم يكن قادراً على الحركة. وهكذا تشتَّت سكان هذه المدينة^(٢)، وتفرقوا في البلاد البلاد مثلما وصفهم ابن الأثير: ((أيدي سبا))^(٣).

أما عن أفعال الصليبيين في المدينة وبأهلها بعد احتلالها، فمن ذلك اعتداءهم على نساء المسلمين^(٤)، ونشروا سراياهم في القرى المحاذية للمدينة فقتلوا ونهبوا^(٥)، وأخذوا منبر الجامع والمصاحف الموجودة فيه ورؤوس القتلى من المسلمين، وبعثوا بها إلى بلدانهم كدلالة على انتصارهم في الحرب. كما حوَّلوا المسجد الجامع فيها إلى كنيسة^(٦)، وأطلقوا عليها اسم (كاتدرائية العذراء)^(٧). أما أطفال المسلمين فسلَّحوا إلى رجال الدين المسيحيين لتنصيرهم، واعدادهم لخدمة الكنيسة^(٨)، وأمطن بـ بَقِيَّ حَيًّا من السكان فبيع رقيقاً. كما وزعوا الغنائم بين الصليبيين وفقاً لمكانة كلٍّ منهم ورتبته. كمل تَنْجُ الأموال والتحف الثمينة من السرقة^(٩). من جهة أخرى باشر الصليبيون في تحصين أسوار دمياط، وشرع جيشهم جيشهم ببناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق في منزلة المنصورة^(١٠)، ظناً منهم أنها ستكون موطنهم الأبدي. وما أن سمع الصليبيون في بلدانهم بهذا النبأ حتى أقبلوا نحو دمياط و((أصبحت دار هجرتهم))

(١) الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٧.

(2) Gabrieli: Arab historians of The Crusades, op.cit, p.259.

(٣) الكامل، ج ٩، ص ٣١٦. وعبارة: ((أيدي سبا))، التي ذكرها البلايثير في حق أهل دمياط، هي مثل "سائد" يراد به به تفرق القوم وتشتت شملهم، كمثل قوم سبا اللذين مزقهم الله تعالى في البلاد كُلاً ممزق، فصاروا مثلاً لمن يتمزقون. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٤٢٦).

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٠٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٠٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٩؛ البكر، راغب حامد: (الأسرى الأسرى المسلمون في الحروب الصليبية)، مجلة آداب الرفادين، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع ٥، ١٩٩٣ م، ص ٢٥٣.

(٧) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٨) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٩.

(٩) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٨٦.

(١٠) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(١) فتكاثر جمعهم من كل فج (٢). بيد أنه على الرغم من خسارة المسلمين لمدينة دمياط، إلا أن الصليبيين دفعوا ثمناً غالياً لاحتلالها (٣)، بسبب طول فترة الصمود والمقاومة قبل دخولها، والتي امتدت منذ بداية الحصار في نهاية شهر صفر، الموافق حزيران سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) لغاية تأريخ احتلالها في السابع والعشرين من شعبان الموافق الثامن عشر من تشرين الثاني سنة (٦١٦ هـ / ١٢١٩ م).
 نظراً لأهمية مدينة دمياط السياسية والعسكرية والاقتصادية، فقد تنافس الغزاة على ملكيتها، وكانت المنافسة حادة بين الملك (جون دي برين) وممثل البابا (بيلاجيوس). حتى تركت المسألة معلقة بانتظار تحكيم البابا في ذلك، إذ تم التوفيق والمصالحة بين المتخاصمين في بداية شباط من سنة (٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م)، وقاموا -بالمناسبة- بالطواف حول الجامع المحوّل إلى كنيسة (٤). ورغم الصلح الظاهر بين (بيلاجيوس) و(جون دي برين)، إلا أن الأول كان يتدخل في الشؤون العسكرية ويتصرف كقائد مطلق، دون أن يكثر بالقانون الكنسي، الذي يجعل القيادة الروحية لممثل البابا والقيادة العسكرية للملك، متجھلاً بذلك حقوق الثاني في قيادة القوات الصليبية (٥). كما بدأ يضغط على الصليبيين ويمنعهم من المتاجرة بالسفن عند رسوها في الميناء، ويمنع المسيحيين من مغادرة دمياط إلا بترخيص منه، وهددهم بالحرمان الكنسي إذا خالفوا تعليماته. كذلك استبعد المسيحيين القاطنين أصلاً في دمياط من مشاركتهم في إدارة شؤون المدينة، وبقيت القوات الصليبية في دمياط من تموز سنة (٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) في حالة جمود، لغاية حزيران من سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م) عُدّ مذرهم الوحيد هو أنهم كانوا بانتظار مجيء الإمبراطور (فريدريك الثاني) من أجل غزو جميع الأراضي المصرية (٦).

ثانياً . الموقف الإسلامي

أ. التهيئة السياسية والعسكرية قبل احتلال دمياط:

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٧؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٢٥٠.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٥٧.

(3) Pernoud: op.cit, p.220.

(4) Grousset: Vol.2. op.cit, p.230-236.

(٥) ماير: تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٦.

(6) Grousset: Vol.2. op.cit, p.236.

بعد أن علم الملك العادل بخبر تجمع الصليبيين في عكا عندما كان في حينها بمصر، سار منها إلى الشام ووصل إلى القلعة ومنها إلى اللد، ثم توجه إلى نابلس، ومنها إلى بيسان. وغرضه من ذلك أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم^(١). إلا أن هذا الإجراء لم يُجد نفعاً، أمام القوات الصليبية التي تحركت من عكا ونزلت في جيزة دمياط. فأمر الملك العادل من جانبه باتخاذ جُملَةً من الإجراءات العسكرية والسياسية منها: أنه أمر ولده الملك الكامل أن ينزل بعسكره في منطقة العادلية، وباشر ببناء مدينة جديدة سَمَّاها (المنصورة)، فَحَصَّنَهَا بِسُورٍ وَنَزَلَهَا الْكَامِلُ بِجَيْشِهِ^(٢)، فأصبحت مدينة عسكرية. وبذلك تمكن من تحويل الطريق المؤدي إلى القاهرة مباشرة، وكان هدفه من ذلك منع القوات الصليبية من عبور النيل، لأنهم إن استطاعوا ذلك، تمكنوا من محاصرة دمياط من جهة البر أيضاً^(٣). وأرسل الملك العادل ما معه من القوات المصرية التي كانت موجودةً بالشام إلى الملك الكامل شيئاً فشيئاً، حتى لم يبقَ عنده منها إلا القليل^(٤).

كذلك أمر الملك العادل ولده الأشرف بالاتجاه إلى حمص، لأشغال الصليبيين في بلاد الشام ومنعهم من إرسال الإمدادات إلى دمياط. فدخل الأشرف بجيشه إلى صافيتا وخرَّب أرضها ونهب أموالها، وهَدَمَ ما حولها من حُصُون. ثم دخل حصن الأكراد^(٥)، وحاصره ونهب أموال القلعة، و الملك العادل لم يزل في مدينة عالقين^(٦). أما الأجراء الثالث للملك العادل، فقد تمثل بإصدار أوامره إلى الملك المعظم عيسى للقيام بأعمال مماثلة في بلاد الشام، فأمثل لذلك وقام بعمليات ناجحة في فلسطين، ولم يبقَ لعكا وصور سوى مناطق قليلة. ثم التقى الملك المعظم

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩ ص ٣١٤؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) السيوطي، عبدالرحمن محمد بن أبي بكر: تأريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، (مصر ١٩٥٢م)، ص ٤٥٦؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٩.

(٣) ماير: تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٠.

(٤) ابن الفرات: تأريخ ابن فرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٣٠.

(٥) حصن الأكراد: حصن منيع يقع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب. تحميهِ الأبراج وتحوطه الخنادق، وله سوران يحيطان به. استولى عليه الأستبارية سنة (٥٠٧هـ/ ١١١٠م)، واستعاده الظاهر بيبرس سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٧١م). (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٥٩).

عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٩٦).

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٨٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٥.

بالصليبيين في منطقة القيمون^(١)، ودارت بينهما معركة شرسة، انتصر فيها المعظم وقتل عدداً كبيراً منهم. كما أسر من الداوية مائة فارس وأدخلهم مدينة القدس مُنْكَسَةً أعلامهم^(٢).

أما الملك الكامل، وهو المسؤول عن دمياط وحاكم مصر، فكان قد عسكر في العادلية، وقام بأرسال قوافل مستمرة من المؤن والجنود إلى دمياط. والتي كانت بالفعل متصلةً من عنده إلى دمياط، لكي يمنع قوات العدو من العبور إلى أرضها^(٣)، ولمنعها من الوصول إلى سور المدينة في الوقت الذي كان القتال فيه مستمراً مع الصليبيين^(٤). بيد أنه بسبب الضيق الذي واجهه واجهه الملك الكامل وجيشه في حصار دمياط، فإنه بعث أخاه المعظم إلى أخيه الأشرف يستنجد به، وكان آنذاك في مدينة حرّان، وبناءً على طلبه قام الملك المعظم بتخريب مدينتي القدس وكوكب حتى لا ينتفع بهما الصليبيون^(٥)، أو يفكروا في الانتفاع بها إن حصلت لهم.

كما أسهم الشعراء في استنهاض همم الملوك، ودعوتهم للتوجه إلى مصر لنجدة الملك الكامل الذي ترك دمياط ليتصدى للصليبيين الذين حاصروا المدينة. ومنهم الشاعر ابن فنينير الموصللي، الذي كتب قصيدة بالمناسبة جاء فيها :

فَقُلْ لِمُلُوكِ الْخَافِقِينَ إِلَيْكُمْ عَنْ الْمَلِكِ أَوْ شُدُّوا عَنِ الْأَمْرِ مَا شَدُّوا

إِلَامَ التَّمَادِي وَالْفَرَنْجِ بِجَمْعِهِمْ عَلَى جَيْدِ دِمِيَاطٍ كَمَا آتَنْظُمُ الْعَقْدُ^(٦)

و أما أهل دمياط الذين فاجأهم الخبر بحصار القوات الصليبية لمدينتهم، فقد انشغل من انشغل بالدعاء، وبأادر من استطاع الجهاد إلى الجهاد^(٧)، وأعدّوا أنفسهم لحصار طويل الأمد، فقاموا الأمد، فقاموا بتخزين المؤن اللازمة، وسارعوا إلى إخبار الملك الكامل في مقره بالقاهرة، وقرروا الصمود

(١) القيمون: حصن قرب الرملة بفلسطين. (أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٠٩).

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٥٩٣؛ النعمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٠؛ ابن الفرات: تأريخ ابن الفرات، مج ٥، ج ١، ص ٢٣٠.

(٤) أبو الفداء: المختصر، ج ٦، ص ١٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٧٩٢؛ النعمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥) ابن شداد، عز الدين محمد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق، سامي الدهان، المعهد، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق / ١٩٦٢ م)، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٣.

(٦) القيسي، نوري حمودي: (شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الأيوبي)، مجلة المورد، مج ١٦، ع ٤، بغداد ١٩٨٧ م، ص ١٤٠.

(٧) ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة: بغية الطلب في تأريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت / ١٩٨٨)، ج ٤، ص ١٨٨.

دفعاً عن دمياط وعدم تسليمها إلى الغزاة^(١). كما اهتموا بحراسة البرجين بقوة قَدَرها (Grousset) بثلاثمائة مقاتل^(٢)، لكن وبسبب الظروف الصعبة لأهل المدينة كما أسلفنا فقد تمكن الصليبيون من دخولها واحتلالها .

ب. التهيئة السياسية والعسكرية بعد احتلال دمياط :

لا بد لنا أن نذكر بأن النصر الذي حَقَّقَهُ الصليبيون باحتلال دمياط لم يكن أبدياً كما ظنَّوه في البداية، إذ ليس ذلك من سُنن التاريخ، ولا من سنن الحياة. فقد تصور الصليبيون . بعد احتلالهم لمدينة دمياط و استقرارهم فيها . أن هدفهم قد تحقق في احتلال مصر ، فطمعوا في البلاد المصرية كلها^(٣). ففي الأيام الأخيرة من شهر حزيران سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م)، اتخذ ممثل البابا (بيلاجيوس) قراراً بغزو القاهرة، وهدد المعارضين لهذه الفكرة بالحرمان الكنسي. وحاول الملك (جون دي برين) أن ينصحه بالرجوع عن قراره ولكن بدون جدوى، وبالتالي رضخ لفكرة ممثل البابا بعد أن شعر أن إصراره على رفض الفكرة سيجلب له المشاكل. فوافق على الانضمام لفكرة (بيلاجيوس) على الرغم من عدم قناعته بها^(٤). وفي الوقت نفسه فأَن الصليبيين تبادوا في غيَّهم وغرورهم، حتى وصل بهم الأمر أنهم أرسلوا أحد قَسَّيسِيهم إلى الملك الكامل يدعوه إلى دين النصرانية^(٥)، مما أثار حفيظة الملك الكامل وغيَّره على دينه، فعزم على الجهاد ضد الصليبيين. ولغرض التهيئة السياسية و العسكرية لذلك باشر في الدعوة للانضمام إليه في آذار من سنة (٦١٦ هـ / ١٢١٩ م)^(٦)، وكان أول من استجاب لهذه الدعوة صاحب حماة الملك المنصور المنصور محمد ابن عمرو ابن شاهنشاه ابن أيوب، إذ جَهَّز ابنه المظفر تقي الدين محمود إلى مصر لنجدة خاله الملك الكامل^(٧). كما استجاب لنداء الكامل بالجهاد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م . ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)، وعَمَّم كُتُباً إلى الديار الإسلامية يأمرهم فيها

(١) غنيم :الدولة الأيوبية والصليبيون، ص٧٤.

(2) Histoire des Croisades , Vol.2 ,op.cit,p211.

(٣) الحنبلي :شفاء القلوب، ص٣٠٥.

(4) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.237.

(٥) يُذَكَّرُ أَنَّ من تولى هذه المهمة هو القديس فرانسيس الأسيزي المقيم في المعسكر الصليبي أثناء الحملة.

(Pernoud :op.cit,p.220)

(٦) ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٩ ؛ ماير :تأريخ الحروب الصليبية، ص٣١٧.

(٧) المقرئزي :الخطط، ج١، ص٢١٧.

بالجهاد^(١)، ويستحث الناس فيها إلى الحضور لمنع الصليبيين من دخول مصر واحتلالها^(٢). كما وعد الخليفة العباسي بأرسال جيش لنجدة الكامل، لكن ذلك لم يتحقق^(٣). لأن الخلافة العباسية كانت ضعيفة هي الأخرى في هذه الفترة^(٤)، ولأن خطر المغول بدأ يُلْقَى أبوابها. فقد ذُكر أن الملك الملك الأشرف تلقى - في آن واحد - طلباً بالعون من الخليفة الناصر ضد المغول، وكذلك من أخيه الكامل ضد الصليبيين، وقرَّر إجابة طلب الكامل^(٥). لكن يبدو أن الأشرف تأخر في إرسال قواته، فتابع الملك الكامل مراسلة أخويه الأشرف والمُعظم، يستنجد بهما ويحثهما على الحضور إليه في الحال، وإن لم يتمكن من ذلك فعليهما أن لا يبخلا بأرسال العساكر إليه^(٦). ومما جاء في رسالته: ((رسالته: ((الوفا، الوفا، العجل، العجل، أدركوا المسلمين قبل تَهْلُك الفرنج جميع أرض مصر^(٧))) وبعث للأشرف أبياتاً شعرية في رسالته ومن نظمه، يستنجد به فيها على الصليبيين^(٨). كذلك طلب من المعظم بدمشق أن يُخْرِض الناس ويحثهم على الجهاد، وكان المعظم حريصاً على تحرير دمياط ووفياً للكامل^(٩).

- (١) المنصوري، أبي الفضائل، محمد بن علي بن نظيف: التأريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، (دمشق / ١٩٨١ م)، ج ١، ص ٨٠.
- (٢) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.
- (٣) ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٩٠؛ رنسيان: تأريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٨١.
- (٤) في سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) ظهر خطر المغول في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، عندما استولى جنكيزخان على خوارزم وبلاد ما وراء النهرين ومعظم بلاد فارس وكان ذلك سبباً مهماً حال دون إمكان وفاء الخليفة الناصر بوعده في إرسال قوات لنجدة الملك الكامل. (عاشور: مصر والشام، ص ٨٠، ٧٩).
- (٥) ابن كثير: البداية، ج ٣، ص ٩٠؛ زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٧.
- (٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٧؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٢٥.
- (٧) ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٨٠.
- (٨) ومما جاء في مطلع تلك القصيدة:

يا مَسْعُفِي، إن كنت حقاً مسعفي فلحل بغير تَلَبُّثٍ وتَوَقُّفٍ
وَلَبَّثْتُ قُلُوبَكَ مَرْقِلاً أَوْ هَوَّجاً بتجشّم في سيرها وتعسّف
وظلّ المنازل والديار ولا تُنَخِّ إلا على باب الملك الأشرف

(الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٠٣، ٣٠٤؛ رشيد، ناظم: (الآداب عند بني أيوب)، مجلة المورد، ع ٣، مج ٥،

١٩٧٦ م، ص ٣٩).

(٩) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦١٩.

وفي سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م)، توجه المعظم إلى أخيه الأشرف واجتمعا في منطقة حَرَّان^(١)، وبعد التشاور وتدارس الأمر مابين التشويش على الصليبيين في بلاد الشام أو التوجه نحو مصر، تلتقا أخيراً على التوجه نحو دمياط لنجدة الكامل فسارا بجيوشهما نحوها غيرة جمادي الآخرة من تلك السنة^(٢). وفي رواية أخرى أن الأشرف سار بجيشه إلى مصر^(٣). ولما سمع الملك الكامل بقدمه استبشر خيراً وخرج إليه مستقبلاً ومرحباً. أما ابن الأثير فذكر أن الملك المعظم قد سار إلى مصر قاصداً دمياط ظناً منه أن أخويه الكامل والأشرف قد نزلوها، فسابقهم إليها في خطة رسمها في ذهنه، وهي الأحاطة بالصليبيين في دمياط، بأن يلقاهم هو و جيشه من الأمام، وأخويه من الخلف^(٤). ومهما تكن صحة هذه الرواية أو تلك، لكن المهم فيها أنها تجمع على على اتفاق الأخوة على التوجه إلى دمياط، بعد أن جمعا العساكر لنصرة الكامل وإنقاذ دمياط وتحريرها^(٥). وبذلك يمكننا القول أن وحدة البيت الأيوبي عادت من جديد عند المحن والشدائد .

ولم يقتصر الحضور عند الملك الكامل على الأشقاء و جيوشهم فقط، بل لقي دعوة الجهاد و لجمع عنده نحواً من عشرين ملكاً من ملوك الإسلام^(٦)، منهم أرسالان صاحب قلعة جعبر، والملك، والملك المجاهد صاحب حمص، وغيرهم من الملوك وأكابر الأمراء إذ توجهوا جميعاً إلى دمياط^(٧). أما عدد المقاتلين الذين اجتمعوا لديه فهم زهاء أربعين ألف مقاتل^(٨). وبذلك لم يعد ما تحقق تحقق وحدة البيت الأيوبي فحسب، بل تحققت باجتماع الملوك و جيوشهم وحدة الجيوش الإسلامية كذلك ، على الرغم من أنها كانت متأخرة في وصولها خاصة بعد حصار الصليبيين لمدينة دمياط و احتلالها .

و على الرغم من أن القوات الإسلامية ما فتت تتوافد على الملك الكامل، فأن الرسل بين الفريقين الإسلامي والصليبي مستمرة من أجل تسوية الموقف، لأن الكامل شعر بخطورة الوضع

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦١٨.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠ ؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٨ . ١٢٩.

(٣) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٧ .

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٥٥.

(٦) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٥٧.

(٧) المنصوري: تاريخ المنصوري، ج ١، ص ٩٢.

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٧٩.

فعرض مقترحاته بالتنازل عن بيت المقدس و عسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين من سواحل الشام . ملعدا الكرك والشوبك . على أن يُسلموه مدينة دمياط نظراً لأهميتها لأمن مصر^(١). و تعهد إليهم الكامل بدفع مبلغاً قدره ثلاثمائة ألف دينار مقابل ما حُرِّب من سور القدس^(٢). كما تضمن العرض كذلك إطلاق سراح أسراهم وإعادة الصليب الذهبي المسمى صليب الصليبوت حيث كان من غنائم صلاح الدين عند تحريره القدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م). ولكن ممثل البابا رفض ذلك العرض وبشدة^(٣)، معتبراً عودة القدس بهذه الطريقة عاراً عليهم، وأنها لا بد أن تعود بحمد السيف^(٤). ووصف بول (Lane-Poole) رفض (بيلاجيوس) للصلح أنه كان بسبب الغرور والمصالح لأن الغيرة على العقيدة تحوّلت لديهم إلى أطماع دنيوية، ولم يعد يفكرون بالقدس كما أعلنوا في حملتهم^(٥). غير أن الملك الفرنسي (فيليب الثاني أوغست)، الذي كان يتميز بسلامة التفكير، رأى أن عرض الملك الكامل للصلح كان سخياً، حتى قال عنه، هو: ((مملكة مقابل مدينة))، لذلك لم يتمالك أعصابه عند سماعه بخبر الرفض، حتى وصف الصليبيين بالأغبياء والسذج^(٦). كما وصف (بيلاجيوس) لرفضه عرض الملك الكامل بالقساوي والمتعرج والوقح والسفيه، لأنه أفضل برنامج البابا بتفضيله تملك الدلتا على إعادة الأرض المقدسة^(٧). وجدير بالذكر أن الملك (جون دي برين) كان من المؤيدين لقبول

(١) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٣١٧-٣١٨ ؛ ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٢٢٣. والسبب في استثناء المسلمين للكرك والشوبك الواقعة شرق الأردن، أن الأيوبيين لا يمكنهم الاستغناء عنها، فهي بمثابة الجسر الواصل بين الشام ومصر. (ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٢٢).

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٣٩٠. وفي رواية أخرى أن الصليبيين هم من طلب مبلغ ثلاثمائة ألف دينار لأعمار القدس، فلم يتم الأمر، ورفض الصلح. (الحميري : الروض المعطار، ص٢٥٧).

(٣) ديفر، هـ.و. : أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة، عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، الإسكندرية/لا.ت)، ص٢٠٤. ٢٠٥ ؛ ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص٣١٨.

(٤) شاكر : التاريخ الإسلامي، ج٥، ص٣٢٠ ؛ غنيم : الدولة الأيوبية والصليبيون، ص٨٠.

(5) A History of Egypt , op.cit , p 224.

(٦) زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص٩٩٨.

(7) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p .223.

لقبول الصلح^(١)، لكن (بيلاجيوس) استطاع أن يكسب إلى جانبه رؤساء الهيئات الدينية والتجار الإيطاليين، فرجحت كفة الرفض على الكفة المطالبة بقبول عرض الملك الكامل^(٢)، فجرت الحرب .

ثالثاً . سير المعركة

لقد كان واضحاً مما سبق، أن هدف الحملة الصليبية لم يكن تحرير بيت المقدس، كما لم يكن احتلال مدينة دمياط وحدها، بل هو أكبر من ذلك بكثير، وهو احتلال كامل الديار المصرية. لذلك مرّت هذه المعركة بمرحلتين: الأولى . تمثل الإجراءات العسكرية للقوات الصليبية، والثانية . تمثل إجراءات القوات الإسلامية ودورها في رد الصليبيين .

ففي الجانب الصليبي، برز اتجاهان على الساحة الصليبية كما أسلفنا، الأول يدعو للتوجه نحو الإسكندرية ومحاصرتها ثم احتلالها،^٣ سَوَّغَ لهذا الرأي هو سهولة احتلال الإسكندرية فضلاً عن كونها أكبر مُمُولٍ لإعاشة وتموين الجيش الصليبي بما تتمتاز به من خيرات. أما الاتجاه الثاني والذي كان أقل رجاحةً فإنه يُدعو للتوجه نحو القاهرة باعتبارها مركز وعاصمة البلاد المصرية^(٣). ولكن على الرغم من أن الملك (جون دي برين)، كان قد حاول إقناع (بيلاجيوس) أن الاتجاه نحو القاهرة يُعدُّ مجازفةً، وأنه يجب إعادة النظر في القرار المتخذ بالهجوم، إلا أنه لم ينجح في ذلك. فقد ذكر زابوروف أن الملك (جون دي برين) لو لم يوافق على مواصلة الهجوم نحو القاهرة، ((لكان الفرنج قتلوه))^(٤).

ولذلك كان الهدف قد تحدّد بالاتجاه نحو القاهرة، فانطلقت القوات الصليبية من مدينة دمياط في أواسط تموز من سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م)، وعلى طول الضفة الشرقية لنهر النيل نحو فارسكور لأجل احتلال القاهرة وكل بلاد مصر^(٥). إذ تمثّل طمع الصليبيين باحتلال المنصورة

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص ١٠٨.

(٢) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣١٨ . ٣١٩ .

(3) Pernoud : op.cit, p.257.

(٤) الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٩ .

(٥) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢؛ رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٩٧ .

بداية^(١)، و نزلوا في الجهة المقابلة لها وبينهما خليج من النيل يُسمى بحر أشمون^(٢). وقد أشار المقرئ وبشكل مبالغ فيه إلى أن الجيش الصليبي أكمل استعداداته وتحركاته باتجاه بحر أشمون خلال أسبوع، وكان محدود مائتي ألف راجل وعشرة آلاف فارس^(٣). وهناك من حدد الجيش الصليبي بأربعة آلاف رام للنبال والسهم، وألف ومائتي فارس، وعدد كبير من المشاة^(٤). بينما ذكر آخر أن جيش (بيلاجيوس) كان في حالة تعبئة للقتال، فحشد خمسة آلاف فارس، وأربعة آلاف رام للسهم، وأربعين ألف راجل، ترافقهم ستمائة وثلاثون سفينة مختلفة الأحجام، كما ترك في دمياط حامية ضخمة لحمايتها^(٥). ومهما اختلفت الروايات في بيان عدد المقاتلين في الجيش الصليبي، فإن العدد كان كبيراً لهذه المهمة. من جهة أخرى فإن (بيلاجيوس) وبقصد تطمين جيشه، أكد لهم أنه سوف يستولي على مخازن المسلمين التموينية، وذلك لأنه لم يجلب معه سوى كمية قليلة من مواد التموين. فأسرع المقاتلون الصليبيون باتجاه القلعة الجديدة في المنصورة، التي أنشأها الملك الكامل من الجهة الأخرى للنهر، لتأمين الطريق المؤدي إلى القاهرة^(٦).

أما عن اجراءات الجانب الإسلامي، فقد كان الملك الكامل يراقب تحركات الجيش الصليبي عن كثب، ورصد وصوله إلى هذه المنطقة المهمة، فحاولت قواته إعاقة تقدم القوات الصليبية خلال حركتها بهجمات متكررة. إلا أن القوات الصليبية تمكنت من التمرکز فُباله الجيش الإسلامي في الرابع و العشرين من تموز من السنة ذاتها، وذلك في المثلث الذي يتشكل من التقاء بحر أشمون مع الفرع الآخر من نهر النيل الذي يعبر دمياط^(٧). وأخذت القوات الصليبية تقذف القوات الإسلامية بالمنجنيقات^(٨) والجروح^(٩)، حتى أيقنوا أنهم سيملكون الديار المصرية لا محالة^(١٠). مما جعل قوات الكامل في وضع صعب، ولم يبق أمامها سوى القتال، فأمر

(١) علي: خطط الشام، ج ٢، ص ٣١٧؛ وينظر الخارطة في الملحق رقم (٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٦.

stevenson : op.Cit, p.306.

(٣) الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(4) Stevenson : op.Cit, p.306.

(5) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.239.

(6) Stevenson : op.Cit, p.306.

(٧) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٨) المنجنيق: و جمعها منجنيقات و مجانيق، وهي آلة حربية لرمي الحجارة أول الأمر، ثم تنوعت أشكالها أشكالها وصارت تستخدم لرمي قوارير النفط والمواد الحارقة. وتصنع في الغالب من الخشب و مواد أخرى، وتستخدم لأغراض الدفاع والهجوم (الجبوري؛ محمود عباد محمد: أسلحة الحصار عند العرب

الكامل حينئذٍ باتخاذ عدد من الإجراءات العسكرية لوقف تقدم الزحف الصليبي إلى القاهرة، ومن أهم هذه الإجراءات :

أ. تقدم القوات الإسلامية، وتشكيل جبهة عسكرية، وإعلان النفير العام :

بعد أن تقدمت القوات الصليبية وخاصةً بعد أن أصبحت في الجهة المقابلة لقوات الملك الكامل أمر قواته بالتقدم إلى خليج من النيل يُسمى بحر المحلة، وقاتلت القوات الصليبية من مسافة قريبة. ثم تقدمت شوانيا المسلمون في النيل وعدُّها مائة قطعة^(٣)، وتقاتلت مع شواني الصليبيين في معركة بحرية، واستطاعت من السيطرة على ثلاثٍ منها ومن فيها من الرجال وما عليها من المال والسلاح. فكانت فاتحة خير آتت بشراً بها المسلمون وقويت معنوياتهم^(٤).

وفي الوقت الذي أعلن فيه الكامل النفير العام، إستجاب المجاهدين له من شتى نواحي مصر، وتجمعوا في شرق الدلتا، إذ اجتمع الناس من أسوان إلى القاهرة وسائر نواحي المعمورة في مصر، كذلك سارت عساكر المسلمين من بلاد الشرق والشام إلى الديار المصرية، فاجتمع كما وصف المقرئزي: ((عالم لا يقع عليه حصر))^(٥). وكما اسلفنا كان مع تلك القوات عدداً كبيراً من ملوك وأمراء المسلمين الذين توجهوا مع عساكرهم لنجدة الملك الكامل فاجتمعوا صفّاً واحداً على ضفاف النيل لمقاومة الصليبيين^(٦). وقد أنزل الملك الكامل، من ناحية شرمساح ألف فارس مع ألوف المقاتلين من العُربان^(٧)، وفي رواية أخرى أن عدد الفرسان المسلمين كانوا أربعين ألفاً^(٨)، ليحولوا دون تقدم القوات الصليبية باتجاه القاهرة.

حتى نهاية العصر العباسي ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد سنة ١٩٨٦ م ، غير منشورة، ص ١٦٤ وما بعدها .

(١) الجروح : مفردا جرح، آلة من آلات الحرب ترمي السهام والنفط. (الذهبي : تأريخ الإسلام، ص ٢٦).

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٧ ؛ الذهبي : تأريخ الإسلام، ص ٢٦.

(٣) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٧ ؛ الحميري : الروض المعطار، ص ٢٥٧ ؛ أمين، حسين أحمد : الحروب

الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة / ١٩٨٣ م)، ص ٨٥.

(٥) الخطط، ج ١، ص ٢١٧ . ٢١٨.

(6) Lane-Poole : op.cit , p. 223.

(٧) المقرئزي : الخطط، ج ١، ص ٢١٧ . ٢١٨.

(٨) زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٩.

ب. كسر السدود:

كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم على زاوية تتكون من النيل وأحد فروعها، واعتقدوا لجهلهم بطبيعة المنطقة والظروف المناخية لمصر أن الموقع يوفر لهم حماية كافية^(١). في حين أنه كان عبارة عن مجرد أراضٍ منخفضة، في الوقت الذي كان فيه فيضان النيل وارتفاع منسوبه^(٢). وبينما كان المسلمون قد استعدوا لمواجهة أخطار الفيضان^(٣)، فإن الصليبيين كانوا على العكس منهم لا خبرة لهم بأمر النيل^(٤). فاستغل الملك الكامل ذلك، وأمر بكسر السدود المائية في الجهة التي يعسكر يعسكر فيها الصليبيون^(٥)، فأحاط بهم الماء من كل جانب^(٦) وطمح على معسكرهم وصار حائلاً حائلاً بينهم وبين مدينة دمياط. ووصف ديفز ذلك بالقول: ((لقد ألحق الفيضان الذي لم يكن في حُسابان الصليبيين هزيمة المضحكات المبكيات في آن واحد))^(٧). مما أحدث فعلته الكبرى في تغيير سير المعركة لصالح المسلمين .

ج. قطع طريق العودة إلى دمياط:

في سبيل إحكام السيطرة على القوات الصليبية المتقدمة من جهة دمياط، أمر الملك الكامل بقطع جسر النيل الواقع شمال طلخا، فضلاً عن الجسر الواقع بين النيل وبحر المحلة، فلم يبقَ لتلك القوات سبيلاً للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق^(٨)، كانت قوات الكامل تُسيطر عليه كذلك. وقد أحبط هذا الإجراء . المتخذ في شهر رجب الموافق آب سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م) -

(١) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠ ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٩٠.

(٣) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٢٩٩.

(٤) الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٠٦.

(٥) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٩؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠ ؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٩؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٥٥.

(٧) أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٠٥.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٨ ؛ الذهبي: تأريخ الإسلام، ص ٢٦؛ المقرئ: الخطوط، ج ١، ص ٢١٨.

محاولة القوات الصليبية في التراجع والعودة إلى دمياط من ذلك الطريق^(١). فأضطروهم ذلك إلى حرق الأمتعة غير الضرورية، وعزموا بعد رفع الخيام على سحق القطعات الإسلامية التي قطعت عليهم طريق العودة باتجاه دمياط، لأنهم كانوا يظنون أن القوات الإسلامية عجزت عن مقاومتهم، وأنهم سوف يصلون إلى المدينة بسهولة^(٢). لكن الأوضاع كانت على عكس ما كانوا يتوقعون، إذ بدأت قواتهم تتمرغ في الأوحال عندما أمر الكامل بغمر هذا الطريق كلياً بالماء^(٣). كما باشر فرسان المسلمين ومشاتهم بمطاردة الصليبيين^(٤)، وأحاطت بهم قوات المسلمين من عدة جهات، مما تعذر عليهم سبيل العودة إلى دمياط^(٥). إذ انقطع الطريق بينهم وبينها من جهتي البر والبحر^(٦)، ((فلم يبق لهم خلاص))^(٧). وباتت تصنيفاتهم مسألة وقت، بعد أن التقت القوات الإسلامية من حولهم^(٨).

ومن طريف ما ذكر، أن عدداً كبيراً من العساكر الصليبية وهم بهذا الحال لم يوافقوا على التخلي عن مستودعات النبيذ في معسكرهم، فاثروا أن يشربوها على أن يتركوها خلفهم، ففقدوا الوعي حين صدرت لهم الأوامر بالانسحاب، لذلك لم يكن انسحابهم منظماً^(٩). والحقيقة أن النيل بفيضانه، وما بفيضانه، وما على سطحه من شواني المسلمين ومقاتليهم، والقوات البرية بفرسانها ومشاتها، الذين صبوا جأماً غضبهم على القوات الصليبية المتقهقرة، هي التي حالت دون تحقيق خيار الانسحاب المنظم والعودة إلى دمياط.

د. منع وصول الإمدادات :

(1) Stevenson : The crusaders in the east , op.Cit, p.306.

(2) Grousset : Histoire des Croisades , V.2 ,op.cit,p.240.

(٣) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢.

(٤) باركر : الحروب الصليبية، ص ١٠٩.

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام، ص ٥٥.

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠ ؛ المقرئ : الخطط، ج ١، ص ٢١٨.

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٨ ؛ الحميري : الروض المعطار، ص ٢٥٧.

(٨) ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٩١ .

(٩) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٩٨-٢٩٩.

بانقطاع الطريق البري المؤدي إلى دمياط، انقطع وصول الأمدادات ومواد الإعاشة والتموين ومُستلزمات الجيش الأخرى وما يتطلبه العمل العسكري من تعزيزات^(١). كما تم قطع الطريق البحري للغرض ذاته، فقد أخذت شواني المسلمين تجوب نهر النيل ومعها حَرقاة كبيرة لحرق السفن على رأس بحر المحلّة، وكان على تلك الحارقة الأمير (بدر الدين بن حُسُون)، الأمر الذي أدى إلى انقطاع الطريق البحري عليهم كذلك^(٢). وهكذا تم إحكام الحصار على القوات الصليبية براً وبحراً. وفي هذه الأثناء من الحالة السيئة للصليبيين، وصل مركبٌ عظيمٌ لهم سُمي ((مرمه)) وحوله حَرَاقات لحمايته، وجميعها مملوءة بمواد التموين والأسلحة وما يحتاجه الجيش الصليبي من مواد أخرى، فتصدت له شواني المسلمين وسيطرت عليه بعد قتال شديد، فكان الظفر للمسلمين، مع أخذ المركب وما حوله من حراقات لجيش الملك الكامل^(٣). وبذلك انقطع عن الصليبيين كافة إمدادات التموين من خارج دمياط. وكان للتخطيط السليم لقيادة الكامل، والتعاون بين القوات الإسلامية . البرية والبحرية . الأثر الكبير في منع وصول الأمدادات إلى الغزاة الصليبيين في هذه المعركة.

أما الصليبيون وإزاء هذا الموقف الصعب والحصار لقواتهم، فقد فكروا في مواجهة القوات الإسلامية بالقتال، في محاولة لفك الحصار والتقدم نحو القاهرة، لتمداداً على قواتهم المتبقية معهم^(٤). لكن تخطيطهم وما فكروا فيه كان بعيد المنال عليهم ذلك نتيجة لما أعدّه الملك الكامل من قوات عسكرية وحشود ضخمة من المجاهدين في طريقهم. وقد وصف حالهم هذه ابن الأثير و قال: ((حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون))^(٥). وفي خضم هذا الموقف العسير للصليبيين، كانت المراسلات جارية بين الطرفين الصليبي و الإسلامي، وفي هذه الأثناء الحرجة إذ أقبل جيشٌ كبير له جَلَبَةٌ وهَجٌّ فَظَنَّهُ المسلمون ابتداءً أنه نجدةٌ للصليبيين، ولما تَحَقَّقُوا الخبر، فإذا هو الملك المعظم شقيق الملك الكامل، وصاحب دمشق، قد أقبل مع جيشه وجعل طريقه إلى دمياط، فاشتدت به

(١) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٢.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٨؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠؛ أبو شامة: الذيل على

الروضتين، ص ١٢٩؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٥٥.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢٠.

(٥) الكامل، ج ٩، ص ٣١٨.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٧.

عزيمة المسلمين، وزادوا ثقة بالذَّصْر. أما الصليبيون فقد زادوا خذلاناً ووهناً^(١)، ولما عاينوا الهلاك، وأشرفوا عليه^(٢)، أيقنوا أنه واقع بهم حتماً^(٣). عندها ناشد ممثل البابا (بيلاجيوس) ملك القدس (جون دي برين) معالجة المشكلة. ولما لم يكن أمام القوات الصليبية سوى التقدم إلى الكامل بالاستسلام وتسليم دمياط، فقابل فسح المجال أمام القوات الصليبية للإنسحاب^(٤)، كتب للإنسحاب^(٤)، كتب الملك (جون دي برين) إلى الملك الكامل يطلب منه الأمان، وأنهم على استعداد لتسليم دمياط^(٥).

وما تجدر الإشارة إليه، أنه وبعد الإعلان عن استعداد الصليبيين لتسليم دمياط، تمكَّرت حامية دمياط على أمرائها الصليبيين، معبرين عن رفضهم التخلي عنها، وهاجم رجالها مساكن (جون دي برين) والطوائف الدينية العسكرية، غير أن المتمردين ما لبثوا أن أذعنوا لحكم الواقع، بعد أن أخذت أقواتهم بالنفاد^(٦). وفي رواية أخرى أن سبب تمرد حامية دمياط يرجع إلى وصول أسطول أسطول بحري إيطالي مُوسل من قبل الإمبراطور (فريدريك الثاني)، وكان وصوله مع التعزيزات في آب من سنة (٦١٨ هـ / ١٢٢١ م)^(٧)، فبعث في أنفسهم الأمل بإمكانية ثباتهم في دمياط وعدم التخلي عنها.

أما الملك الكامل وقد استشار أصحابه حول المفاوضات لكنهم اختلفوا في الرأي. فمنهم من رأى عدم الموافقة على إعطاء الصليبيين الأمان وأنه لا بد من أخذهم عُنوة، وكان من أصحاب هذا الرأي المعظم والأشرف. إذ رأوا ضرورة استغلال ورطة الصليبيين للقضاء عليهم، وأنهم في ذلك سيجعلون منهم درساً لبقية الصليبيين وخاصة الملوك منهم أمثال الإمبراطور (فريدريك الثاني)^(٨). أما أصحاب الرأي الثاني فقد جنحوا إلى السلم، ومن هذا الرأي الملك الكامل نفسه، وهو ما تم عليه الاتفاق أخيراً. فقد ذكر سبط ابن الجوزي هذا الاتفاق بحسرة وقال: ((ولو أقاموا

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٨. وتجدر الإشارة إلى أن أبا شامة ذكر أن وصول العساكر الشرقية والشامية كان متأخراً إلى ما بعد استلام الكامل لمدينة دمياط. (الذيل على الروضتين، ص ١٣٠).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٩٠.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٨.

(4) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.240.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣١٨ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٩١.

(٦) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٠١.

(7) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.243.

(8) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.241.

يومين أخذوا برقابهم))^(١). أما الذهبي فقال عنها: ((فلو طوّل الكامل راحة يومين لأَسْرَمَ))^(٢). ويبدو إن اختيار الكامل لهذا الرأي راجع إلى حرصه على تحرير مدينة دمياط واستلامها سليمة من التخريب، ولإدراكه أن من الأفضل عدم الضغط أكثر بعد التقدم الذي تحقق له^(٣). ورأى أن من الحكمة والسياسة أن يوافق على الصلح حتى لا تقوم حرب صليبية انتقامية جديدة نحوه والأخذ بثأرهم^(٤). كما ذكر (زابوروف) سبباً آخر لموافقة الكامل على الصلح، وهو إدراكه لخطر جديد قادمًا من الشرق هو الزحف المغولي على بلاد المسلمين^(٥).

رابعاً . نتائج الحملة

من المعتاد دائماً إن الحروب تقاس بنتائجها، وأن المنتصر يفرض شروطه على المغلوب. وهكذا وقع الطرفين . الاسلامي والصليبي . على وثيقة الصلح بالشروط التي فرضها الكامل^(٦). إذ تم التوقيع على الوثيقة يوم الاثنين الموافق الأول من شهر رجب، سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م)^(٧). ولتنفيذ بنود الوثيقة، التي كان من بين شروطها تسليم رهائن من كل طرف إلى الطرف الآخر، بعث الملك الكامل ولده الصالح ايوب وابن أخيه شمس الملوك رهائن إلى الصليبيين^(٨). كما جاء ملوكهم رهائن إلى المنصورة في الثالث من رجب، الموافق الثاني من أيلول^(٩). أما إجراءات الصلح فقد تمت بين الطرفين بتاريخ السابع من رجب، الموافق السادس من أيلول من تلك السنة. فتسلم المسلمون دمياط بعد يومين من ذلك التاريخ، و مما يدل على أهميتها أنها وضعت في مقدمة شروط الصلح^(١٠) ودخلها الملك الكامل مظفراً، ومعه إخوته وأهل

(١) مرآة، ج٨، ق١، ص٦٢١.

(٢) دول الأسلام، ج٢، ص١٢٣.

(3) Stevenson : op.Cit, p.306.

(4) Grousset : Vol.2 ,op.cit,p.241.

(٥) الصليبيون في الشرق، ص٢٩٩.

(٦) السيوطي : حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٤.

(٧) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٣٠١.

Stevenson : op.Cit, p.306.

(٨) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج٨، ق١، ص٦٢١ ؛ الذهبي : تاريخ الأسلام، ص٥٦ ؛ اليافعي مرآة الجنان، ج٤، ص٤٠.

(٩) سبط ابن الجوزي : مرآة، ج٨، ق١، ص٦٢١ ؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٤٠ ؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٢٢.

(١٠) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٣١٨ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٥٧. أما المقرئ فقد ذكر في خطه ،

بيته، فكان يوماً مشهوداً^(١). وأقيمت في ذلك اليوم الاحتفالات، ونُصِبَتْ معالم الفرح و الزينة بالمدينة، وكان الملك الكامل قد نَصَبَ لكل من ناصره من الملوك دهليزاً خاصاً وجلس هو في أحدها، وُزِنَتْ تلك الدهاليز ((بالعدد السلطانية والذخائر الملوكية))^(٢). كما أقام الملك الكامل مجلساً فخماً مدَّت فيه موائد الطعام، وأحضر الرهائن من ملوك الصليبيين كذلك. وكان ممن حضر الملك (جون دي برين) و (بيلاجيوس) ممثل البابا. كما حضرها أشقاء الكامل المعظم والأشرف^(٣). ووقف المعظم والأشرف في خدمة الكامل في هذه الاحتفالية، وقام الشاعر راجح الحلبي فأنشد قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

هنيئاً فأن السعد راح مُخلِّداً وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ميناً وإنعاماً وعزاً مُؤبداً
ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً عقيرته في الخافقين ومُنشداً
أعُ بِمُؤاد عيسى، إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون مُحمداً
وهذه الأبيات إشارة توضح أن الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى هم وحدة واحدة في خدمة الملك الكامل محمد^(٤). كما عُنَّت المغنيات^(٥)، وأقام المسلمون شعائرهم في جوامع دمياط^(٦)، بعد أن انقطعوا عنها مدة احتلال الصليبيين لها، وكانت أربعون شهراً وسبعة عشر يوماً^(٧). كذلك أقيمت الاحتفالات في بغداد دار الخلافة العباسية ابتهاجاً بهذا النصر، كما أكثر الشعراء في بغداد من قصائدهم الشعرية بهذه المناسبة^(٨).

ج ١، ص ٤٥٧، أن استلام دمياط كان في التاسع عشر من شهر رجب.

(١) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٥٨.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٧؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة، ج ٨، ق ١، ص ٦٢١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٥٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٤٠. الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٠٧.

(٥) من ذلك قول واحدة منهن :

ما إن أتى فرعون عكا إلى مصر يَصُبُّ علينا البلاء

حتى جاء موسى لنجدتنا، ويده العصا، لنجدتنا، يفرق واحداً بعد الآخر

(ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٣).

(٦) المنصوري: تاريخ المنصوري، ج ١، ص ٩٣.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص ٨٠. وذكر المقرئ في خطه، ج ١، ص ٢١٩ أن مدة بقاء الصليبيين بدمياط أربعين شهراً وتسعة عشر يوماً.

(٨) من ذلك قول الشاعر بهاء الدين زهير المهلب الحجازي المولد، في قصيدة مطلعها :

وهكذا بات من الواضح أن جميع جهود الحملة الصليبية الخامسة قد ذهبت بدون جدوى فقد ترتب على انتصار المسلمين في معركة دمياط، بتحريرها وعودتها سالمةً حصينة، خيبة كبيرة للصليبيين، وزهواً وعظمة للمسلمين. أما عن خيبة الصليبيين في هذه الحملة فقد وصفها زابوروف بقوله: ((ضاعت دمياط على الصليبيين، وفارق الصليبيون مصر، وهيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام، ومعه تَبَدَّدَت جميع الآمال في استعادة الأرض المقدسة))^(١). كما وصف ابن الأثير حالهم بقوله: ((إن المنايا كَثُرَتْ لهم عن أنيابها، فذَلَّت نفوسهم، وتنگست صُلبانهم، وظلَّ عنهم شيطانهم))^(٢). وقد مَنَّ الله على المسلمين نصراً لم يتوقعوه، فآمالهم كانت مُنصَبَّة على استعادة دمياط مُقابل التخلي عن القدس وأقاليم أخرى من بلاد الشام، إلا أنهم استعادوا دمياط مع احتفاظهم بالأرض المقدسة^(٣).

أما عن عدد قتلى الصليبيين وخسائرهم المادية، فقد ذكرها ابن كثير وقال أنها بلغت عشرة آلاف قتيل، كما أخذ الكامل أموالهم وحيولهم غنائم^(٤). ولم تقتصر خسائرهم المادية على ما ظفر به المسلمون من غنائم، بل تَعَدَّت ذلك إلى مبادرة الصليبيين بحرق خيامهم و المناجيق وسائر الأدوات الثقيلة، عندما تيقنوا أن الهزيمة غَلَّت مُحَلَقَةً بهم. لذلك كانت خسائرهم جسيمة وكبيرة لا تحصى، أما جموعهم المتبقية فقد تفرقت وَنَشَت^(٥). فبعضهم سار عنها باختياره، والبعض الآخر مات، و آخر أخذه الصليبيون عند مغادرة دمياط. وذكرت بيرنود (Pernoud) أن المسلمين . بعد تحريرهم دمياط . أسروا العديد من النصارى^(٦). لكن الواقع أن الأسرى أُطلق سراحهم تنفيذاً لـ بنود وثيقة الصلح^(٧). إذ التزم الطرفان بمقتضاها باطلاق سراح الأسرى، ولأن الإسلام يمنع تعذيب الأسير أو قتله إلا بحق. وقد أقر (Grousset) بإنسانية المسلمين وحسن معاملتهم للأسرى بعد

وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها لقد فرحت بغداد أعظم من مصر

(الحميري :الروض المعطار، ص ٢٥٨ ؛ حمزة، عبد اللطيف :الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، ط ٨، مصر / ١٩٦٨ م، ص ٢٧٧).

(١) الصليبيون في الشرق، ص ٣٠١.

(٢) الكامل، ج ٩، ص ٣١٨.

(3) Grousset : Vol.2, op.cit, p.244.

(٤) البداية، ج ١٣، ص ٩٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣١٨.

(6) The Crusaders , op.cit, p.252- 253.

(٧) البكر : الأسرى المسلمون في الحروب الصليبية، ص ٢٦٠ .

التوقيع على وثيقة الصلح وقال : ((هؤلاء المصريون أنفسهم ، الذين ذبح آباؤهم منذ عهد قريب ، والذين سلخنا جلودهم وطردهم من بيوتهم ، أتوا لكي يزودونا بالغذاء ، وينقذونا عندما أشرفنا على الموت من الجوع ، وكنا شاكرين لهم جداً هذا المعروف))^(١). وكذا أيضاً أن الملك الكامل زوّد الأسرى العائدين بالمواد الغذائية وجميع التجهيزات التي يحتاجونها أثناء السفر، إذ سافر صليبيو الغرب إلى أوطانهم، وعاد الملك (جون دي برين) ومن بقي حياً من أصحابه إلى عكا^(٢).

ومن النتائج المهمة الأخرى في هذه الحرب، أنها وَحَلَّت قيادة المسلمين، فالكمال صار هو القائد الأعلى الوحيد، وما يتبعه ذلك من وحدة القطعات البرية والبحرية، والتعاون البناء بينهما. أما الصليبيون فقد تفرقت قيادتهم ما بين الطاعة للملك (جون دي برين)، والطاعة لممثل البابا (بيلاجيوس)، وما تَمَحَّض عن تلك الفُرقة من اضطراب في الخطط وفي تنفيذها. لذلك أكثر الصليبيون من لم بعضهم البعض على النصر الذي ضَيَّعُوه^(٣). من ذلك ما ذكره ماير، وهو يعزو فشل الصليبيين إلى (بيلاجيوس) فقال : ((أضعنا هذه المدينة حمقاً وذنباً بسبب المندوب البابوي بيلاجيوس، وكان على رجل الدين أن يكتفي بتلاوة إنجيله والمزامير، وأن يدع الفارس . ويقصد به جون دي برين . ينزل إلى ميدان المعركة))^(٤). من جهة أخرى، فأن الوقائع التاريخية تشير إلى أن خسارة الصليبيين في هذه المعركة يعود لأمرين : الأول . هُوفَات فُرصة المصالحة التي عرضها الكامل،

والثاني - فشلهم في اختيار الوقت المناسب وكذلك في اختيار الطريق السليم لغزو دمياط وبلاد مصر، وخطتهم البعيدة عن الرؤية الصحيحة لواقع المنطقة. فالطريق الأفضل لغزو مصر هو طريق الصحراء الذي سلكه المهاجرون الذين فتحوا مصر من قبل^(٥). كما كان فشل الصليبيين في حملتهم وفشل خطتهم في المعركة، يعود إلى سوء تقديرهم لقوة المسلمين الحقيقية عند وحدتهم في الشدائد. كما أن نجاح المسلمين فيها بسبب نجاح خطتهم في اختيار الظرف المناسب المتمثل بموسم الفيضان، واختيار المكان المناسب بكسر السدود المائية على المكان الذي تجمع فيه الصليبيون وعسكروا فيه، والذي لم يكن ملائماً من الناحية التعبوية العسكرية، كونه منخفضاً عن مستويات

(1) Histoire des Croisades , Vol.2, op.cit, p.242.

(2) Grousset : Vol.2 , op.cit, p.242 - 243.

(٣) باركر : الحروب الصليبية، ص ١١٠ .

(٤) تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٢٣ .

(٥) المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ٧٩ ؛ غنيم : الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٨٤ .

الأرض في المناطق الأخرى. كما لا يفوتنا أن نذكر أن من أهم أسباب النصر للمسلمين هو تلاحمهم والتفافهم تحت قيادة واحدة، وهو السبب المهم دائماً وأبداً لتحقيق النصر.

الفصل الرابع

دمياط والحملة الصليبية السابعة

أولاً . الموقف الصليبي

- أ . التهيئة السياسية
- ب . التهيئة العسكرية
- ج . سير الحملة
- ١ . سير الحملة من فرنسا إلى قبرص
- ٢ . سير الحملة من قبرص إلى دمياط

ثانياً . الموقف الإسلامي

- أ . التهيئة السياسية
- ب . التهيئة العسكرية
- ثالثاً . سير المعركة
- أ . سير المعركة حتى احتلال دمياط
- ب . سير المعركة بعد احتلال دمياط
- ج . سير المعركة بعد وفاة الملك الصالح

رابعاً . نتائج الحملة

الفصل الرابع دمياط والحملة الصليبية السابعة

في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٤م)، تمكن الملك الصالح^(١) وقوة من الخوارزمية من إعادة القدس مرة أخرى إلى المسلمين^(٢). وقد ذكر أن الخوارزمية اعتدوا على بعض المواضع المسيحية فيها، مما أغضب أوروبا التي دعت إلى قيام حملة جديدة لاستعادة القدس^(٣)، والتي قادها الملك الفرنسي (لويس التاسع)^(٤)، الذي أراد من خلالها أن يؤمن لفرنسا. مواضع مهمة وجديدة. في منطقة البحر المتوسط عندما وجه حملته باتجاه مصر. أما مسألة تحرير بيت المقدس وإعادتها إليهم، فقد كانت هدفاً معلناً وذريعة من ذرائع المستعمرين الصليبيين، لإخفاء مطامعهم الحقيقية التوسعية في منطقة الشرق الإسلامي. وأما عن تفاصيل هذه الحملة وأثرها على مدينة دمياط ونتائجها فيمكن دراستها وفق ما يأتي:

أولاً. الموقف الصليبي

سبقت هذه الحملة تهيئة سياسية مكثفة بين الملك (لويس التاسع) قية الملوك والأمراء في أوروبا والبابا كذلك. وقد تمثلت تلك التهيئة بحملة دعائية وإعلامية للحرب، مع الأعداد لها عسكرياً في أوروبا وفي بلاد الشرق.

أ. التهيئة السياسية:

بعد أن شعر الصليبيون في بلاد الشرق أن وجودهم صار مهدداً بالزوال من قبل المسلمين بسبب تحرير القدس من قبل الملك الصالح، أرسل بعض قادتهم سفارةً إلى دول أوروبا شرحوا لهم فيها موقفهم الصعب هناك،

(١) الملك الصالح: هو أيوب بن محمد الكامل، ولد في القاهرة سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٥م)، ونشأ بها. وامتدت فترة حكمه من سنة (٦٣٧هـ/١٢٤٠م) لغاية (٦٤٧هـ/١٢٤٩م). (سبط ابن الجوزي: مرآة، ج٨، ق١، ص٧٧٤، ٧٧٥).

(٢) التكريتي: الأيوبيون، ص٢٧٩؛ بروكلمان: تأريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٦٣.

(٣) الحميدة: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٥٩؛ الزبيدي، مفيد: موسوعة تأريخ الحروب الصليبية، (عمان/

٢٠٠٣م) ص٩٠؛ Encyclopedia Britannica, Vol.7, Printed in the U.S.A, 1966, p.26.

(٤) ابن العبري، غريغورس أبي الفرج ابن أهرون: تأريخ مختصر الدول، ص٢٢٤، الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الراشد اللبناني، (الحازمية/١٩٨٣م)، ص٤٥٢.

مع دعوتهم للقيام بحملة صليبية جديدة^(١)، وقد تألفت تلك السفارة من (جاليران) أسقف بيروت ، و(ألبرت) بطريق إنطاكية^(٢). إذ التقى المذكوران بالبابا (أنوسنس الرابع) ، ونتج عن ذلك اللقاء عقد مؤتمر كنسي في مدينة (ليون) بفرنسا في الثامن والعشرين من حزيران ولغاية السابع عشر من تموز من عام (١٢٤٣هـ/١٢٤٥م) ، والذي أعلن من خلاله البابا الدعوة لحملة صليبية لتحرير بيت المقدس^(٣). وقد توافقت هذه الدعوة مع شفاء الملك الفرنسي (لويس التاسع) من مرضٍ خطير ألمَّ به آنذاك . إذ أقسم أن يذهب إلى القدس في حملة صليبية إذا كتب الله له الشفاء . وذكرت بيرنود (Pernoud) لويس تَمَيُّ أن يُصبح فارساً لله، وأنه كان ملتزماً بالإنجيل ، ومتعلقاً بأرض الصليب^(٤). وقد حاولت زوجته (مارجريت) وكبار وزرائه قسّيسه الخاص من إقناعه بالرجوع عن قسّمه هذا، مما يدل على شدة تعصبه للصليبية حتى عُرف بالقدّيس . وهو ما أكسبه إعجاب الناس من أهل ملّته به ، حتى صار اسمه من الأسماء اللامعة بين القديسين في العصور الوسطى^(٥). ومما زاد في إعجابهم به صفات التقوى والتواضع مع جماعته من الصليبيين ، وغلظته مع أعدائهم من المسلمين^(٦). لذا قام وزمرته للهيان بجولة في فرنسا لِبَثِّ الدعوة للحرب ، غير أن تلك الدعوة لم تَلَقَ الاستجابة المرجوة في بدايتها^(٧)، لولا جهود البابا (أنوسنس الرابع) ، الذي أرسل الكاردينال (أودو) أسقف فراسكاني للدعوة إلى الحملة و التبشير بها في جميع أنحاء فرنسا^(٨). فتزامنت دعوة البابا هذه مع دعوة (لويس التاسع) لها.

غير أن ما قام به البابا في مؤتمر (ليون) الكنسي ، أثار استغراب المؤرخين الغربيين . فهو من جهة دعا إلى حملة صليبية ، وتخذ قراراً بإرسال قوات إلى الشرق والأراضي المقدسة ، ومن جهة ثانية دعا إلى حملة صليبية أخرى ضد (فريدريك الثاني) إمبراطور ألمانيا ، ووعد من ينضم إليه برضا الرب والغفران من الذنوب^(٩). وأمام هذا التضارب في التوجّهات أراد (لويس التاسع) أن يضمن النجاح في هذه الحرب ، لذا عمد إلى الوساطة بين البابا

(١) التكريتي: الأيوبيون ، ص ٢٨٠؛ المعاضدي وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٩٥.

(٢) عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٥٢.

(٣) يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ط ٢، (القاهرة/١٩٥٩)،

ص ٢٨؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠.

(4) The Crusaders , op. cit , p. 222.

(٥) المعاضدي وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٩٥.

(٦) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣، ص ٤٤٠.٤٣٩ ؛ أمين ، عبد الأمير محمد ، وحسين ، محمد توفيق :

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، مطبعة جامعة بغداد ، (بغداد/١٩٨٠م) ، ص ٢٤٤ .

(٧) التكريتي: الأيوبيون ، ص ٢٨٠؛ ويست : الحروب الصليبية ، ص ١٥٠.

(٨) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣، ص ٤٤١ .

(٩) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ .

والإمبراطور الألماني من أجل المصالحة بينهما ، لكنه فشل في مسعاه بعد أن رفض البابا تلك الوساطة^(١) .
وعندها أعلن (لويس التاسع) عن رأيه الصريح بعدم موافقته على محاربة الإمبراطور الألماني ، لأنه لم يكن في نظره نصرانياً متمرداً على الكنيسة ، كما وصفه البابا ، بل كان بسبب عدااء البابا له وخلافه معه حول أملاك الكنيسة^(٢) . لذا أخذ (لويس التاسع) على عاتقه مهمة الإعداد للحملة الصليبية السابعة ، حتى سُميت باسمه^(٣) .
باسمه^(٣) . واقترح عليه بارونات سوريا وفلسطين مهاجمة مصر أولاً ، ووضع يده على مدينة الإسكندرية أو دمياط المهمتين^(٤) .

وقد انعكس ذلك الخلاف بين البابا والإمبراطور الألماني على بلدان الغرب الأوربي كذلك ، إذ انقسمت هي الأخرى ما بين مؤيد للبابا ومؤيد للإمبراطور . الأمر الذي حال دون اشتراك عدد من بلدان أوروبا . وبخاصة ألمانيا وإيطاليا . في الحملة الصليبية الجديدة^(٥) .

إن اهتمام الملك (لويس التاسع) بأمر الحملة ونجاحها ، دفعه إلى إرسال وفد برئاسة الراهب الدومنيكاني (أندري لونجومو) في كانون الثاني سنة (٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م) ، إلى مقر الخان الأعظم المغولي في منغوليا ، وبعث إليه بهدايا ثمينة . كما تحركت قبلها سفارة أخرى من البابا (أنوسنس الرابع) كذلك ، برئاسة الراهب الدومنيكاني (آنسلم آسيلين) ، وهي تحمل رسائل إلى القائد العسكري المغولي (بيدو) ، بحجة إطلاعهم ودعوتهم إلى الدين المسيحي . إلا أن واقع الحال هو طلب توجيه قوة من المغول ضد المسلمين ، غير أن جهود البابا و لويس لم تُجدِ نفعاً بهذا الاتجاه ، إذ اتضح أن المغول لم يكونوا مستعدين لاعتناق الديانة المسيحية ، بل طلبوا . على العكس .
من (لويس التاسع) الخضوع لسلطتهم^(٦) . وفي رواية أخرى أن نَشاغل منغوليا بسبب النزاع على العرش فيها ، بعد وفاة إمبراطورهم (كويوك) حال دون تلبية الطلب^(٧) . والمهم أنه في كلتا الروايتين كان واضحاً عدم استجابة منغوليا لرجاء البابا وتوسلات (لويس التاسع) . كما تجدر الإشارة إلى أن الملك لويس قد استمر في جهوده السياسية وإدامة مراسلاته مع الأسر الصليبية التي استقرت في المشرق ، الذين أعربوا له عن استعدادهم

(١) ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٧٤ .

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢١ .

(3) Bible Prophecy and History – Church of History .

بحث منشور في شبكة الإنترنت على الموقع

www: Teaching Hearts . org / dre 04 History notes . html .

(4) Grousset : Vol.3 , op. cit , p. 377 .

(٥) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٣ .

(٦) زابوروف : الصليبيون في الشرق ، ص ٣١٣ . ٣١٤ .

(٧) اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٤ . ١٨٥ .

للسير تحت قيادته ، والانقياد لأوامره ، وإمداده بالجند والتعاون معه^(١) .

ب . التهيئة العسكرية

أما فيما يتعلق بالتهيئة العسكرية ، فهي تعني الاهتمام بالجانب البشري المتمثل بتهيئة وإعداد القدر الكافي من المقاتلين، وكذلك بالجانب المادي من تهيئة مواد التموين والأسلحة والذخائر وما تحتاجه الحرب من آلات وأدوات مختلفة . وفي كلا الجانبين تَحَمَّل (لويس التاسع) القدر الأكبر منها ، لذا كان الطابع لهذه الحملة فرنسياً . فلويس هو القائد للحملة ، وغالبية المقاتلين من فرنسا ، ولم يشكل الجنود من أمم أخرى ، سوى نسبة ضئيلة^(٢) . وذلك لأن معظم الصليبيين في بلاد الشام في القرن الثالث عشر كانوا ينحدرون من أصول فرنسية ، وكذلك أمرائهم . لذلك قرروا مساعدة (لويس التاسع) والانضواء تحت قيادته^(٣) .

أما عن عدد القوات الصليبية التي آحتشدت في هذه الحملة ، فقد أشارت إليها بعض المصادر ، وقدرتها بحدود خمسين ألف مقاتل^(٤) ، وفي رواية أخرى خمسة وعشرين ألف مقاتل^(٥) . في حين حدد ماير تعداد الجيش الجيش الصليبي النظامي الذي تجمع في قبرص ، ما بين خمسة عشر ألف وخمسة وعشرين ألف مقاتل ، ومن بينهم ألفين وخمسمائة فارس ، وخمسة آلاف من أصحاب الدروع^(٦) .

من جهة أخرى فقد اهتم (لويس التاسع) بمستلزمات الحماية للمقاتلين ، إذ هيا للفرسان خُوداً جيدة كي تحمي رؤوسهم ، كما جعل للمتقدمين من المقاتلين والقادة صفائح مدرعة تحمي الأكتاف والركب^(٧) . كما قرر (لويس التاسع) فرض ضريبة استثنائية هي ضريبة الحرب لأنفاقه في هذا السبيل ، ولم يستثن منها حتى رجال الدين . كما أرسل وكلاء له ليجمعوا ما يلزم للحرب من قُوت وذخيرة^(٨) .

ولكن . وكما أسلفنا . فإنه على الرغم من أن إمبراطور ألمانيا (فريدريك الثاني) ، لم يؤيد المشاركة في هذه

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٤ .

(٢) ماير : تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٤ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٤ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٢ ؛ ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ؛ ابن خلدون : العبر ،

ج ٥ ، ص ٣٥٩ .

(٥) اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٥ .

(٦) تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧ .

(٧) ويست ، انتوني : الحروب الصليبية، ترجمة ، شكري محمود نديم ، شركة النبراس للنشر والتوزيع ،

(بغداد/١٩٦٧م) ، ص ١٥٠ . ١٥١ .

(٨) رنسيما : تأريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٤١ و ١٤٩ ؛ ماير : تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٤ .

الحملة ، لكنه لم يجرؤ . في الوقت نفسه . على معارضة المشروع الصليبي بشكل صريح . بل على العكس ، قام بتموين القوات الصليبية عند مرورها بصقلية وهي في طريقها إلى قبرص^(١) . كما أن حاجة (لويس التاسع) إلى السفن لنقل قطعاته عبر البحر المتوسط ، دفعته لإجراء مفاوضات مع كل من جنوة ومرسيليا ، والتين وافقتا في نهاية الأمر على إمداده بحاجته من السفن على سبيل الأستئجار . ويبدو أن هدفهم من وراء ذلك كان طمعاً في احتكار تجارة مصر و ضرب مصالح البنادقة الذين استأثروا بها^(٢) . لذا فإن البندقية كان موقفها سلبياً تجاه الحملة ، ورفضت إمداده بالسفن نظراً لعلاقتها الطيبة مع مصر^(٣) . كما أعدّ (لويس التاسع) إستحضارات غير اعتيادية إذ أنشأ ميناءً خاصاً في (أيك مورت) بجنوب فرنسا ، وهباً له لنقل القوات ، وكُدس مؤناً وأطعمة كثيرة تكفي لسنتين في قاعدة أمامية بجزيرة قبرص^(٤) . مما يشير إلى أن الجانب الصليبي كان مُهيئاً لخوض معركة طويلة مع المسلمين .

ج . سير الحملة

كان سير الحملة على مرحلتين، الأولى من فرنسا باتجاه قبرص ، والثانية من قبرص باتجاه دمياط^(٥) ، ووفق ما يأتي :

١. سير الحملة من فرنسا إلى قبرص

بعد أن أنهى (لويس التاسع) استعداداته ، غادر باريس في السابع عشر من ربيع الأول ، الموافق الثاني عشر من حزيران سنة (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) ، متجهاً إلى قبرص . كقاعدة أمامية للتجمع قبل التوجه إلى مصر . وكان بصحبته زوجته (مارجريت) ، وشقيقه (شارل) و (روبرت) . أما شقيقه الثالث (الفونس) فقد بقى في فرنسا لجمع عساكر أخرى ، على أن يتبعه لاحقاً . كما كان بصحبته عدداً من كبار الأمراء الفرنسيين وصغارهم ، وكذلك مؤرخ الحملة (يوحنا جوانفيل)^(٦) . كذلك التحق به ابن عمه (هيو) دوق برجنديا ، و (بطرس) كونت بريثاني ، وكذلك (هيو العاشر) كونت لامارش وآخرون . وعندما مرّ (لويس التاسع) بمدينة ليون استقبله البابا (أنوسنس الرابع) لمباركة الحملة . ثم اتخذ طريقه من مدينة ليون إلى ميناء أجمورت جنوب فرنسا . ومنه ركب السفن هو وجيشه وذلك في الرابع من جمادي الأولى ، الموافق ١ أيلول سنة (

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٤ .

(٢) الحميدة : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٦١ .

(٣) غنيم : الدولة الأيوبية و الصليبيون ، ص ١٠٥ .

(٤) ويست : الحروب الصليبية ، ص ١٥١ .

(٥) يُنظر الخارطة في الملحق رقم (٦) .

(٦) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢١ ؛ رنسيما : تأريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ .

٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) ، سالكين الطريق البحري إلى قبرص^(١) ، حتى وصلت القطعات الصليبية إلى ميناء ليماسول القبرصي ، وذلك في السابع والعشرين من جمادي الأولى ، من السنة نفسها ، فأصبحت جزيرة قبرص نقطة لتجمع الجيوش الصليبية المشتركة . وقد شعر الصليبيون بالأمن والراحة ، بفضل الحماية وحسن الضيافة التي قدمها لهم (هنري الأول) ملك قبرص فضلاً عما هيأه لهم من كميات كبيرة من مواد التموين سواءً من الأطعمة وغيرها^(٢) . ووصف جوفانفيل . مؤرخ الحملة . حرارة الاستقبال في قبرص ، كما وصف كميات الأطعمة والمؤن وبخاصة القمح والشعير وقال : ((فأذا نظرت إليها خيل إليك أنك ترى جبلاً))^(٣) . إشارة إلى ضخامة الاستعدادات الحربية في هذه الحملة .

وقد بقيت القوات الصليبية في جزيرة قبرص طوال ذلك الشتاء^(٤) ، للفترة من السابع والعشرين من جمادي الأولى ، ولغاية السابع من صفر ، من سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) . فكانت تلك الفترة فرصة مناسبة لجمع كميات أخرى من المؤن ، فضلاً عن الإمدادات البشرية التي حصل عليها (لويس التاسع) من ملك قبرص وغيره من زعماء الصليبيين الذين قدموا من عكا^(٥) . وقد ذكر جوفانفيل أن غرض (لويس التاسع) من قضائه تلك الفترة في قبرص لتحقيق هدفين : الأول ، الاستفادة من قبرص القريبة من مصر ، والثاني ، الاتصال بزعماء الصليبيين وأمرائهم^(٦) . إذ استقبل في تلك الأثناء في نيقوسيا . عاصمة قبرص . الزائرين والسفارات ، والذين كان من بينهم (هارديون أمير أخايا) ، ومعه أربع وعشرون سفينة ، إضافة إلى كتيبة من المقاتلين من شبه جزيرة المورة ، الذين وصلوا جزيرة قبرص في أيار سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)^(٧) .

من جهة أخرى سارع الصليبيون في بلاد الشام وزعماء الداوية والأسبتارية إلى جزيرة قبرص للتشاور مع (لويس التاسع) في أمور الحملة القادمة ومسألة مصالحهم في بلاد الشام وكيفية حمايتها ووضع الخطة العسكرية للحملة^(٨) . ولهذا الغرض عقد الملك (لويس التاسع) مجلس حرب ضم جميع القادة الصليبيين ، والأمراء القادمون مع الحملة ، وقادة الصليبيين القادمون من الشرق ومن بينهم مقدم فرسان الداوية ونائب مقدم فرسان

(١) غنيم : الدولة الأيوبية و الصليبيون ، ص ١٠٦ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٦٦ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٦ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٦٧ . ٦٨ .

(٣) غنيم : الدولة الأيوبية و الصليبيون ، ص ١٠٧ . (نقلًا عن جوفانفيل لعدم تيسر المصدر)

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، مج ٥ ، ص ٣٥٩ .

(٥) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٦ .

(٦) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٧ . (نقلًا عن جوفانفيل لعدم تيسر المصدر)

(٧) رنسيما : تأريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ . ٤٤٩ .

(٨) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٧ .

الاستراتيجية ، وآخرون غيرهم لمناقشة الخطة العسكرية . وبعد التشاور ولضمان أمن الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، بعث (لويس التاسع) بسفارة إلى (هيثوم الأول) ملك أرمينية وطلب منه إمداد (بوهيمند الخامس) أمير أنطاكية ببضعة مئآت من المقاتلين ، فاستجاب له هذا ، وأمدّه بستمائة مقاتل لحماية أنطاكية من غارات المسلمين الأتراك^(١) . كما اتفق المجتمعون في مجلس الحرب على أن تكون مصر هي الهدف ، وأن تكون مدينة دمياط المهمة الهدف الأول لنزول القطعات الصليبية . إذ تذكر المجتمعون أيضاً كيف أن الملك الكامل . أثناء الحملة الصليبية الخامسة . أراد أن يتنازل عن بيت المقدس مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط^(٢) . مما يبين أهمية دمياط التي كانت رمزاً لتفاؤل الصليبيين بأحتلال مصر من خلالها ، كونها تخدمهم كقاعدة ورأس جسر لاستقبال قواتهم ، فضلاً عن كونها تصلح أن تكون مستودعاً رئيساً للتجهيزات ومواد التموين بسبب موقعها وكثرة خيراتها^(٣) . لأن وقوعها بين مصب فرع دمياط وبحيرة المنزلة وساحل البحر المتوسط يجعل . بنظرهم . الدفاع عنها سهلاً بعد احتلالها ، لكونها محاطة بالمياه ، ومتصلة بالبحر^(٤) فضلاً عما تقدم ، فإن مدينة دمياط تعد سوقاً تجارياً بحرياً مهماً ، ومتصلة بالموانئ الأوربية وجزيرة قبرص . كما أن موقع مينائها بالنسبة إلى المنطقة الجنوبية من بلاد الشام والإمارات الصليبية الواقعة على الساحل ، يعد أقرب الموانئ المصرية لبيت المقدس الهدف المعلن للحملة ، مع إمكان اتخاذها قاعدة أمامية للتقدم باتجاه القاهرة مستقبلاً ، من أجل احتلال ما تبقى من بلاد مصر لاحقاً في حالة نجاح الحملة^(٥) .

٢ . سير الحملة من قبرص إلى دمياط

قبل أن تتوجه الحملة من قبرص إلى دمياط كان رأي الملك (لويس التاسع) هو التقدم باتجاهها ومهاجمتها فوراً ، إلا أن قادة الصليبيين القدامى في بلاد الشام اقترحوا عليه التريث وتأجيل الحركة لحين انتهاء موسم فصل الشتاء ، وذلك لمعرفةهم بكثرة العواصف الشتوية على السواحل المصرية ، والتي تُعيق الملاحاة وتُعرض سُفنهم للخطر . فضلاً عن كثرة الحواجز الرملية بعد انتهاء موسم الفيضان ، والتي قد تُسبب في إعاقة حركة السفن من الوصول إلى الساحل^(٦) . وعلى هذا الأساس أخذ الملك (لويس التاسع) بهذا الرأي ، فأصدر أوامره بأوامره بتأجيل حركة القطعات وعدم الشروع في بدء العمليات لحين انتهاء موسم الشتاء وتناقض منسوب مياه

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٧ ؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ . ٤٥٠ .

(2) Pernoud : op. cit , p. 211,

رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

(3) Jordan, William Chester : louis IX and the Challenge of the Crusade , New Jersey , Princeton University Press , 1979 , p.125.

(٤) يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٩٣ .

(٥) الحميدة : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ .

(٦) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

النيل . وكذلك بانتظار وصول تعزيزات إضافية إليه ، على أمل أن يُحضرها شقيقه (الفونس دي بواتيه)^(١) . فبقيت القوات الصليبية في جزيرة قبرص فترة ثمانية أشهر أخرى ، مما أضرَّ بالحملة ، ونتج عن طول مُدَّة المكوث نفاذ معظم الخزين من مواد التموين^(٢) .

وفي السابع من صفر ، الموافق ٢٢ من أيار سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، كان (لويس التاسع) قد انتهى من جمع قواته وسفنه بعد أن أكمل استعداداته ، إذ تجمعت في ميناء ليماسول القبرصي مئات السفن الكبيرة والصغيرة ، بيد أنه قبل أن يتحرك من قبرص ، التقى بقيادة جيشه ، ودُكِّرهم بخطورة الجيش المصري و باعتدائه على المسيحيين و أموالهم بعد استيلائه على بيت المقدس سنة (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) ، وكذلك عند استيلائه على طبرية وعسقلان قبل ثلاث سنوات ، إذ صارت معاقل الصليبيين في بلاد الشام كلها معرضة للخطر إلا أنه طمأنهم بأن النصر سوف يكون حليفهم وستقع دمياط بأيديهم ، التي هي مفتاح النصر في احتلال مصر^(٣) ، ثم غادر (لويس التاسع) في أسطوله الكبير ميناء قبرص^(٤) . وقد وصفَ (Lane-Poole) ضخامة الأسطول الصليبي وعظمته ، وأنه لا مثيل له بين الأساطيل التي وجدت في ذلك العصر ، موضحاً بأنه كان يضم أكثر من مائة وعشرين سفينة حربية كبيرة ، وعدد كبير من السفن الصغيرة^(٥) . وفي الوقت الذي كانت فيه السفن الصليبية متجهة نحو دمياط . - وهي في بداية حركتها . هبَّت عاصفة قوية شتَّت القسم الأكبر من سفن الأسطول . إلا أن السفن المتبقية واصلت حركتها ، حتى وصلت إلى البر الغربي من دمياط المسمى آنذاك بجزيرة دمياط أو ((جزيرة دمياط))^(٦) ، وكان وصولها يوم الجمعة العشرين من صفر ، الموافق ٤ حزيران سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) . فنصب الصليبيون خيمهم هناك ، وكانت من بينها خيمة الملك (لويس التاسع) المتميزة بلونها الأحمر^(٧) .

بيد أن الغرور والتهور كان كبيراً من جانب (لويس التاسع) ، إذ بمجرد رؤوه أمام الشاطئ الغربي من دمياط ، فإنه بعث إلى الملك الصالح حاكم مصر رسالة تفيض بالتهديد والوعيد ، يدعوه فيها إلى الاستسلام ،

(1) Grousset :Vol.3 , op. cit , p. 448.

ماير : تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٦.

(٢) يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٧٥.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣١٨.

(٤) يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ١٢.

(5) A History of Egypt ,op .cit , p . 232-233.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ ؛ السيوطي : تأريخ الخلفاء ، ص ١٨٣ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم :

: لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٥.

(٧) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤١.

مُكْرًا له بقوة الصليبيين وتدميرهم للمسلمين في الأندلس^(١). وفي رواية أخرى أن الرسالة والرد عليها حصل منذ أن كان (لويس التاسع) في جزيرة قبرص^(٢). وقد وصلت الرسالة إلى الملك الصالح وهو يعاني من مرض الموت ، إلا أنه كان صلباً وقوياً في الرد على لويس ((فبكي واسترجع)) ، وأمر القاضي بهاء الدين زهير بكتابة الجواب^(٣)، الذي تضمن عبارات التحدي والإيمان بالنصر .

ثانياً . الموقف الإسلامي

أما الموقف الإسلامي فإنه كان يتمثل بموقف حاكم مصر الملك الصالح، وإجراءاته بعد وصوله خبر الحملة الصليبية المتوجهة لاحتلالها ، والتي وطأت أقدام جنودها الساحل الغربي لدمياط . وستناول جهوده في الاستعداد والمقاومة للغزاة ، و سيتضح ذلك من خلال التهيئة السياسية والعسكرية له ووفق ما يأتي :

أ . التهيئة السياسية

سبق وأن تناولنا دراسة الموقف في المعسكر الصليبي حتى وصولهم البر الغربي لدمياط . أما موقف مصر وملكيها الصالح بن الملك الكامل ، وهو من أعظم خلفاء صلاح الدين الأيوبي ، كونه سياسياً يُقابل المصائب بالصبر ، لما يتمتع به من قوة الشخصية وحسن السياسة^(٤) . إلا أنه كان منشغلاً بحصار حمص في تلك الأثناء^(٥) . فقد أمضى شتاء عام (٦٤٧هـ / ١٢٤٨م) في حصارها ، على أمل أن تفرغ قواته من الاستيلاء على حمص ومن ثم السيطرة على حلب^(٦) ، ليتعزز بهذا الأجراء السيطرة على بلاد الشام ، ويستقر له

(١) المقرئزي : ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٥ . وينظر نص الرسالة في الملحق رقم (٧).

(٢) الإسخاقي ، محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، المطبعة الأزهرية ، (مصر / ١٣١١هـ) ، ص ١٢٩ .

(٣) ينظر نص الجواب في الملحق رقم (٨).

(٤) يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ٨.

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨١ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٤١٢ ؛ ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٦.

وقد ذكر أن الناصر يوسف أمير حلب كان قد طرد ابن عمه الأشرف موسى من حمص، فأستنجد الأمير المعزول بالملك الصالح ، الذي قدم من مصر على رأس جيش كبير لاستردادها للأشرف . (رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥١).

(٦) العسلي : فن الحرب الإسلامي ، مج ٤ ، ص ٢١٦ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ٣٦٣ ؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥١.

الملك فيها إضافة إلى مصر^(١). إذ كان في ظن الملك الصالح أن الغزاة سيتوجهون أولاً إلى بلاد الشام ، وسيكون نزولهم في عكا . غير أنه بعد أن تأكد له أن مصر هي الهدف الأول لهم ، وأنهم توجهوا إليها فعلاً ، قرر رفع الحصار عن حمص والعودة إلى مصر ، كما أمر جيوشه في الشام أن تتبعه إليها^(٢) .

وبما أن علاقة الإمبراطور الألماني (فريدريك الثاني) كانت جيدة مع الملك الكامل ، ووفياً لتعهداته معه ، فإنه عندما علم بنوايا الملك (لويس التاسع) وبالحملة الجاري إعدادها ضد مصر ، فإنه حذر بدوره الملك الصالح ، والذي كان تحذيره له بمثابة خطوة إيجابية من طرفه. إذ أرسل للملك الصالح كتاباً جاء فيه : ((إحترس ، أعلم أن الفرنسيين وعددهم ستون ألفاً ينوون أن يقتحموا القدس ، وأن يستولوا أولاً على مصر))^(٣) . كما أشارت بعض المصادر إلى أن رسول الإمبراطور وصل إلى دمشق في هيئة تاجر ، وأخبر الملك الصالح سراً بما عزم عليه (لويس التاسع)^(٤) . وكان ذلك وفاء من الإمبراطور لنوع من المودة التي كان يحملها لوالده الملك الكامل ، ولعدم رغبته في محاربة المسلمين^(٥) . وفي رواية أخرى أن التجار البنادقة هم من أوصل خبر الحملة إلى الملك الصالح لعلاقتهم التجارية الواسعة مع مصر ، ومعارضتهم للحرب ، ولشعورهم أن الحرب لو وقعت فأتها سوف تهدد مصالحهم التجارية هناك . وفي الوقت ذاته ، فإن الفترة الطويلة التي أمضاها الصليبيون في قبرص كانت هي الأخرى كفيلة بتسريب المعلومات إلى مصر^(٦) . لذلك شرع الملك الصالح في اتخاذ قرارات سياسية مهمة لتثبيت

(١) شليبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج ٥ ، ص ٤٨٦ .

(٢) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥١ ؛ العسلي : فن الحرب الإسلامي ، مج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٣) زابوروف : الصليبيون في الشرق ، ص ٣١١ .

ومن البديهي أن الكنيسة الكاثوليكية كانت قد اتهمت الإمبراطور فريدريك الثاني بخيانتته للقضية المسيحية ، وبلغ حقد الكنيسة عليه أن اتهمته بالهرطقة ، واعتبرته خارجاً على تعاليمها ((يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مطبعة العالم العربي ، (القاهرة / لا.ت.) ، ص ٩)).

(٤) ابن كثير : البداية ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ؛ وينظر : ابن خلدون : العبر ، مج ٥ ، ص ٣٥٩ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤١ .

(٥) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٥٥ . ومما ذكر في هذا السياق أن فريدريك الثاني كان قد حزن كثيراً عند وفاة صديقه الملك الكامل ، فأوفد إلى مصر أحد رجاله ويدعى روجر الصقلي لتقديم العزاء إلى ولده الصالح نجم الدين . (تمام ، أحمد : السلطان الكامل قرط فيما لا يملك ، بحث منشور على شبكة الانترنت ، على الموقع :

(Http : // www . Islamonline . net / Arabic / : History / 1422 / 10 / ArticLe 08 .html) .

(٦) يوسف ، جوزيف نسيم : ١. لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٤ ؛ ٢. العدوان الصليبي على مصر ، ص ٨١ .

ملكه وضمان الاستقرار في بلاد الشام ومصر ، وذلك باستبعاد من يشك في إخلاصه وولائه ، وتنصيب من يثق بهم مكانهم . فبادر إلى عزل (جمال الدين بن مطروح) نائبه في القاهرة ، وعيّن بدلاً منه (حسام الدين أبو علي بن أبي علي الهذلي) لينوب عنه بها^(١) في حالة غيابه عنها ، فباشر مهامه بها في السابع عشر من محرم ، الموافق الثاني عشر من أيار سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)^(٢) . كما أمر بعزل الطواشي (شهاب الدين رشيد) عن قلعة دمشق ، واستدعى (جمال الدين بن يغمور) من القاهرة ، وأرسله لينوب عنه بدمشق^(٣) . وقد وصل الأمير المذكور إلى دمشق نائباً بها عن الملك الصالح في العاشر من صفر من ذلك العام^(٤) . إلا أن الملك الصالح مرض في هذه الفترة الحرجة، ولم تعد لديه القدرة على قيادة الجيش بنفسه، فأمر وزيره الأمير (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) أن يتولى قيادة الجيش بدلاً منه^(٥) ، فغادر دمشق متوجهاً إلى الديار المصرية^(٦) ، ونزل بأشموم اطناح^(٧) . ويبدو مما تقدم أن الملك الصالح لم يجز أي مشاورات سياسية مع الخلافة العباسية في بغداد ، والتي كانت تعاني هي الأخرى من حالة ضعف وتهديد مغولي في هذه الفترة ، فاعتمد على قواته الذاتية لصد العدوان .

ب . التهيئة العسكرية

وكما أشرنا سابقاً ، بعد وصول الملك الصالح إلى مصر ، أمر على الفور باتخاذ عدداً من الإجراءات العسكرية من أجل إعدادالعدو لدفع شروره ، كان من بينها تكديس مواد التموين وبكميات كبيرة ، مع إدخال كميات ضخمة من الأسلحة والآلات التي يحتاجها المقاتلون في مدينة دمياط^(٨) . وذلك لأهميتها من الناحية السوقيّة والعسكرية ، لذا أسرع في تحصين المدينة ، خوفاً أن يجري عليها ما جرى من تعرضها للعدوان الصليبي في أيام والده الملك الكامل قبل ذلك التاريخ بثلاثين عام . لأن التجارب أثبتت له اختيار الصليبيين لها

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨١ .

(٢) يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٣١٧ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١٧٧ .

(٥) رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥١ .

(٦) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١٧٧ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٣١٧ .

(٧) يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٣ .

ومدينة اشموم اطناح من المدن المصرية القديمة ، تقع على الشاطئ الشرقي لبحر اشموم ، وقريبة من دمياط . (ابن

دقماق : الانتصار ، ق ٥ ، ص ٦٨ . ٦٩) .

(٨) الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٧٩ .

كنقطة ارتكاز كلما فكروا بالاستيلاء على مصر^(١).

من جهة أخرى ، لم يخفَ على الملك الصالح أهمية القوة البحرية وضرورتها في التصدي للعدوان القادم عن طريق البحر . فبعث إلى الأمير (حسام الدين بن أبي علي الهدياني) نائبه في القاهرة ، وأمره أن يُجهز قطع الأسطول في دار صناعة مصر ، وأن يُهيئ معها العِدة والرجال . فاستجاب الأمير حسام الدين لأمر الملك الصالح ، وباشر بتجهيزها . كما سَيَّر معها الرجال وما يحتاجه الأسطول من سلاح وآلات . كذلك قام الملك الصالح بتجهيز قوة نظامية كبيرة ، وأسند قيادتها إلى الأمير (فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ) ، وأمره أن ينزل بالجيش على جزيرة دمياط في البر الغربي للمدينة . وجعل مهمتها أن تقف بوجه الصليبيين إذا قدموا ليمنع نزولهم إلى الشاطئ، فامثل الأمير فخر الدين للأمر ، وتحرك بجيشه نحو دمياط ، فنزل بالجيزة وصار النيل بينه وبينها^(٢).

أما واجب الدفاع عن مدينة دمياط من الداخل ، فقد أسنده إلى قوات من بني كنانة ، وهم من القبائل العربية المعروفة بالشجاعة ، وذلك من أجل المحافظة عليها والدفاع عنها^(٣) . ويبدو أن الملك الصالح قام بكل ما يراه مناسباً من إجراءات عسكرية في الدفاع عن مدينة دمياط .

أما عن حجم القوات التي أعدها الملك الصالح لمواجهة القوات الصليبية ، فأن المصادر لم تذكر أي تقديرات عديدة . لكن المعروف عنها أنها اقتصرَت على القوات المصرية ، والتي قُدرت من قبل بعض المؤرخين المحدثين^(٤) . على سبيل التخمين . بخمسة عشر ألف مقاتل نظامي ، مضافاً إليهم المجاهدين من بني كنانة ، الذين أسند إليهم واجب الدفاع عن المدينة من الداخل ، إذ قُدر عددهم ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل . مما يبين أن الفارق كان كبيراً بين القوات المدافعة المصرية والقوات المهاجمة الصليبية .

ثالثاً . سير المعركة

يُعد نزول القوات الصليبية إلى البر الغربي من دمياط إنذاراً ببدء المعركة الفعلية بين الجانبين ، والتي

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤١ .

(٢) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤١ ؛ العبادي والسيد عبدالعزيز سالم : تأريخ البحرية الإسلامية ، ص ٢٣٦ .

(٣) ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ؛ Lane-pooLe : op . cit , p . 233 .

وبنو كنانة ، قبيلة من عذرة ، وهي من القبائل التي شاركت في فتح مصر على يد عمرو بن العاص فاستقروا بها ، وسكنوا بالأخص في منطقة الدقهلية القريبة من دمياط . (يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٨٣) .

(٤) الحميدة : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ .

سارت على ثلاث مراحل ، تمثل كل واحدة منها صفحة من صفحاتها . انتهت الأولى باحتلال دمياط ، و اقتضت الثانية على مناوشات متتابعة لم تحسم المعركة ، حتى انتهت بوفاة الملك الصالح . أما المرحلة الثالثة فبدأتها كانت بعد موت الملك الصالح وحتى تحرير دمياط . وللقوف على سير الأحداث في هذه المعركة ، سنتناولها تباعاً وفق ما يأتي :

أ . سير المعركة حتى احتلال دمياط

حال وصول القوات الصليبية إلى الضفة الغربية المواجهة لدمياط ، عقد (لويس التاسع) مجلساً للحرب ، تدارس فيه الموقف مع قادة جيشه ، الذين طرحوا عليه فكرة الانتظار لحين وصول بقية القطعات التي أبحرت بعده بصورة متتابعة . لكن الملك (لويس التاسع) رفض الفكرة ، وقرر البدء بتنفيذ عملية الإنزال إلى البر في صباح اليوم التالي . وكانت غايته من ذلك هي عدم إعطاء الفرصة الكافية للقوات الإسلامية لترتيب دفاعاتها^(١) .

وفي الصباح الباكر من يوم السبت الحادي والعشرين من صفر ، الموافق الخامس من حزيران سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، وبعد الاستماع إلى الموعظة الدينية من قبل الكاهن ، والتي كانت تقليداً يسبق المعركة لدى الصليبيين ، باشر الملك (لويس التاسع) وإخوته والبارونات والفرسان ، وكذلك المشاة وأصحاب المجانيق عملياتهم العسكرية ، فنزلوا من على ظهر السفن الحربية الكبيرة إلى السفن الصغيرة لكي يقتربوا من الضفة النهر ، فيكون لهم موطئ قدم على الأرض . لكن السفن الصغيرة لم تكن قادرة تماماً من الوصول إلى حافة الشاطئ ، وذلك بسبب ضحالة المياه هناك . لذا قام الملك (لويس التاسع) ومن معه ، بإلقاء أنفسهم في الماء . وهم مبتهجين . يحدوهم الأمل بالنصر ، فخاضوا فيه . قالت عنهم (Pernoud) وهي تصف حالهم : ((وهم شجعان يدعمهم الرب لمواجهة أعداء الصليب))^(٢) .

وفي هذه المرحلة بدأت الصفحة الأولى من صفحات المعركة ، فقد كان بانتظارهم على ظهور الخيل مجموع من القوات المصرية بقيادة الأمير فخر الدين ، ومهمتها منع الغزاة من النزول على البر الغربي . فاشتبكوا مع القوات الصليبية في معركة استخدموا فيها النبال والسهم ، والتي فتكت بعدد منهم^(٣) . لكن تفوق القوات الغزية بالعدد والعدة ، جعل ميزان القوة يميل لصالح الصليبيين ، الذين تمكنوا من النزول إلى البر^(٤) . كما

(1) Pernoud :op .cit , p . 256 ;

وينظر : يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٧ .

(2) The crusaders, op .cit , p . 256.

(٣) يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٨ .

(٤) يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ١٨ ؛

استشهد في هذه المعركة الأمير (نجم الدين يوسف بن شيخ الإسلام) والأمير (صارم الدين أزيك الوزيري)، وهما من المقربين للملك الصالح^(١)، كما قتل وجرح عدد غير قليل من المقاتلين المسلمين. في حين لم يقتل من القوات الصليبية إلا القليل، وهو ما دفع بالأمير فخر الدين إلى إصدار أوامره بالانسحاب^(٢)، وهناك من ذكر سبباً آخر لتراجع القوات المصرية، وهو اعتقاد فخر الدين بموت الملك الصالح، إذ كان قد أرسل ثلاث رسائل بواسطة الحمام الزاجل، أخبره فيها بنزول الصليبيين إلى البر الغربي ولكنه لم يتلقَ الجواب، لذلك تصور خطأً أن الملك الصالح قد مات، وبما أن فخر الدين كان راغباً أن يكون إلى جانب الملك حال وفاته طمعاً في السلطة لنفسه، لذا أثر الانسحاب بسرعة من الضفة الغربية^(٣). وتحت تأثير تلك الأطماع، عبر بهم الجسر ليلاً إلى الضفة الشرقية، وهو الجانب الذي تقع فيه دمياط^(٤)، وترك الجسر سالماً بعد عبوره عليه، وهو خطأً جسيم آخر ما كان لقائد عسكري أن يقع فيه، إذ سمح للغزاة بالسيطرة عليه بعد انسحابه منه^(٥)، وبذلك انفتح الطريق أمام الصليبيين إلى دمياط. كما لم يجرؤ فخر الدين على الصمود في الضفة الشرقية، بل توجه إلى الجنوب نحو أشموم أطناح. ذكر ذلك المقريري هذه الواقعة بنوع من الأسى وقال: ((رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جنباً وصَلَفَ، وسار بهم إلى جهة أشموم أطناح في بر دمياط))^(٦).

من جهة أخرى كان على الأمير فخر الدين أن يبقى في دمياط ويتخذها قاعدة دفاعية له فيما لو نجحت القوات الصليبية في العبور، أو أن يترك قسماً من قواته لمنع الصليبيين من عبور النهر والدفاع عن المدينة عند اللزوم، لكنه لم يفعل ذلك^(٧). وعندما وصل خبر انسحابه إلى أهل دمياط، وبَلَغَهُم هجوم القوات الصليبية وكثرها هالهم الأمر^(٨)، واستولى الرعب على نفوسهم، فقرروا قبل مغادرتهم المدينة، إشعال النار في الأسواق والمنازل ودار السلاح التي كانت تُسمى ((الزردخانة))^(٩)، وذلك حتى لا ينتفع بها العدو. ثم تركوا المدينة

Pernoud : op .cit , p . 256.

(١) المقريري : ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٥ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢.

(2) Pernoud : op .cit , p . 256.

(٣) العبادي والسيد عبدالعزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(4) Pernoud : op .cit , p . 256.

(5) Lane-Poole : op .cit , p . 232 - 233.

(٦) المقريري : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢.

(٧) الحميدة : الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٦٧.

(٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٢.

(٩) يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ١٨.

أفراداً وجماعات ، كباراً وصغاراً . وكان فرارهم من دمياط في يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر ، الموافق السادس من حزيران من سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)^(١) .

وقد سلتل قطاع الطرق من العُربان حالتهم البائسة هذه ، وسلبوا أمتعتهم، مما أذّر على معنويات المقاتلين من بني كنانة، المكلفين بواجب الدفاع عن دمياط، ((فَلَوْلَا الْأُدْبَارُ ، وَتَرَكُوا أَبْوَابَهَا مُفْتَحَةً))^(٢) . وهكذا هرب جميع من في المدينة من النساء والأطفال ، وكذلك الرجال ، المقاتلين منهم والعامة . وبدأ كلام الناس في الأمير فخر الدين ذُو مَهْمٍ له بسبب تخاذله وهزيمته ، كما اشتد عليه غضب الملك الصالح^(٣) . وذلك لأن دمياط كانت مُحَصَّنَةً ، وكانت مشحونة بالمقاتلين والأسلحة والذخائر والمؤن تَحْطُوطاً لِمَا قَدْ يُصَيِّهَا كما أصابها من قبل أيام الملك الكامل^(٤) .

فبعد أن أُخليت دمياط من أهلها ، ومن جميع وسائل الدفاع عنها ، وكذلك من خلال الدخان الذي تصاعد في سماءها وبعد أن أرسل لويس مستظلاً من جنده، فجّال في المدينة بعد أن دخلها دون عناء، وعاد ليخبره بأن دور السلطان فارغةً أُحيط الصليبيون علماً بهزيمة المسلمين منها. فعبرت القوات الصليبية إلى البر الشرقي صباح يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر ، الموافق السادس من حزيران ، وتقدمت نحو دمياط التي كانت إلى الشمال من منطقة العبور ، فوجدتها خالية ، ودخلتها دون قتال^(٥) . وفي رواية أخرى أن القوات الصليبية دخلت مدينة دمياط في شهر ربيع الأول^(٦) . وأشارت المصادر إلى أن الصليبيين ظنّوها مكيدةً في بداية الأمر ، وتمهلوا في دخولها ، ولكن بعد أن تأكدوا من خطئها من أهلها ومن وسائل الدفاع عنها دخلوها بيسر ، فاستولوا على ما تبقى فيها من الأسلحة والمؤن وسائر الأموال^(٧) . ثم باشروا على الفور بملا أسوار المدينة بالمقاتلين والآلات^(٨) . وهكذا كان لخبر احتلال دمياط أثراً موجعاً ووقعاً صاعقاً على جميع الناس في مصر^(٩) ، أما الملك الصالح

Pernoud :op .cit , p . 256.

- (١) يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ١٠٧ ، ٣١٨ .
- (٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٥ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٦١-١٠٦٢ .
- (٣) الأسحاقي : أخبار الدول ، ص ١٢٩ .
- (٤) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
- (٥) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .
- (٦) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٣ ؛ ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١٧٧ .
- (٧) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ؛ المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٠ .
- (٨) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .
- (٩) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

الذي كان يعاني من مرضٍ شديد ، فإنه تأثر لسقوط دمياط ، إلا أنه بذل ما في وسعه في الصمود وإعادة النظام إلى صفوف جيشه ، الذي كان متحشداً في المنصورة^(١) . وقد ذكر رنسيما أن الملك الصالح عرض على الصليبيين أن يسترد دمياط ، مقابل تنازله عن بيت المقدس ، لكن العرض رُفض من قبل الصليبيين وخاصة الملك (لويس التاسع) ، الذي كان مغتراً و يشعر بالنصر ، ويرفض أي تعامل مع المسلمين^(٢) .

أما على الصعيد الداخلي في مصر ، فقد استشار الملك الصالح علماء الدين عن أمر تخاذل القادة المسؤولين عن حماية دمياط من بني كنانة ، والذين انسحبوا منها بلا إذن ، فصدرت الفتوى بجواز إعدامهم ، وصدر الأمر بإعدام أكثر من خمسين أميراً منهم^(٣) ، أو نحو خمسين أميراً ومعهم نائب دمياط . وفي رواية أخرى أخرى أنه أعدم من أعيانهم ستين رجلاً وهرب الباقيون خوفاً أن يجري عليهم ما جرى على أولئك^(٤) . أما أبو الفداء فذكر رواية مختلفة وهي إعدام جميع المكلفين بحماية دمياط من بني كنانة ((فشنقوا عن آخرهم))^(٥) . وهي رواية لا يمكن القبول بها ، لأنه لا يمكن إعدام جميع القوة المكلفة بحماية دمياط من بني كنانة لكثرتهم ، ولكن ربما كان يقصد جميع الأمراء المسؤولين عن الهزيمة . كما اشتد حقد الملك الصالح على الأمير فخر الدين ، فأمر بعزله مع كبار قادة المماليك . وفي رواية أخرى أن الملك الصالح لم يعزل الأمير فخر الدين ، لأن الوضع في ذلك الوقت لم يَتَّسِع ((غير الصبر والإغضاء))^(٦) ، إذ يكفيهم ما هم فيه آنذاك من هُصيبة الاحتلال . ومع ذلك بدأ المماليك يشعرون بالخوف والقلق من الملك الصالح ، وبدأت مؤامراتهم تُحاك ضده ، من أجل القيام بثورة داخل قصره الملكي^(٧) . غير أن الأمير فخر الدين حال دون ذلك ، وأثناهم عما عزموا عليه ، وأشار عليهم بالصبر ، فأقنعهم بأن الملك الصالح على حافة الموت ، فلا داعي للثورة عليه ونظراً لما أظهره الأمير فخر الدين من ولاء ، أمر الملك الصالح برده إلى ما كان عليه من الجاه والمقام الرفيع^(٨) .

أما سير المعركة في الجانب الصليبي ، فبعد النصر الذي حَقَّقْوه باحتلال دمياط ، فأُتهم لم يستثمروا ذلك النصر بمطاردة القوات الإسلامية المنسحبة نحو أشموم اطناح ، ومن ثم السير باتجاه القاهرة قبل أن يفيض النيل ، في

(١) ماير : تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧.

(٢) تأريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ ؛ العسلي : فن الحرب الإسلامي ، مج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ الأسحاقي : أخبار الأول ، ص ١٢٤ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١١٦ .

(٥) المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٢ ؛ وينظر : ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٧٩ .

(٦) المقرئزي : ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ .

(7) Pernoud : op .cit , p . 211.

(٨) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٣ . ٧٧٤ ؛ المقرئزي : ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ٢. السلوك ، ج ١

ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

وقت كانت فيه القوات الإسلامية مدعورةً لحسارة دمياط ، ومشلولة القيادة لمرض ملكها الصالح^(١). إذ قرر الملك (لويس التاسع) ، قضاء فصل الصيف في دمياط بانتظار مجيء شقيقه (الفونس دي بواتيه) ، الذي تأخر في فرنسا لجمع التعزيزات . كما لم يضع في مُحَلَّتِهِ موسم الفيضان ، الذي كان سبباً مهماً في غرق الصليبيين وخسارتهم إبان الحملة الصليبية الخامسة^(٢) .

فكانت خطة (لويس التاسع) بعد احتلال دمياط ، تقضي بتقسيم قطعاته إلى قسمين : الأول . للدفاع داخل المدينة . أما القسم الثاني . وهو القسم الأكبر . فقد أمر بإعادته إلى الضفة الغربية ، حيث عسكر بالمنطقة القريبة من الجسر في مُقابل المدينة^(٣). في الوقت نفسه أخذ الصليبيون يعملون . بسرعة فائقة . على تحويل دمياط إلى مدينة صليبية ، إذ أمر بتأسيس أسقفية فيها^(٤) ، كما اتخذ قراراً خطيراً بتحويل جامع المدينة إلى كنيسة بأسم (نوتردام مريم العذراء) وعيّن لها بُطرقاً كاثوليكياً^(٥). فأخذت دمياط تستقبل الوافدين إليها من أوروبا ومن نصارى الإمارات الصليبية في بلاد الشام. وقد ازداد غرور (لويس التاسع)، وأخذ ينظر إلى مدينة دمياط على أنها مُلكٌ أبديٌّ له ، وكان ينظر على هذه الحال إلى بقية أقاليم مصر^(٦) ، التي سيحتلها بتصوره الخاطئ مستقبلاً، مستقبلاً، لذلك بدأ بعد سيطرته على مدينة دمياط بأعمارها^(٧). مما يدل على أهمية ومكانة مدينة دمياط بالنسبة لمصر ، لأن السيطرة عليها سَهَّلَ مهمة السيطرة على بقية المناطق الأخرى في المنطقة ، وفق سياسة التوسع والاستيطان الصليبي في بلاد الشام التي بدت ظاهرة للعيان .

ب . سير المعركة بعد احتلال دمياط

لم يكن بوسع المالك الصالح البقاء في مكانه بعد احتلال دمياط ، فأمر بالانتقال من القاهرة إلى المنصورة ، ليتحصن فيها لمنع الغزاة من التقدم إلى القاهرة ، ولتخذ المنصورة مقراً لأعماله العسكرية . فركب في سفينة حراقة ، ونزل بقصر المنصورة على شاطئ النيل ، وكان نزوله يوم الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من صفر ، التاسع من حزيران من السنة نفسها ، وظلَّ مُرابطاً فيها . رغم قساوة مرضه . وهو ينظم شؤون الدفاع . ثم أمر قواته بالانتقال إليها والتمركز جنوب ملتقى بحر أشموم للتحصن به ، والاستفادة منه كمانع مائي لإعاقة تقدم

(1) Lane-Poole : op . cit , p . 233.

(٢) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣، ص ٤٥٣ .

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣، ص ٤٥٣ .

(٤) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧ .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٨ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٦٢ .

(٦) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧ .

(٧) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج ٢، ق ٢، ص ٢٥٢-٢٥٤ .

القطعات الصليبية الغازية . فشرع جيشه على الفور بإصلاح سور المدينة وتحديد أبنيتها وإقامة الأسواق فيها^(١) . كما أمر بالنداء في مصر والقاهرة وأعلن : ((النفير العام)) ، طالباً إسناده بالتعزيزات والنجدة . وأوضح في النداء أن العدو قد احتل دمياط ، وبوادر جيشه قريبة من المنصورة ، فلا يتأخر عن دعوة الجهاد كبير ولا صغير^(٢) . وقد لى دعوة الملك الصالح أعداد كبيرة من المتطوعين من مختلف نواحي مصر وقراها من الراغبين في الجهاد ، وتجمعوا أفواجا ، و ((كانوا خلقاً عظيماً لا يحصى عددهم))^(٣) . وكان من بين تلك الجموع فرقة الحرافيش^(٤) ، التي كان له دور رائد في اصطلياد الغزاة وقتلهم أو أسرهم ، وإحراق سفنهم . كما كان للخطباء دوراً مجيداً في إثارة الحماس لدى الناس ، وكان من بينهم الخطيب الضرير (العز بن عبد السلام) ، الذي كان لكلماته وقع كبير في القلوب المؤمنة بالدفاع عن الوطن ، دفعت بعامة الناس من الشيوخ والفلاحين إلى المشاركة في الحرب^(٥) . فكان للشعب دور مشوّف في الوقوف إلى جانب الجيش في الدفاع ضد المعتدين الصليبيين . كما أمر الملك الصالح . في الوقت نفسه . بتهيئة القوة البحرية ، فتقدمت الشواني في نهر النيل حتى وصلت المنصورة ، وعهد إلى قاتليها واجب الدفاع عنها ومنع السفن الصليبية من التقدم نحو الجنوب^(٦) . وفي هذا الوقت الذي كانت فيه القوات الإسلامية تستعد لخوض المعركة ، كانت القوات الصليبية تهرثة عن الهجوم والتقدم نحو الجنوب آنذاك . إذ أقام (لويس التاسع) وجنوده بمدينة دمياط طوال أشهر صيف سنة (١٢٤٧هـ/١٢٤٩م) ، وما أصاب جيشه من شدة الحرارة الخانقة ، فضلاً عن قلة المؤن وحياة اللهو والدعارة التي عاشتها القوات الصليبية ، أدى إلى تفشي الأمراض بينها . الأمر الذي أدى إلى إضعافهم وتآثر على معنوياتهم^(٧) معنوياتهم^(٧) . فاستغلت القوات الإسلامية هذه الحالة لديهم ، وقامت بتوجيه أرتال خفيفة لمقاتلة الصليبيين في دمياط ، وذلك بالاستفادة من عاملي المباغتة وسرعة الحركة لتكبيدهم أكبر عدد من الخسائر ، بينما ملأ

(١) المقرئزي: ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ ؛ مبارك: الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٣) المقرئزي: ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

(٤) الحرافيش : فرقة محاربة من العامة المتطوعين ، تم تشكيلها في عصر صلاح الدين الأيوبي ، ولها قيادتها الخاصة . وهي تتقدم الجيش النظامي في الهجوم . وفي فترة الحملة الصليبية السابعة ، لم تزل تلك الفرقة باقية ، فكان لها دورها المميز سواء في مقاتلة الأعداء أو في إحراق سفنهم . (مصطفى ، شاعر : المدن في الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٩) .

(٥) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥ ؛ سليم ، محمود عبد الرزاق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، المطبعة النموذجية ، ط ٢ ، (مصر/ ١٩٦٢م) ، ج ١ ، ص ٩ .

(٦) شهدت القوة البحرية في أواخر أيام الملك الصالح اهتماماً ملحوظاً . وما يدل على اهتمامه بالأسطول أنه كتب إلى ولده توران توران شاه وصية قال فيها : ((فالأسطول أحد جناحي الإسلام ، فينبغي أن يكونوا شباعاً . ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهماً مستمرة راتباً جاءوا من كل فج عميق)) . (ربيع : النظم المالية في مصر ، ص ٧٢ . ٧٣) .

(٧) الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٧٩ .

الصليبيون أسوار المدينة بالمقاتلين وآلات القتال^(١) . كما انطلق العُربان من البدو المشهورين بحرب العصابات ، وأخذوا يجوبون الريف المحاذي لدمياط ، وتقدموا حتى وصلوا أسوارها ، فكانوا يقتلون كل من يعثرون عليه من الغزاة خارج السور^(٢) ، وأسِر كل من قَدروا على أسْرِه وإرسالهم تبعاً إلى القاهرة . حتى بلغ مجموع الأسرى من أول ربيع الأول لغاية الثالث من رجب) من ذلك العام مائتان وخمسون أسيراً^(٣) . وقد أكد المستشرق الغربي (Lane-Poole) هذه الحالة، إلا أنه بررها بأسباب مادية وهو مناقض للحقيقة ، فقال : ((كثيراً ما فوجئ الصليبيون بالمسلمين ، وهم يُغيرون متلهفين لقتلهم ، من أجل الحصول على مكافأة مقابل كل رأس كافر))^(٤) . والحقيقة أن المجاهدين المسلمين لا طمع لهم في شيء وراء جهادهم سوى تحرير الأرض وطردهم الغزاة . على خلاف ما قاله بُول ، والذي يعكس وجهة النظر الغربية في الطعن بالمسلمين والتقليل من أهمية إيمانهم وجهادهم في مقارعة الغزاة .

كما كان للشواني المصرية دورها في شن غارات سريعة على الغزاة ، إذ تمكنت في بعض الغارات من الظفر ((بمسطح للفرنج في البحر)) ، وهو عبارة عن سفينة حربية وما عليها من مقاتلين ومُؤن^(٥) ، وكان ذلك بالقرب من بلدة نستراوة^(٦) . ثم استمرت القوات المصرية . البرية والبحرية . بالإغارة على الصليبيين ومناوشتهم ، وهو ما دفع بالقوات الصليبية إلى تحصين أسوار دمياط ودعمها بالمقاتلين^(٧) .

كما أن أهل دمشق ، بعد أن بلغهم ، خبر احتلال دمياط ، قاموا بعدد من الغارات على معقل الصليبيين المتبقية في الساحل الشامي ومضايقة الصليبيين في بلاد الشام ، بهدف الضغط وتقليل إمداد القوات الصليبية في مصر . كما تمكن المقاتلون من أهل دمشق من الاستيلاء على صيدا بعد حصار وقتال . فوصلت أخبارها إلى مصر في الخامس والعشرين من ربيع الثاني ، الموافق التاسع والعشرين من حزيران من ذلك العام ، وفرح الناس بمصر بذلك الخبر فرحاً شديداً^(٨) ، مما يدل على تواصل الروح المعنوية والقتالية بين المسلمين وتضامنهم عند الشدائد .

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ الحميدة : تأريخ الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

(٢) العسلي : فن الحرب الإسلامي ، مج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٣) وقد فصل المقرئزي ذلك ، وأوضح أنه في شهر ربيع الأول تم أسر ٣٦ ، وفي اليوم الخامس من شهر ربيع الثاني تم أسر ٣٩ ، وفي اليوم السابع من ذلك الشهر أُسر (٢٢) ، وفي السادس عشر من الشهر ذاته تم أسر (٤٥) . وفي شهر جمادي الأولى تم أسر (٥٠) ، أما في شهر رجب فتم أسر (٤٧) من المشاة و(١١) فارس . (الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠) .

(4) A History of Egypt ,op .cit , p . 233.

(٥) المقرئزي : ١. الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ ٢. السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ .

(٦) نستراوة : جزيرة بين دمياط والإسكندرية . (الحموي : معجم البلدان ، مج ٥ ، ص ٢٨٤) .

(٧) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ .

(٨) يوسف ، جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى ، دار النهضة العربية ، ط ٣ ،)

ومما يزيد من صعوبة الأمر ، في هذه الأوقات العصيبة هو اشتداد مرض الملك الصالح الذي أخذ يتزايد ، حتى يئس الأطباء من شفائه^(١) ، إذ وافته المنية وهو في المنصورة ، ليلة الأحد في النصف من شعبان ، الموافق الحادي والعشرين من تشرين الثاني من نفس سنة^(٢) . وكانت مدة حربه مع الصليبيين أربعة عشر شهراً . فدفن في قلعة الروضة تحت قبة بنيت له بجانب المدرسة الصالحية^(٣) . والذي يبدو أن حالة دفنه كانت سرية ، وذلك نتيجة لشجاعة ودهاء زوجته (شجر الدر) التي أخفت خبر وفاته عن الناس ، إلا عن بعض خاصته من القادة ، تقديرًا منها لتلك الفترة الحرجة من تأريخ مصر . فأمرت بحضور الأمير (فخر الدين) و(الطواشي جمال الدين محسن) المسؤول عن أمر المماليك وحاشية القصر ، فأعلمتهما بوفاته^(٤) . وذكرت لهما أن الملك الصالح أمر بالملك بعده لولده المعظم (توران شاه) المقيم بحصن كيفا في بلاد الجزيرة^(٥) . فجعلت شجر الدر (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) قائداً للجيش^(٦) ، الذي شرع في تخليف و مبايعة العسكر للملك الصالح وولده المعظم توران شاه بولاية العهد من بعده . كما جرت في القاهرة مراسيم التحليف و المبايعة لبقية الأمراء بدار الوزارة ، عند الوزير (حسام الدين بن أبي علي) ، في يوم الخميس الثامن عشر من شعبان ، الموافق الرابع والعشرين من تشرين الثاني من تلك السنة^(٧) . عندها أرسلوا الفارس (أقطاي)^(٨) ، أو (أقطايا) إلى الملك المعظم توران شاه لأخباره بالحدث وحضوره . واستمرت الحال على ما كانت عليه من إحضار موائد الطعام وإصدار الكتب والمراسيم بالعلامات السلطانية ، إذ كانت الكتب والمراسيم تكتب بخط خادمه (سهيل) ، ولم يشك أحد أنها بخط الملك الصالح^(٩) . وهكذا استطاعت شجر الدر أخذ البيعة لتوران شاه ولفخر الدين بقيادة الجيش^(١٠) ، وتمكنت من حفظ

بيروت/١٩٨١م) ، ص ٢٨ .

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٢ .

(٢) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١٧٧ .

(٣) الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(٤) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٥) كيفا : بلدة تاريخية على نهر دجلة من الأعلى ، وهي الآن داخل الحدود التركية المجاورة للعراق ، وتسمى حالياً :

حسنكيف . (شلبي : موسوعة التأريخ الإسلامي ، مج ٥ ، ص ٤٨٦) .

(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ .

(٧) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٨) أقطاي : هو مقدم المماليك البحرية ، وتجدر الإشارة إلى أن الملك الصالح هو أول من اشترى المماليك واتخذ الكثير منهم في الجيش ، وبنى لهم قلعة الروضة وأسكنهم فيها ، وأسماهم المماليك البحرية . (الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٨) .

(٩) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ .

حفظ الجيش وإبعاده عن حالة الفوضى والاضطراب بعد وفاة الملك الصالح ، فأُنقذت الموقف العسكري ببالغ الحذق والقوة والحزم . وبقي خبر وفاته طي الكتمان لغاية يوم الاثنين الثاني والعشرين من شعبان ، الموافق الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، حتى تمكن توران شاه من الوصول إلى القاهرة واستلام زمام الأمور ، وقد أشار الحنبلي إلى أن مدة كتمان موته دامت ثلاثة أشهر^(٢) . وأن شجر الدر استمرت بتصريف الأمور إلى أن وصل المعظم توران شاه^(٣) ، الذي سار من حصن كيفا ووصل دمشق في رمضان وعيّد بها ، ثم وصل المنصورة يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة ، الموافق العشرين من شباط سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)^(٤) . وفي رواية أخرى أن الإعلان عن وفاة الملك الصالح ظلّ سراً حتى ذلك اليوم ، إذ لم يكن أحداً يُؤقّل ذلك التأريخ على البَوح به^(٥) .

ج . سير المعركة بعد وفاة الملك الصالح

عندما كان الملك الصالح على فراش الموت ، كان أمل الملك (لويس التاسع) أن يتمكن من الاستيلاء على دميّاط في الفترة التي يكون بها المسلمون منقسمون على أنفسهم في نزاع حول انتخاب من يخلفه^(٦) . لذلك تشجّع الصليبيون عند سماعهم نبأ وفاته ، وتراءى لهم أن حكومة مؤلفة من امرأة هي شجر الدر ، وقائد كهيل هو فخر الدين ، لن تقوى على الصمود أمام قوتهم^(٧) . إلا أن الأحداث المتتالية للمعارك أثبتت عكس ذلك ، إذ أن الغارات الإسلامية ظلّت متتابعة ضلّهم ، فضلاً عما أصابهم من شحّة في مواد التموين ، والتي أوشكت على النفاذ داخل معسكرهم في المدينة ، وما رافق ذلك من جشع التجار وارتفاع الأسعار . كما أن العوامل الطبيعية كان لها دورها في المعركة وفي إنهاك الصليبيين ، إذ هبّت ريح عاصفة قوية على الوجه الرّيح تَسبَّحَتْ في تحطيم وإغراق أربع مائة سفينة من سفنهم ، مما تسبّب في إضعاف معنوياتهم ، وأصبح موقفهم حرجاً ، لولا وصول تعزيزات جديدة إليهم من فرنسا بقيادة الكونت (دي بواتيه) شقيق الملك (لويس التاسع) . وكان ذلك في الخامس عشر من رجب ، الموافق الرابع والعشرين من تشرين أول سنة (

(١) ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ١٧٧ ؛ العسلي : فن الحرب ، مج ٤ ، ص ٢١٩ .

(٢) شفاء القلوب ، ص ٤٣٠ .

(٣) ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٧٧ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٣٢٤ .

(٥) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٤ .

(٦) ويست : الحروب الصليبية ، ص ١٥٠ .

(٧) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

١٢٤٩هـ/١٢٤٩م). كما أن مياه النيل قد انخفضت عن مستواها، مما أدى إلى تحسن في الموقف العام، ودفع ذلك الملك (لويس التاسع) إلى التفكير في مواصلة الحملة نحو تحقيق أهدافها النهائية باحتلال ما تبقى من بلاد مصر. ودعا إلى عقد مجلس للحرب في السابع عشر من رجب، الموافق السادس والعشرين من تشرين أول، فاقترح عليه كونت بريطانيا المدعو (كليرك) بالتوجه إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها. مُبرراً اقتراحه بأن غزو الإسكندرية يُسهل عليهم مهمة تموين القطعات العسكرية، ويضمن لهم سهولة الاتصال بالغرب. وقد أيد هذا الاقتراح غالبية قادة الجيش. في حين عارضه الكونت (دي آرتو) شقيق الملك (لويس التاسع) وأصرَّ على ضرورة الوصول إلى قلب القاهرة^(١)، عن طريق دمياط. المنصورة، مع ترك حامية قوية في مدينة دمياط لحمايتها والدفاع عنها عند اللزوم. ورغم شدة المحاذير التي تُحْفُ بالمقترح الثاني، فإن البعض من القادة الغربيين. وبدافع الطمع في السيطرة على باقي أقاليم مصر. فضلوا الأخذ به. لأن القاهرة هي العاصمة ومقر القيادة السياسية، وأن احتلالها سيؤدي إلى احتلال البلاد كلها، وهو الأمر الذي دفع (لويس التاسع). قائد الحملة. إلى الإسراع باتخاذ قرار التوجه نحو القاهرة^(٢) وبقراره بأن احتلالها يعني ضرب رأس الأفعى بالنسبة له. لذا خاطر الصليبيون بتقديم عسكري لا تُعرف نتائجه، ومليء بالعقبات، عبر بلاد متعددة القنوات وفروع الأنهر، بدلاً من أن يختاروا طريقاً آخر أكثر سهولة، وأيسر في التقدم^(٣).

وبعد أن تم اتخاذ القرار بالتوجه نحو القاهرة، ووضَع خطة للتقدم تنطلق من قاعدتهم في مدينة دمياط، و ترحف القوات منها باتجاه بحر أشموم^(٤)، وعلى أن يكون التقدم برتلين الأول بـ.ي وتسلّك فيه القطعات البرية الطريق المحاذي للضفة الشرقية من فرع دمياط في المنطقة المسماة (جزيرة دمياط). ومعنى هذا أن بحر أشموم سيعترض طريقهم للوصول إلى المنصورة، التي فيها مركز تجمع القوات المصرية. أما الرتل الثاني وهو بحري، حيث يتقدم الأسطول الصليبي في النهر وبمحاذاة الرتل البري لإسناده تموينياً وعسكرياً^(٥).

وقد شرعت القوات الصليبية في تنفيذ خططها بتاريخ الثاني عشر من شعبان، الموافق العشرين من تشرين ثاني سنة (١٢٤٩هـ/١٢٤٩م)، وأخذت بالتهيؤ والاستعداد للحركة على الضفة الشرقية من دمياط باتجاه

(1) Grousset :Vol.3 , op. cit , p. 448.

(2) Lane-Poole:op .cit , p . 233.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٦.

(٤) يُنظر الخارطة في الملحق رقم (٩).

(٥) اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٥ ؛ الحميدة : الحروب الصليبية، ج ٤ ، ص ٢٧٢.

القاهرة^(١). فقاموا ببناء جسور لعبور قواتهم ، وشرعوا للعمل به لمدة ستة أسابيع . غير أن السقائف التي كان يعمل من خلالها البناؤون قد أحرقتها القوات المصرية ، والتي كانت مستمرة في شن الغارات على الصليبيين . إلا أنه على الرغم من كل ذلك ، فقد بدأ الجيش الصليبي حركته الفعلية باتجاه القاهرة في التاسع عشر من شعبان ، الموافق السابع والعشرين من تشرين الثاني^(٢). مما أخذ يشكل خطورة واضحة على الموقف الإسلامي. الأمر الذي تطلب من القيادة العسكرية في المنصورة إرسال كتاب إلى القاهرة جاء في أوله: ((بسم الله الرحمن الرحيم ، آنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)) . وفي الكتاب مواعظ بليغة بالحث على الجهاد . فقرأ الكتاب على منبر جامع القاهرة ، واجتمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة وما حولها ، وأيقن الناس إن احتلال الصليبيين لبلادهم بات شبه مؤكد، خاصة وأن البلاد تعيش حالة فراغ سياسي. إذ أن توران شاه لم يصل بعد . ومع كل ذلك ، فإن عزيمة المصريين لم تضعف بهذا الخبر ، بل خرجت جُموع المتطوعين للجهاد من القاهرة ، ومن سائر المدن والقرى ، ((فاجتمع عالم عظيم))^(٣) . كما اجتمع سائر الأمراء وتحالفوا على الجهاد في سبيل الله^(٤).

وبينما كانت الاستعدادات جارية على قدمٍ وساق ، لدى المصريين الذين أعدوا العدة لدفع الغزاة ، فإن الملك (لويس التاسع) وجيشه كان . هو الآخر . يتحين الوقت ويتأهب لاحتلال المنصورة ، وبدأت معركة ضارية في المنطقة ما بين فارسكور وشارمساح في يوم الثلاثاء الأول من رمضان ، الموافق الثامن من كانون أول من السنة نفسها، استطاع الصليبيون خلالها من النزول إلى شارمساح ، كما تمكنوا من الوصول إلى اليرمون والنزول فيها . وشاع بين الناس فوضى واضطراب لقرب الصليبيين من المعسكر الإسلامي . وفي يوم الأحد الثالث عشر من رمضان ، وصل الجيش الصليبي تجاه المنصورة^(٥) ، وصار بين الصليبيين والمصريين بحر أشموم . عندها بادروا الصليبيون إلى حفر خندق من حولهم ، وبنوا من حوله سوراً ، كما نصبوا المجانيق . أما القوات البحرية الصليبية ، فقد صارت على الجانب الثاني من نهر النيل^١ مقابل شواني المصريين على شاطئ النيل في المنصورة . عند ذلك شن

(1) Grousset :Vol.3 , op. cit , p. 451,

ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٧.

(2) Stevenson : op. Cit. p .327 .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢١ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٥) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ ؛ ويُنظر الخارطة في الملحق رقم (٩)؛

Stevenson :op. Cit, p .327 .

الجيش المصري غاراته على الصليبيين شمال بحر أشموم ، واشتد القتال بينهما براً وبحراً^(١) .

واستمرت المعركة بعد ذلك بشكل غارات متقطعة ، ففي اليوم الأول من عيد الفطر أسّر المصريون منهم قائداً عسكرياً من أقارب الملك (لويس التاسع) فضلاً عن قتل وأسر العديد من جيشهم . وقد أبلى المتطوعون من عوام المسلمين بلاءً عظيماً ، حتى صار لدى المصريين طرائف في القتال وخطف الأسرى ، ومن أمثلة ذلك أن أحد الجنود المصريين وضع بطيخةً على رأسه وغطس تحت الماء حتى وصل قريباً من الصليبيين ، فظنّوه بطيخةً طافيةً في الماء ، فنزل أحد جنودهم لأخذها ، فتمّ الإمساك به من تحت الماء ، واقتيد إلى المعسكر الإسلامي^(٢) .

وقد كانت المناوشات والمعارك سجّالاً مع الصليبيين ، حتى تمكن المسلمون من السيطرة على شونة للصليبيين ، فأسر قائداً ومعه مائتا رجلٍ . ثم احتدم القتال مرة أخرى وكان على أشده ، حتى كان النصر للمسلمين ، إذ قتل فيه أربعون فارساً صليبيّاً ، أما الأسرى منهم فأخذوهم إلى القاهرة وكان عددهم بحدود سبعة وستين أسيراً من بينهم ثلاثة من قادة الداوية . كما تمكنت القوات المصرية من إحراق سفينة كبيرة للصليبيين^(٣) ، حتى صار ميزان القوة يسير لصالح المسلمين .

إلا أن الصليبيين تمكنوا من عبور بحر أشموم من (مخاضة سلمون) التي دلهم عليها أحد الخونة من غير المسلمين^(٤) ، ذكر ذلك زابورف ذلك وقال: ((وساعدتهم الخيانة))^(٥) ، فعبروا منها ، واجتازوا فرع النيل يوم يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة^(٦) . وبدأت طلائع جيشهم بقيادة (روبرت أرتو) ، بمهاجمة المعسكر الإسلامي واحتلته ، وقتلت قائده الأمير فخر الدين^(٧) ، الذي أثار استشهاده على معنويات المقاتلين ، إذ حصل حصل اضطراب في المعسكر الإسلامي ، وكادت الهزيمة تحل به . وفختر الصليبيون بهذا النصر الجزئي فتقدموا نحو

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢١ ؛ يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٣٢١ .

(٢) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٤) الاسحاقى : أخبار الأول ، ص ١٣٠ ؛ رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ ؛ المعاضيدى وآخرون :

الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٢١٩ .

(٥) الصليبيون في الشرق ، ص ١١٤ .

(٦) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ ؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ،

ج ١١ ، ص ٤٣ .

المنصورة^(١). وفي يوم الجمعة السابع من ذي القعدة سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ، حدثت معركة فاصلة أخرى مع الصليبيين كان النصر فيها للمسلمين ، حتى سُميت بمعركة يوم (الجمعة الشهيرة)^(٢) . خاصة بعد أن أعاد الجيش المصري تنظيمه بقيادة (الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري) ، ومعه طائفة من المماليك البحرية ، الذي وُضع خطةً لمعالجة الموقف ، تقضي بفسح المجال أمام الغزاة والسماح لهم بدخول شوارع المنصورة وأزقتها . كما أمر بإخفاء القوات المصرية بشكل مؤقت داخل الدور ووفقاً لهذه الخطة آقتلت قوات بيبرس قتالاً ضعيفاً مع القوات الصليبية ، ثم انهزمت أمامها^(٣) . حتى إذا ما دخلت القوات الصليبية إلى المنصورة فعلاً وبسهولة ودون مقاومة ، وعندما وصل الملك (لويس التاسع) إلى باب القصر السلطاني فيها^(٤) ، أصدر البندقداري أوامره بالانقضاض عليهم ، وحاصروهم في الشوارع الضيقة ، وساعد المصريون في ذلك أن ضخامة خيول الصليبيين أعاقتهم عن الحركة فيها^(٥) . فأبلى المقاتلون المسلمون بلاءً حسناً في مقاتلتهم بالسيوف والدبابيس و المقاليع والحجارة^(٦) . وبفضل التعاون بين القوات النظامية والأهالي تمكنوا من إزاحة الصليبيين عن مواقعهم ، حتى أصبحت بيوت المنصورة وأزقتها مقابر لعدد كبير منهم . أما الملك (لويس التاسع) فقد نجا بنفسه وتمكن من التراجع مع ما تبقى من قواته المهاجمة ، وكان من بين قتلاهم في هذه المعركة شقيقه (روبرت) حيث سقط صريعاً في أحد شوارعها^(٧) . أما عدد قتلى الصليبيين في هذه المعركة فبلغ ألف وخمسمائة فارس عدا المشاة ، حتى ذكر أنه : ((لولا ضيق المجال لما أفلت من الصليبيون أحد))^(٨) إلا أن ماير قدّر خسارتهم في هذه المعركة بألف قتيل^(٩) . أما من تمكن منهم من النجاة فقد وُي هارباً من أرض المعركة ، باتجاه الجزيرة المتصلة

(١) ماير : تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٨ .

(٢) يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٣٢١ .

(٣) ابن العبري : مختصر الدول ، ص ٤٥٣ .

(٤) الاسحاقي : أخبار الأول ، ص ١٣٠ ؛

257.

(٥) ابن العبري : مختصر الدول ، ص ٤٥٣ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٧) شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مج ٥ ، ص ٤٨٧ .

(٨) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٩) تأريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٨ .

بدمياط^(١). ومنذ ذلك الحين تبدلت موازين القوى تماماً ، وآنقلبت مواقف الغزاة الهجومية إلى دفاعية^(٢) ، فحفروا فحفروا مجدداً يحتمون به وسوراً من حوله . أما المسلمون فسيروا البشارة على جناح الطير إلى القاهرة^(٣) .

إلا أن وصول توران شاه كان متأخراً ، ولم يكتب له اللقاء بالأمير فخر الدين الذي آستشهد قبل وصوله^(٤) . إذ وصل إلى المنصورة يوم الخميس ، الحادي والعشرين من ذي القعدة ، الموافق الثامن والعشرين من شهر شباط سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)^(٥) . فتلقيه الأمراء والمماليك بالترحاب ، وآستقر له الملك في قصر السلطنة السلطنة بالمنصورة^(٦) ، وبوصوله زادت معنويات الجيش الإسلامي في القتال لكن استقرار الملك له لم يبعده عن التفكير في حال البلاد وطرد الغزاة ، وهذا وصوله بدأ بوضع الخطط الكفيلة لطرد الغزاة . فأمر بعمل سفن هفككة في القاهرة ، لتسهيل أمر نقلها على ظهور الجمال إلى بحر المحلّة . وهناك تم تركيبها مع تهيئة العدد الكافي لها من المقاتلين ، ثم أصدر الأوامر بأن توضع تلك السفن في موضع تم اختياره لمباغثة سفن الغزاة . وفي الوقت ذاته ، قلّم الأسطول المصري من جهة المنصورة ، فأحاط بسفن الصليبيين القادمة إلى بحر المحلّة من جهتين . وبدأ الأسطول المصري باعتراض سبيل السفن الصليبية بهدف قطع الإمدادات المرسلة من دمياط إلى الجيش الصليبي ، ونجحت الخطة وتمكن المصريون من الظفر باثنين وخمسون سفينة^(٧) . وقد أشار (Grousset) إلى هذه المعركة المعركة في رواية أخرى ، وقال إن معركة حصلت بين الأسطولين الإسلامي والصليبي . كانت النتيجة فيها لصالح المسلمين بالسيطرة على آثنين وثلاثين سفينة مليئة بالقمح والمؤن من جميع الأصناف ، وكذلك السيطرة على ثمانين سفينة أخرى من المراكب الحربية الطويلة . أما جوانفيل . مؤرخ الحملة فقد وصفها . قائلاً : ((أُسِرَت جميعها الواحد تلو الآخر)) دون ذكر التفاصيل ، وبذلك لم يعد بوسع الأسطول الصليبي أن يتسلم الكثير من المواد الغذائية ، فأصبح المقاتلين فيه في مجاعة حقيقية وقاسية^(٨) .

وفي السادس والعشرين من ذي الحجة من نفس السنة ، تدارس الصليبيون الموقف وفكروا بجند في التراجع

(١) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٤ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ ؛ اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٦ .

(٣) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٤ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ .

(٥) اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٦ .

(٦) مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤٤ .

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ ؛ ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية ،

ج ١١ ، ص ٤٤ .

من المنصورة إلى قاعدتهم بدمياط . وقد أُجبروا على التراجع بالفعل أمام الضربات المصرية . أما القوات المصرية فلم تكتفِ بما حققته من نصر ، بل عبرت بحر أشموم وراء الملك (لويس التاسع) ، وأقتتلوا مع قواته في معاركٍ عدّة كان لهم النصر في معظمها . وقد استمر الملك لويس بالتراجع ، وبشكل غير منتظم ، بسبب حالة الاضطراب التي حَلَّت بجيشه حتى وصل فارسكور^(١) . في الوقت الذي استمر فيه المسلمون بمطاردتهم ، لكيلا تُتاح لهم فرصة إعادة التنظيم من جديد . غير أن (لويس التاسع) أصطدم . نبأً أخطر وأعظم ، فقد قطعت عليه القوات المصرية بطن العودة ، وآستولوا على السفن الصليبية المَحْمَلَة بالميرة والمؤن وما يحتاجه جيشه^(٢) ، فضلاً عن إصابتهم بمرض الحُمى المميتة التي آنتشرت في المعسكر الصليبي^(٣) ، لذلك صار لديهم التراجع من أجل الوصول إلى دمياط ليس بالأمر اليسير .

أما الملك (لويس التاسع) فإنه وصل إلى حالة اليأس والهزيمة ، وضاطر صاغراً إلى مفاتحة الملك المعظم توران شاه ، وعرض عليه مشروعاً للصلح ، يتم بمقتضاه إعادة بيت المقدس للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط . لكن عرضه هذا رُفض من جانب توران شاه^(٤) وقد برر ويست سبب خسارة الصليبيين للحرب في هذه المعركة ، أن المحاربين المسلمين كانوا بمجاميع كثيرة ، فكلما كَلَّت مجموعة انسحبت ، وتقدمت لتحل محلها سرايا من المحاربين الجُدُد على خيولٍ نشيطة وغير مُتعبة لإدامة المعركة . وأن هذه الخطة أَعِمَّت فرسان الصليبيين وأنهكتهم ، فضلاً عن المرض الذي آنتشر في صفوفهم وأنهك قواهم^(٥) .

وأمام كل هذه المشاكل وما جرى للجيش الصليبي، عقد الملك (لويس التاسع) مجلساً للحرب مع كبار قادته ، الذين اقترحوا عليه إنقاذ نفسه سواء عن طريق نهر النيل بواسطة السفن ، أو على الأرض باستخدام فرسٍ سريع . لكنه رفض التحلي عن قوا ته المتبقية ، والتي كانت تُهتَف له وُعِيه عن إستعدادها للتضحية في سبيله . إلا أن (لويس التاسع) رغم كل ما أصابه ، فأفْضَل أن يتقاسم القدر المحتوم معهم سواءً بالقتل أو الأسر ، لذلك آتخذ مجلس الحرب الصليبي قراره بالانسحاب تجاه دمياط . وبعد تحرك الجيش الصليبي ، فأن القوات المصرية كانت في نُجْبهم ، فأحاط بهم الفرسان والمشاة من جميع الجهات ، ورموهم بالسهم التي كانت مثل سيل المطر على أعدائهم الصليبيين^(٦) ، فانقسم الجيش الصليبي بعد ذلك إلى مجاميعٍ منهزمة أمام الضربات المصرية ، لكن هذه

(1) Stevenson : op. Cit, p .328 .

(٢) المعاضدي وآخرون: الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٢١٩ .

(3) Lane- PooLe : op .cit , p. 238,
Grousset : Vol.3 , op. cit , p. 478.

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٦ ، ص ٨٤ ؛ ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٥) الحروب الصليبية، ص ١٥١ .

(6) Grousset: Vol.3 , op. cit , p. 480.

المجاميع ما لبثت أن أجبرت بأكملها على الاستسلام قرب فارسكور^(١)، وصاروا أسرى بيد المسلمين .

رابعاً . نتائج الحملة للجانبين :

لا بد من الإشارة بمكان إلى أفضّل هذه الحملة في تحقيق أهدافها واستسلام القوات الصليبية بأكملها كان أولى النتائج المهمة ، حتى ذكرت المصادر أن الملك (لويس التاسع) قائد الحملة كان قد آخفى في بلدةٍ اسمها : (منية عبد الله) ، القريبة من شارمساح ، وطلب هو وجيشه الأمان . فاستجاب لطلبه الطواشي جمال الدين محسن الصالحى ، وقبّلهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة^(٢) . فكان من بينهم الملك (لويس التاسع) نفسه وأخوه^(٣) ، وجماعةٌ من خواصّه ، كما كان معهم مؤرخ الحملة جوفنيل^(٤) . وتم اعتقال الملك لويس في دار القاضي فخر الدين بن لقمان ، وكُلّف بحراسته والمحافظة عليه وحمايته الطواشي صبيح المعظمي^(٥) . وأكرم الملك المعظم توران شاه مكانته وعامله بالحسنى^(٦) .

وآبتهاجاً بأسر لويس ، أرسلت (غفارتة) وهي بَزْتةُ الملكية إلى دمشق ، أرسلها توران شاه إلى نائبه هناك وهو الأمير جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها . ووصفها أبو شامة بقوله : ((ورأيتها عليه ، وهي أسكرلاط . ملابس صوفية مدفئة . أحمر ، تحته فرو سنجاب ، وفيها بكلة ذهب)) . فنظم الشاعر نجم الدين محمد بن إسرائيلياتاً مدح فيها توران شاه وأمير دمشق بهذه المناسبة ، منها :

إن غفارة الفرنسييس التي جاءت لسيد الأمراء

ببياض القرطاس في اللون ، لكن صبغتها سيوفنا بدماء^(٧)

ومن نتائج الحملة كذلك ، كثرة خسائر العدو من القتلى الصليبيين وأسراهم ، حتى اختلفت المصادر بشأنها ، فمنهم من قال كان الأسرى أكثر من عشرين ألفاً ، من بينهم عدداً من الملوك والأمراء ، وعدد القتلى سبعة آلاف^(٨) . وقال آخر إن عدد قتلى الصليبيين على أرض فارسكور زاد على إثني عشر ألف ، وأسر من

(1) Stevenson : op. Cit, p.328 - 329 .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ٢٦٢ ؛ اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٦ .

(٣) القلقشندي : ١ . مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ،

(الكويت/١٩٨٥) ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، ؛ ٢ . صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٩٠ .

(4) Lane-PooLe : op .cit , p. 239.

(٥) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٦) سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٩ ؛ المعاضيدي وآخرون: الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٢١٩ .

ص ٢١٩ .

(٧) الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

(٨) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١١٧ .

ملوكهم سبعة^(١). وذكر ثالث أن عدد قتلاهم وصل نحو ثمانين ألف، وعدد الأسرى أكثر^(٢). أما سبط ابن الجوزي الجوزي فقد ذكر أن عدد من قتل منهم بلغ مائة ألف^(٣). غير أن ما تواترت عليه الكثير من المصادر هو أن عدد من قتل منهم في تلك المعركة بحدود ثلاثين ألفاً^(٤). مع الإشارة إلى أن بعض المصادر لم تذكر رقماً محدداً ، فهذا ابن العبري قال عن عدد قتلى الصليبيين بأنهم : ((خلقٌ كثير))^(٥) ، هذا عدا من ألقى نفسه في البحر^(٦). وتحدث سبط ابن الجوزي عن الأسرى وقال : ((فحدث البحر عنهم ولا حرج))^(٧). مما يدل على أن كل هذه التخمينات أن عدد خسائهم من القتلى والأسرى كان كبيراً بالفعل ، حتى أُسمي ذلك العام بعام دمياط^(٨). مما يدل على أهمية هذه المدينة التي تحول اسمها إلى عام نصر للمسلمين وعام هزيمة للصليبيين . وبما أن النصر لا يتحقق دون هُزْل من التضحية ، فإن الجانب المصري لم يخلو كذلك من خسائر بشرية . ولكن في كل الأحوال حتى لو كانت هذه الخسائر كبيرة فأنها وسام شرف للمصريين ، لأن الحروب لا تُقاس بخسائرها بل تُقاس بنتائجها ، ولأن النصر لا يأتي إلا بالشهادة ، مما يجعل الخسائر تَهون في حالة النصر . كما لا يفوتنا أن نذكر كثرة غنائم المسلمين التي حصلوا عليها من الأموال الطائلة ، مثل السلاح والخيول والقماش^(٩) ، وما سوى ذلك .

أما الملك (لويس التاسع) الأسير في المنصورة ، فقد شرعت المفاوضات بينه وبين الجانب المصري حول إطلاق سراحه مع جيشه الأسير ، وقد طلب الوفد المصري منه التخلي عن دمياط وعن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام . لكن الملك الصليبي أجابهم بأنه لا يملك الصفة الرسمية التي تحوله بذلك ، لكون مملكة بيت المقدس .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٦ .

وذكر (Grousset) هذا العدد وهو إثنا عشر ألف قتيل ، وقال . لتأكيد صحة روايته . إن المصدر في ذلك مخطوط صليبي خاص بهذه الحملة . (Histoire des Croisades , Vol.3 , op. cit , p. 484.)

(٢) الغساني : المسجد المسبوك ، مج ١ ، ص ٥٧٥ .

(٣) مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٨ ؛ أما القرمانى فذكر في كتابه أخبار الدول ، ص ١٩٧ ، أن عدد قتلاهم زاد على مائة مائة ألف .

(٤) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ القلقشندي : ١ . صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٩٠ ؛ ٢ .

مآثر الأنافة ، ج ٢ ، ص ٩٣ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٤ .

(٦) الاسحاقى : أخبار الأول ، ص ١٣٠ .

(٧) مرآة ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧٧٩ .

(٨) السخاوي ، شمس الدين : التحفة اللطيفة في تأريخ المدينة الشريفة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت / ١٩٩٣ م) ،

ج ٢ ، ص ١٧٧ .

(٩) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٨٦ .

القديمة . تعود إلى (كونراد) ابن الإمبراطور (فريدريك الثاني) . وأمام هذا الطرح عدل توران شاه عن هذه المطالبة لعلاقته الحسنة مع الألمان ، واكتفى بطلب الانسحاب من دمياط وتحررها من الصليبيين . فاتفق الطرفين على ذلك ، مع هدنة مدتها عشر سنوات^(١) . وكان من بنودها مبادلة دمياط بشخص الملك ، أما جيشه الأسير ففدته ثمانمائة ألف دينار ((قطعة ذهبية)) ، أي ما يعادل أربعمئة ألف ليرة تورينية آنذاك^(٢) .

أما بالنسبة للوضع السياسي الداخلي في مصر بعد حسم المعركة لصالحها ، وبعد الاتفاق بين الطرفين . المصري والصليبي . فإن العلاقات بين توران شاه وشجر الدر أخذت تسوء ، حتى تم تدبير مؤامرة ضده أدت إلى قتله يوم الثلاثاء من محرم سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)^(٣) ، والذي يعد قتله نهاية الدولة الأيوبية في مصر إذ تولت السلطة شجر الدر من بعده . وإن هذا التبدل في السلطة أشعر الصليبيون بالخوف على الأسرى ، فقد اعتقد (لويس التاسع) وحاشيته أنهم مهددون . مع بقية الأسرى . بخاطر الأباداة . لذلك أعيدت المفاوضات من جديد ، وكان على رأس الوفد المصري المفاوض ، الأمير حسام الدين بن أبو علي الهذلياني . فأنقسم المماليك بين مؤيد لإطلاق سراحهم ومعارض لذلك ، خشيةً من خطر (لويس التاسع) في المستقبل ، لكن أغلبية الحكومة لم توافق على رفض الاتفاق المعقود معه بل وافقوا عليه ، مع تعديل البند الخاص بالفدية ، إذ خفضوا مبلغها وجعلوها أربعمئة ألف دينار بدلاً من ثمانمائة ، على أن يدفع نصفها مقدماً وقبل مغادرته مصر ، والباقي يدفع عند وصوله عكا^(٤) .

إلا أن المهم في نتائج الحملة على دمياط هو فشلها النهائي والتام في تحقيق أهدافها ، فلا هم احتلوا باقي البلاد المصرية ، ولا حتى البقاء في دمياط التي احتلوها . فبعد دفع نصف مبلغ الفدية مقدماً ، أرسل (لويس التاسع) إلى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة ، فامتنعوا بداية الأمر ، ثم وافقوا مرغمين على ذلك^(٥) . وتسلم المصريون دمياط ، ورفع العلم السلطاني المصري عليها يوم الجمعة الثالث من صفر ، (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)^(٦) . بعد أن تحملت هذه المدينة أعباء هذه الحملة وويلات حربها، وبعد أن تشرد أهلها وأحرقت بيوتهم وأسواقهم ، وتحول جامعها إلى كنيسة للصليبيين ، ولا ذنب لهذه المدينة الجميلة إلا أنها دفعت ثمن موقعها

(١) التكريتي: الأيوبيون ، ص ٢١٨ .

(٢) ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٩؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٢ .

(٣) حسن ، علي إبراهيم : مصر في العصور الوسطى ، ص ٩٨ .

(4) Grousset: Vol.3 , op. cit , p. 489.

(٥) عاشور مصر والشام ، ص ١٥٩ ؛ اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٧ .

وقيل أن زوجته . وكانت في دمياط . هي التي تولت جمع نصف مبلغ الفدية فأفرج عن زوجها ، أما باقي الأسرى فقد

ظلوا بالأسر لحين دفع الفدية المتبقية . (المقريري : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٣) .

(٦) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ؛ الاسحاقي : أخبار الأول ، ص ١٣٠ ؛

وأهميتها الاقتصادية والعسكرية والتي كانت عليها ذِقةً جلبت عليها مطامع الأعداء وويلات الحروب . أما (لويس التاسع) فإنه بعد أن غادر دمياط إلى عكا فَضَّلَ البقاء في فلسطين ، بينما عاد معظم الصليبيون إلى أوطانهم^(١) ، وهم يرتدون أسمالاً بالية ، وقد فقدوا أسلحتهم ودروعهم وجيادهم خائبين مخذولين^(٢) . ويبدو أن خيبة الأمل والفشل في هذه الحملة جعلت (لويس التاسع) لا يرغب بالذهاب إلى البلاد وهو مُنْكَس الرأس ، لذا فَضَّلَ البقاء هنا ، لا أن يذهب إلى بلاده خائباً في حملة كلفت الكثير من الجهود السياسية والعسكرية .

أما مدينة دمياط فأنها تحررت بعد أُعيد بناءها من جديد من قبل الصليبيون أنفسهم خلال فترة الاحتلال^(٣) . فكانت عودة دمياط وتحريرها مناسبة جليّة تَعَيَّى بها الشعراء في قصائدهم ، والتي غالباً ما وصفوا حالة النصر لدى المصريين وحالة الفشل والهزيمة لدى الصليبيين ، ومنهم الشاعر جمال الدين بن مطروح ، الذي تناول هذه المعركة بقصيدة منها :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قُؤول نَصُوح
أتيت مصر تبغي ملكها	تَحَسَّبُ الزُّيَا طِبْلُ رِيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بَطْنُ الضريح
خمسین ألفاً لا ترى منهم	غير قتيل أو أسير جريح
وقل له إن أزمعوا عودةً	لأخذ ثأراً أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باقٍ والطواشي صبيح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح ^(٤)

وهكذا خسر (لويس التاسع) المعركة ، حتى وصفه (ديفز) بأنه : ((تقيُّ أحمق)) ، كونه كان مُحدِياً المنطق الشديد ، فهو لم يكن قائداً عسكرياً ، لذلك كان فشله في الحرب أمرٌ مُحْتَمٌّ^(٥) . أما مدينة دمياط دمياط فأنها ومن كل ما تقدمت بين أنها مدينة مهمة ومستهدفة من قبل الأعداء الصليبيين الطامعين في مصر ، والذين جعلوا نصب أعينهم وهدفهم احتلالها للاستفادة من مينائها وخيراتها قبل التوجه لاحتلال باقي بلاد مصر . لأنهم يرون في دمياط جسر الوصول إلى كل أرض مصر ، الأمر الذي جعلها الخط الأول ورأس النفیضة في كل حملة صليبية إلى مصر. جعل لها أهميةً تَمَيَّزت بها عن كثير من مدن بلاد مصر الأخرى إلا أنها دفعت ثمن هذه الأهمية وصارت عرضة للحروب الصليبية .

(1) Stevenson : op. Cit, p. 238 - 239 .

(٢) ويست : الحروب الصليبية، ص ١٥١ .

(3) Lane-Poole : op. cit , p. 239.

(٤) ابن الوردي : تأريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٩١ .

(٥) أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٢٠٥ .

الخاتمة

الخاتمة

من خلال دراستنا للموضوع ، تبين لنا أن هناك عدة نتائج لا بد من ذكرها هنا ، وهي :

١ . إن لمصر أهمية سياسية وعسكرية كبيرة ، وإنها عامل قوة للخلافة الإسلامية ، وهو ما أثبتته الأحداث في زمن صلاح الدين الأيوبي ، عندما وَحَّدَهَا وَضَمَّهَا إلى الخلافة العباسية . وبعبارة أخرى فإن سُلْخَهَا وتحييدها عن جسم الأمة الإسلامية يُشكّل عامل ضعف لها وانتصاراً لأعدائها . لذلك فإنها ظلت مهددة وعلى مدى الحقب التاريخية ومعرضة لمخاطر الغزو والاحتلال ، ومنه الغزو الصليبي لها ثلاث مرات متتالية ، منذُ عصر الدولة الفاطمية ومروراً بعصر نور الدين وصلاح الدين ، وكذلك تعرضها للحملتين الخامسة والسابعة بقصد احتلالها .

٢ . كما تبين من خلال البحث أن لمدينة دمياط أهمية خاصة من بين مدن مصر الأخرى ، ولها مكانة اقتصادية وعسكرية ، وذلك لموقعها المتميز عند مصب النيل في البحر فضلاً عن خيراتها الوفيرة ، المتمثلة في الزراعة والتجارة ، وموقعها البحري المتميز كمرفأً تجاري على البحر ، مما جعلها بوابة مصر على العالم الخارجي . الأمر الذي جعل منها هدفاً لمطامع الأعداء الصليبيين .

٣ . و تبين أيضاً أنها مدينة محصنة ومحاطة بالمياه من عدة جهات ، فضلاً عن امتلاكها لأسوار و أبراج وسلسلةً حديدية وقفل ، بحيث لا يسمح بدخول سفن الأعداء إلى داخل مصر ، وأنه من الممكن الدفاع عنها بشكل جيد ، لولا الإهمال وعدم التهيؤ اللازم قبل حكام مصر ، فضلاً عن عدم ردها بقوة كافية تدافع عن المدينة ، فلما تركت في كل مرة حتى تُستباح وتُحتل وتُنتهك أرضها ومقدساتها من قبل الأعداء .

٤ . و نظراً لأهمية هذه المدينة ، فإنها تعرضت لثلاثة حروب صليبية كان أولها ما حصل في زمن صلاح الدين سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) ، إثر تعاون صليبي - بيزنطي . إلا أن إجراءات صلاح الدين العسكرية ورفدها بالمقاتلين ، فضلاً عن جهود نور الدين وإشغاله الصليبيين في بلاد الشام ومهاجمة عسقلان وغيرها ، أفشلت الحملة بعد حصار دام لأكثر من (٥٠) يوماً .

٥ . كما تعرضت دمياط بسبب أهميتها إلى حملة صليبية أخرى في عهد الملك العادل والملك الكامل سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) ، و تم احتلالها نتيجة لعدة أسباب منها : وفاة الملك العادل ، ومؤامرة ابن المشطوب ، والموقف السلبي للأعراب ، فضلاً عن النقص في قوات الدفاع عن دمياط وفي المؤن ، وتفتيش الأوبئة . فتعرضت المدينة خلال تلك الحملة إلى حصار ، أبدى من خلاله أهلها وحاميتها ومن انضم إليها من المجاهدين قوةً وشجاعة وصبراً وصموداً . إلا أنه ونتيجة للأسباب الآتية فإنها لم تستطع الاستمرار في الصمود ، حتى تم احتلالها ولتباحثها من قبل الصليبيين ، بعد حصار دام أكثر من ستة

عشر شهراً . تكبد أهلها خسائر بشرية ، حتى اضطروا لمغادرتها ، وتفرقوا في البلاد . فدخل الصليبيون الغزاة المدينة وقتلوا من بقى منهم ونهبوا وحولوا المسجد الجامع فيها إلى كنيسة . وظلت المدينة على هذه الحالة لمدة أربعين شهراً حتى تم تحريرها من قبل الكامل ، وتم الاتفاق مع الصليبيين على التخلي عنها ، بعد النصر الذي حققه عليهم نتيجة تلاحم المسلمين تحت قيادته . ومما زاد في أهمية هذه المدينة هو احتفال المسلمين بالنصر في معركة دمياط ، بعد تحريرها وعودتها إلى حضيرة مصر بعد طرد الغزاة منها .

٦- و مما يؤكد أهمية دمياط بالنسبة لمصر هو مساومة الملك الكامل للصليبيين قبل الانتصار عليهم في الحملة الخامسة باستعادة دمياط مقابل التخلي لهم عن القدس، لكنهم رفضوا الانسحاب عنها حتى تم الانتصار عليهم، وتمكن عندئذ من استعادة دمياط مع الاحتفاظ بالقدس .

٧. كذلك تعرضت مدينة دمياط للحملة الصليبية السابعة، و دفعت نتيجة أهميتها ثمناً باهضاً، هو احتلالها من قبل الصليبيين في عهد الملك الصالح وشجر الدر التي قادت حكومة مصر للدفاع عنها بعد وفاة زوجها، حتى وصل ولده توران شاه مصر، و أكمل قيادة المراحل الأخيرة من معركة التحرير وطرد الغزاة . و تكبدت دمياط في هذه الحملة الكثير من الخسائر المادية و البشرية بعد استباحتها وبقيائها تحت الاحتلال الصليبي مدة تزيد على السنة، حتى تم تحريرها وطرد الصليبيين منها.

٨- إن أهمية دمياط العسكرية، توضحت من خلال الحملات عليها، إذ جعلها الصليبيون نقطة تموين لجيوشهم و قاعدة خلفية و مستودع لتجميع المؤن الغذائية والإمدادات العسكرية لبقية القوات المتوغلة داخل مصر. كما كانت نقطة آمنة لتجمع القوات المهزومة من المعركة بعد الفشل الصليبي في كل محاولاتهم، لأنها ميناء مفتوح ويصلح لاستقبال السفن والإمدادات من الخارج .

وفي الختام فقد توصلنا إلى نتيجة مهمة وهي أن مدينة دمياط تختلف عن باقي مدن مصر الأخرى ، و إن لها أهمية سياسية و اقتصادية و عسكرية ، نتيجة موقعها البحري المتميز . وإن هذه المدينة كانت ضحية هذا الموقع ، و تعرضت بسببه إلى ويلات الحروب الصليبية لثلاث مرات ، وعانى أهلها الكثير من أفعال القتل والتشريد والنهب والتخريب. فكانت بحق مدينة بالغة الأهمية جلبت أطماع الغزاة ، كما أنها كانت محطة إنذار مبكر لحكومة مصر في كل الغزوات المتوالية عليها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً- المصادر الأولية

- ١- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٨ م).
- ٢- الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الفكر، (بيروت/ ١٩٧٨ م)، ج ٩.
- ٣- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق، عبد القادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثه، (القاهرة/ ١٩٦٣ م).
- ٤- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م).
- ٥- أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، المطبعة الازهرية، (مصر/ ١٣١١ هـ).
- ٦- المسالك و الممالك، تحقيق محمد جابر و عبد العال الحسيني، دار القلم، (الجمهورية العربية المتحدة/ ١٩٦١ م).
- ٧- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق، مصطفى فهمي الكتبي، مطبعة الموسوعات، (مصر/ لا.ت).
- ٨- بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الكبرى الاميرية، (بولاق/ ١٣١١ هـ)، ج ١.
- ٩- تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق، علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط ٤، (بيروت / ١٤٠٥)، ج ١.
- ١٠- البغدادى موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد: (ت ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م).
- ١١- الافاده و الاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق، علي محسن عيسى مال الله، دار الحكمة للنشر و الترجمة والتوزيع، (بغداد / ١٩٨٧ م).

. البكري ، أبو عبيد الله بن عبد الله بن عبد العزيز : (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) .

١١- جغرافيه مصر في كتاب الممالك والمسالك ، تحقيق ، عبد الله يوسف الغنيم، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، (الكويت/١٩٨٠).

١٢- المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ، و هو جزء من كتاب الممالك والمسالك ، مكتبة المثنى ، (بغداد/لا ت) .

. البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد : (٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) .

١٣ - سنا البرق الشامي ، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الاصفهاني ، تحقيق ، رمضان ششن، دار الكتاب الجديد ، (بيروت/١٩٧١م) ، ق ١ .

. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: (ت ٧٨٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

١٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصريه العامه للتأليف و الترجمة و النشر، (القاهرة/لا ت) ، ج ٢ .

. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن : (لا ت)

١٥- تاريخ عجائب الآثار في التراجم و الأخبار، دار الجيل، (بيروت/ لا ت) ، ج ١ .

. ابن حزام، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين: (لا ت) .

١٦- تهذيب الأسماء و اللغات، دار الفكر، (بيروت / ١٩٩٦ م) ، ج ٢ .

. الحلبي ، علي بن برهان الدين : (ت ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٣ م) .

١٧- السيرة الحلبية في سيرة الأمين و المأمون ، دار المعرفة، (بيروت / لا ت) ج ٢ .

. الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي : (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) .

١٨- معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت / ١٩٥٦ م) ، مج ٢ .

. الحميري أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم : (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) .

١٩- الروض المعطار في خبر الاقطار، معجم جغرافي، تحقيق ، إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط ٤، (بيروت/١٩٨٥ م) .

. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم : (ت ٨٨٦ هـ / ١٤٨٣ م) .

٢٠- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ، ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، (بغداد/١٩٧٨ م) .

. ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل أنصيصي: (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٩ م) .

٢١- صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت / لا ت) .

. ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: (ت ، في حدود سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) .

٢٢- المسالك و الممالك، مؤسسة الخانجي، (مصر / ١٨٨٩ م).

- خسرو ، ناصر : (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) .
- ٢٣- سفر نامه ، تحقيق ، يحيى الخشاب ، دار الكتاب الجديد ، ط ٣ ، (بيروت / ١٩٨٣ م) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .
- ٢٤- العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسه جمال للطباعة و النشر ، (بيروت / ١٩٧٩ م) .
- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
- ٢٥- وفيات الأعيان و أنباء ابناء الزمان ، تحقيق ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت / ١٩٦٨ م) ، ج ٥ .
- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي : (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .
- ٢٦- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المكتب التجاري للطباعة و النشر والتوزيع ، (بيروت / لا . ت) ، ق ٢ .
- الدمشقي ، عبد الحي بن أحمد ابن العماد والحنبلي : (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٨٦ م) .
- ٢٧- شذرات من ذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت / لا . ت) ، ج ٢ .
- الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز : (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .
- ٢٨- العبر في خبر من غبر ، تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، ط ٢ ، (الكويت / ١٩٤٨ م) .
- ٢٩- سير أعلام النبلاء ، تحقيق ، شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط ٩ ، (بيروت / ١٤١٣ هـ) .
- ٣٠- دول الإسلام ، تحقيق ، فهمي محمد شلتوت و محمد مصطفى إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (مصر / ١٩٧٤ م) ، ج ١ .
- ٣١- تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق ، بشار عواد معروف و شعيب الأرنؤوط وصالح مهدي عباس ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٨٩ م) .
- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر : (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) .
- ٣٢- مختار الصحاح ، تحقيق ، محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون ، (بيروت / ١٩٩٥ م) .
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر : (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م) .
- ٣٣- كتاب الأعلام النفيسة ، مطبعة بريل ، (ليدن / ١٨٩١ م) ، مج ٧ .
- سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي : (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .
- ٣٤- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، (الدكن / ١٩٥٢ م) ، ج ٨ ، ق ١ .
- السخاوي ، شمس الدين : (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) .

- ٣٥- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/١٩٩٣ م) ، ج ٢ .
 . السيوطي ، عبد الرحمن محمد بن أبي بكر: (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .
- ٣٦- تاريخ الخلفاء ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، (مصر/١٩٥٢ م) .
- ٣٧- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، (القاهرة/١٩٦٨ م) ، ج ٢ .
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي: (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) .
- ٣٨- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ، إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، (بيروت / ١٩٩٧ م) ، ج ٢ .
- ٣٩- تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ، عرض الكتاب و صححه ، محمد زاهر بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع اصله، عزت العطار الحسيني، دار الجيل، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٧٤ م) .
- . ابن شداد، أبو عبد الله عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي : (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٢ م) .
- ٤٠- الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تحقيق، سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، (دمشق / ١٩٦٢ م) ، ج ٢ ، ق ٢ .
- . ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع: (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) .
- ٤١- النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية، تحقيق، جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، ١٩٦٤ م) .
- . شيخ الربوه ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري : (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م) .
- ٤٢- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطابع بطربورخ ، (قوبنهانج/١٩٢٣ م) .
- . الصوري ، ولیم : (٥٨٣ هـ / ١١٨٥ م) .
- ٤٣- تأريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ترجمة ، سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، (بيروت/٢٠٠٣ م) ج ٢ .
- . الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) .
- ٤٤- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل و الملوك) ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط ٤ ، (القاهرة / ١٩٧٩ م) ، ج ٩ .
- . ابن العبري، غريغورس أبو الفرج بن أهرون : (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) .
- ٤٥- تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه و فهرسته، الأب انطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، (بيروت / ١٩٨٣ م) .

- ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) .
- ٤٦- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق ، سامي الدهان ، المعهد الفرنسي بدمشق ، (دمشق / ١٩٦٨م) ، ج ٣ .
- ٤٧- بغية الطلب في تأريخ حلب ، تحقيق ، سهيل زكار ، دار الفكر ، (بيروت / ١٩٨٨م) ، ج ٤ .
- الغساني ، الاشرف أبو العباس إسماعيل بن العباس : (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) .
- ٤٨- العسجد المسبوك و الجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء و الملوك ، تحقيق ، شاكر محمود عبد المنعم ، دار البيان ، (بغداد / ١٩٧٥ م) ، مج ١،٢ .
- أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .
- ٤٩- المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت / ١٩٦١ م) ج ٥ .
- المختصر في أخبار البشر ، دار البحار ، (بيروت / ١٩٦١ م) ، ج ٦ .
- ٥٠- تقويم البلدان ، مطبعة الأوفسيت ، (بغداد/لا.ت) .
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) .
- ٥١- تاريخ ابن الفرات ، تحقيق ، حسن محمد الشماخ ، مطبعة حداد ، (البصرة / ١٩٦٧م) ، ج ١ ، مج ٤،٥ .
- ابن قاضي شهبه ، بدر الدين : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .
- ٥٢- الكواكب الدرية في السيرة النورية (تأريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) ، تحقيق ، محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، (دمشق/١٩٧١م) .
- ابن قدامه ، أبو الفرج قدامه بن جعفر بن قدامه بن زياد : (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) .
- ٥٣- الخراج وصناعة الكتابه ، شرح و تعليق ، محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، (بغداد/١٩٨١م) .
- القرطبي ، محمد بن احمد بن أبي بكر بن فرج أبو عبد الله : (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م) .
- ٥٤- الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب ، ط ٥ ، (القاهرة/١٣٧٢هـ) ، ج ١٣ ، ١٦ .
- القرماني ، أبو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي : (ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م) .
- ٥٥- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، عالم الكتب ، (بيروت/لا.ت) .
- القرظيني ، زكريا بن محمود : (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) .
- ٥٦- آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، (بيروت/١٩٦٠م) .
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
- ٥٧- مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، تحقيق ، عبد الستار احمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، ط ٢ ، (الكويت/١٩٨٥) ، ج ١٢ .
- ٥٨- صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، تحقيق ، يوسف علي الطويل ، دار الفكر ، (دمشق/١٩٨٧م) ، ج ٣ .
- القنوجي ، صديق بن حسن : (لا.ت) .

- ٥٩- أجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق، عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، (بيروت/ ١٩٧٨ م)، ج ٣.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م).
- ٦٠- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ط ٢، (بيروت / ١٩٧٨ م)، ج ١٢، ١٣.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الحضرمي: (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م).
- ٦١- الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، (بيروت/ ١٩٠٨ م).
- مجهول، (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي).
- ٦٢- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، (الإسكندرية/ ١٩٥٨ م).
- المسعودي، علي بن الحسين بن علي: (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٤ م).
- ٦٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط ٤، (مصر/ ١٩٦٤ م)، ج ١.
- المقدسي البشاري، محمد بن أحمد: (ت ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م).
- ٦٤- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق/ ١٩٨٠ م).
- المقدسي، مطهر بن طاهر: (ت ٥٠٧ هـ / ١٠١٠ م).
- ٦٥- البدء و التاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة/ لا ت)، ج ٤.
- المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م).
- ٦٦- اتعاظ الحنفا بإخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق، جمال الدين الشيال، دار التحرير، (القاهرة/ ١٩٦٧ م)، ج ١.
- ٦٧- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق، محمد حلمي محمد أحمد، (القاهرة/ ١٩٧٣ م)، ج ٣.
- ٦٨- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة/ لا ت)، ج ١.
- ٦٩- السلوك في معرفه دول الملوك، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف و النشر، ط ٢، (القاهرة/ ١٩٧٥ م)، ج ١، ق ٢.
- المنصوري، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي: (ت ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م).
- ٧٠- التاريخ المنصوري تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان، تحقيق، أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، (دمشق/ ١٩٨١ م)، ج ١.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م).
- ٧١- لسان العرب المحيط، دار صادر، (بيروت / لا ت)، ج ٧.
- ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م).

- ٧٢- أخبار مصر، اعتنى بتصحيحه، هنري ماسيه، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، (القاهرة / ١٩١٩م)، ج ٢.
- . النعيمي ، عبد القادر بن محمد : (ت ٩٧٨هـ / ١٥٧٢م) .
- ٧٣- الدارس في تأريخ المدارس ، تحقيق ، إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت/ ١٤١٠) ، ج ٢.
- . الهمداني ، أبو بكر احمد بن إبراهيم المعروف ابن الفقيه : (ت ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م) .
- ٧٤- مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، (ليدن/ ١٣٠٦ م) .
- . ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧ م) .
- ٧٥- مفرج الكروب، في أخبار بني أيوب ، تحقيق، جمال الدين الشيال ، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، المطبعة الأميرية، (القاهرة / ١٩٧٥ م) ، ج ٣، ٢ .
- . الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر : (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) .
- ٧٦- فتوح الشام ، دار الجليل ، (بيروت/ لا . ت) ، ج ٢.
- . ابن الوردي، الشيخ زين الدين عمر بن الوردي: (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
- ٧٧- تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، (النجف / ١٩٩٦ م) ، ج ٢.
- . الياضي ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان : (ت ٧٦٨هـ / ١٤٦٣م) .
- ٧٨- مرآة الجنان و عبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة الاعلمي ، ط ٢ ، (بيروت/ ١٩٧١م) ، ج ٤ .
- . اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب العباسي : (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧ م) .
- ٧٩- كتاب البلدان ، مطبعة بريل، (ليدن/ ١٨٩١ م) .
- . اليمني ، نجم الدين أبي محمد عمارة بن أبي الحسين الحكمي : (ت ٦٥٩هـ / ١١٧٤م) .
- ٨١- كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، (ديون عمارة اليمني) ، اعتنى بتصحيحه ، هرتويغ درنبرغ ، مطبعة مرسو ، (شالون/ ١٨٩٧م) .

ثانياً - المراجع العربية و المعربة

- . أمين ، عبد الأمير محمد ، و حسين محمد توفيق :
- ١- تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، مطبعة جامعة بغداد ، (بغداد/ ١٩٨٠م) .
- . أمين ، حسين احمد :
- ٢- الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة/ ١٩٨٣م) .
- . باركر ، ارنست :
- ٣- الحروب الصليبية ، ترجمة ، السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، ط ٢ ، (القاهرة / لا. ت .
- . بدوي ، أحمد محمد :

- ٤- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام، مطبعة نخضة مصر، (القاهرة / لا.ت).
- . بروكلمان ، كارل :
- ٥- تأريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة ، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط ٨ ، (بيروت / ١٩٧٩ م) .
- . بيومي ، علي :
- ٦- قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث ، (مصر/١٩٥٢ م) .
- . التكريتي ، محمود ياسين أحمد :
- ٧- الأيوبيون في شمال الشام و الجزيرة ٥٦٤-٦٤٨ هـ / ١١٦٨-١٢٥٠ م ، دار الرشيد ، (بغداد / ١٩٨١ م) .
- . جب ، هاملتون . آ .ر :
- ٨- صلاح الدين الأيوبي دراسات في التأريخ الإسلامي ، ترجمة ، يوسف أيّش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت / ١٩٧٣ م) .
- . حتي ، فليب :
- ٩- تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة ، كمال اليازجي ، دار الثقافة ، ط ٢، (بيروت/١٩٧٢ م) ج ٢.
- . حسن ، حسن إبراهيم :
- ١٠- تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة/١٩٦٧ م) ج ٤،
- ١١- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، (القاهرة / ١٩٦٤ م) .
- . حسن ، علي إبراهيم :
- ١٢- مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة بمصر ، ط ٥ ، (القاهرة / ١٩٦٤ م) .
- . حماده ، محمد ماهر :
- ١٣- الوثائق السياسية و الإدارية ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٨٢ م) ، ج ٥ .
- . حمزة ، عبد اللطيف :
- ١٤- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي الأول ، دار الفكر العربي ، ط ٨ ، (مصر/١٩٦٨ م) .
- . الحموي ، محمد ياسين :
- ١٥- تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقى ، (دمشق/١٩٤٥ م) .

. الحميدة ، سالم محمد :

١٦- الحروب الصليبية ، دار الشؤون الثقافية ، (بغداد/١٩٩٤ م) ، ج ٤ .

. الخربوطلي ، علي حسين :

١٧- مصر العربية الإسلامية ، السياسة و الحضارة في مصر في العصر العربي الإسلامي منذ فتح العربي إلى الفتح العثماني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة/١٩٦٣ م) .

. ديفز ، ه . و :

١٨- أوربا في العصور الوسطى ، عبد الحميد حمدي محمود ، منشأة المعارف ، (الإسكندرية / لا. ت) .

. ربيع ، حسنين محمد :

١٩- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة ، (القاهرة/١٩٦٤ م) .

. رنسيما ، ستيفن :

٢٠- تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة ، السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، (بيروت/لا. ت) ، ج ٣ .

. الرومي ، احمد عبد الجواد :

٢١- صلاح الدين الأيوبي ، مؤسسة الخانجي ، (مصر / لا. ت) .

. زابوروف ، ميخائيل :

٢٢- الصليبيون في الشرق ، ترجمة ، الياس شاهين ، دار التقدم ، (موسكو/١٩٨٦ م) .

. زكي ، عبد الرحمن :

٢٣- قلعة صلاح الدين و قلاع إسلامية معاصره ، مطبعة نهضة مصر ، (القاهرة/١٩٦٠ م) .

. سعداوي ، نظير حسان :

٢٤- جيش مصر في أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، (القاهرة/١٩٥٩ م) .

٢٥- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة / ١٩٥٧ م) .

. سرور ، محمد جمال :

٢٦- الدولة الفاطمية في مصر و سياستها الداخلية و مظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، دار

الثقافة العربية للطباعة ، (عابدين/١٩٦٥) .

. سليم ، محمود رزاق :

٢٧- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، المطبعة النموذجية ، ط ٢ ، (مصر/١٩٦٢ م) .

. سميل ، ر . سي :

٢٨- الحروب الصليبية ، ترجمه ، سامي هاشم ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، (بيروت / ١٩٨٢ م

.)

. شاكر ، محمود :

- ٢٩- التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، ط ٦ ، (لا.م / ٢٠٠٠ م) ، ج ٦ ، ٥ .
 . الشرقاوي ، عبد الله :
- ٣٠- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة و السلاطين ، المطبعة الأزهرية ، (مصر / ١٣١١ هـ) .
 . الشقيري ، مصطفى :
- ٣١- الصليبية الحديثة ماذا تريد ، دار التوزيع و النشر الإسلامية ، (القاهرة / ٢٠٠٣ م) .
 . الشيال ، جمال الدين :
- ٣٢- دراسات في التاريخ الإسلامي ، دار الثقافة ، (بيروت / ١٩٦٤) .
 . طرخان ، إبراهيم علي :
- ٣٣- المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، مؤسسة سجل العرب ، (القاهرة / ١٩٦٦ م) .
 . عاشور ، سعيد عبد الفتاح :
- ٣٤- الحركة الصليبية صفحه مشرقه في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو مصرية ، ط ٢ ،
 (القاهرة / ١٩٧١ م) ، ج ٢ .
- ٣٥- مصر و الشام في عصر الايوبيين و المماليك ، دار النهضة العربية ، (بيروت / ١٩٧٢ م) .
- ٣٦- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الأنباء و النشر ، الدار
 المصرية للتأليف و الترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، ع ٤١ ، (لا . م / لا . ت) .
 . العبادي ، احمد مختار والسيد عبد العزيز سالم :
- ٣٧- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام ، دار الأحد البحيري ، (بيروت / ١٩٧٢ م) .
 . عبد الحميد ، صبحي :
- ٣٨- معارك العرب الحاسمة ، بيت الحكمة ، مطبعة الزمان ، (بغداد / ٢٠٠٣ م) .
 . العدوي ، إبراهيم احمد :
- ٣٩- الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، مكتبة نهضة مصر ، (القاهرة / ١٩٥٧ م) .
 . العريني ، السيد الباز :
- ٤٠- الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، (القاهرة / لا . ت) ، ج ١ .
- ٤١- الشرق الأوسط و الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، (القاهرة / ١٩٦٣ م) ، ج ١ .
 . العسلي ، بسام :
- ٤٢- فن الحرب الإسلامي في أيام الحروب الصليبية ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، (القاهرة / لا . ت) ، مج ٤ .
- ٤٣- فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين و الأمويين ، دار الفكر ، (القاهرة / ١٩٨٨ م) ، مج ٢ .
- ٤٤- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، دار النفائس ، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٨٧ م) .

. علي ، محمد كرد :

٤٥- كتاب خطط الشام ، مطبعة الترفي ، (دمشق / ١٩٢٥ م) ، ج ٢ .

. عمران ، محمود سعيد :

٤٦- الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي برين على مصر ، (١٢١٨ - ١٢٢١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ) ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (الإسكندرية / ١٩٧٨ م) .

. عواد ، ميخائيل :

٤٧- المآصر في بلاد الروم والإسلام ، مطبعة المعارف ، (بغداد / ١٩٤٨ م) .

. الغامدي ، عبد الله سعيد محمد :

٤٨- صلاح الدين و الصليبيون ، المكتبة الفيصلييه ، (مكة / ١٩٨٥ م) .

. غنيم ، إسمت :

٤٩- الدولة الأيوبية و الصليبيون ، دار المعرفة الجامعية ، (الإسكندرية / لا . ت) .

. غوانمه ، يوسف حسن درويش :

٥٠- إمارة الكرك الأيوبية ، منشورات بلدية الكرك ، (عمان / ١٩٨٠ م) .

. فشر ، هـ . أ . ل :

٥١- تأريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمه ، محمد مصطفى زيادة و السيد الباز العريني ، دار المعارف ، ط ٥

، (مصر / ١٩٦٩ م) ، ق ١ .

. قلعجي ، قدري :

٥٢- صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق و الغرب خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر للميلاد

، دار الكاتب العربي ، ط ٥ ، (لا . م / ١٩٧٩ م) .

. الكناني ، مصطفى حسن محمد :

٥٣- العلاقات بين جنوه و الفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة / ١٩٨١ م) .

. لويس ، ارشيبا لد ، ر :

٥٤- القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م) ، ترجمه ، احمد محمد عيسى

، مراجعة و تقديم ، محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة / لا . ت) .

. ماجد ، عبد المنعم :

٥٥- ظهور خلافة الفاطميين و سقوطها في مصر ، دار المعارف ، (مصر / ١٩٦٨ م) .

. ماير ، هانس إبر هارد :

٥٦- تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمه و تعليق ، عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ،

(طرابلس / ١٩٩٠ م) .

. مبارك ، علي باشا :

٥٧- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر و القاهرة و مدنها و بلادها القديمة و الشهيرة ، المطبعة الكبرى الاميرية ، (بولاق / ١٣٠٥ هـ) ، ج ١١ .

. المباركفوري ، صفى الرحمن :

٥٨- الرحيق المختوم ، دار العلوم ، (عمان / ٢٠٠٢ م) .

. متز ، ادم :

٥٩- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة ، محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي ، ط ٤ ، (بيروت / ١٩٦٧ م) ، ج ١ .

. مصطفى ، شاكر :

٦٠- المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، مطبعة ذات السلاسل للطباعة و النشر و التوزيع ، (بغداد / ١٩٨٨ م) ، ج ٢ .

. المطوي ، محمد العروسي :

٦١- الحروب الصليبية في المشرق و المغرب ، دار الكتب الشرقية ، (تونس / ١٩٥٤ م) .

. المعاضدي ، خاشع و سوادي عبد الحميد و دريد عبد القادر نوري :

٦٢- الوطن العربي و الغزو الصليبي ، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة و النشر ، جامعة الموصل ، (الموصل / ١٩٨١ م) .

. مقبل ، فهمي توفيق :

٦٣- الفاطميون و الصليبيون ، قدم له الشيخ محمد فهمي أبي عبيد ، الدار الجامعية ، (بيروت / ١٩٨٠ م) .

. مؤنس ، حسين :

٦٤- نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، الشركة العربية للطباعة و النشر ، (القاهرة / ١٩٥٩ م) .

. المناوي ، محمد حمدي :

٦٥- الوزارة و الوزراء في العصر الفاطمي ، دار المعارف ، (مصر / ١٩٧٠ م) .

٦٦- نهر النيل في المكتبة العربية ، الدار القومية للطباعة و النشر ، (القاهرة / ١٩٦٦ م) .

. نقاش ، زكي :

٦٧- العلاقات الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بين العرب و الفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت / ١٩٥٧ م) .

. نوري ، دريد عبد القادر :

٦٨- سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر و الشام و الجزيرة ، (٥٧٠ - ٥٨٩ هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣ م) ، مطبعة الإرشاد ، (بغداد / ١٩٧٦ م) .

. الهرفي ، محمد علي :

٦٩- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار الإصلاح ، (لا. م / لا. ت) .

. وهبه ، مصطفى :

٧٠- موجز تاريخ الحروب الصليبية ، مكتبة الايمان ، (المنصورة / ١٩٩٧ م) .

. وهيبة ، عبد الفتاح محمد :

٧١- دراسات في جغرافية مصر التاريخية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، (الإسكندرية / ١٩٦٢ م) .

. ويست ، انتوني :

٧٢- الحروب الصليبية ، ترجمه ، شكري محمود ندسم ، شركة النبراس للنشر و التوزيع ، (بغداد / ١٩٦٧ م) .

. يوسف ، جوزيف نسيم :

٧٣- العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، دار النهضة العربية للطباعة

والنشر ، (بيروت / ١٩٨١) .

٧٤- في تاريخ الحركة الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، (الإسكندرية / ١٩٨٩ م) .

٧٥- هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، (القاهرة / لا. ت) .

٧٦- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، دار النفائس ، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٨٧ م) .

٧٧- العدوان الصليبي على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة و فارسكور ، مؤسسة شباب الجامعة ،

(الإسكندرية / ١٩٨٤ م) .

٧٨- العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية ، ط ٣ ، (بيروت/١٩٨١م) .

٧٩- لويس التاسع في الشرق الأوسط (١٢٥٠-١٢٥٤م)، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ط ٢ ، (لا.م/١٩٥٩م

).

. اليوسف ، عبد القادر احمد :

٨٠-علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية،(بيروت /

١٩٦٩م) .

ثالثاً . الرسائل الجامعية

-الجبوري،محمود عباد محمد:

- ١- أسلحة الحصار عند العرب حتى نهاية العصر العباسي ، رسالة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة بغداد (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م) .
الزبيدي ، مصعب حمادي نجم عبد الله :
- ٢- عسقلان و الحروب الصليبية للفترة بين (٤٩٠ . ٦٦٩ هـ / ١٠٩٦ . ١٢٧٠ م) ، رسالة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ، (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م) .
الصائغ ، ذكرى عزيز محمد صالح :
- ٣- عصر الملك الكامل الأيوبي ، رسالة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمه إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م) .
ملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق عبد الرحمن :
- ٤- صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأمريكية ، رسالة ماجستير في التأريخ الإسلامي مقدمه إلى كلية الآداب في جامعة الموصل ، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .

رابعاً . المقالات والبحوث

- البكر ، راغب حامد :
- ١- (الأسرى المسلمون في الحروب الصليبية) ، مجلة آداب الرافدين ، كلية الآداب - جامعة الموصل ، ع ٢٥ ، تشرين ثاني ١٩٩٥ م .
رشيد ، ناظم :
- ٢- (الأدب عند بني أيوب) ، مجلة المورد ، وزارة الإعلام ، جمهورية العراق ، مج ٥ ، ع ٣ ، ١٩٧٦ م .
القيسي ، نوري حمودي :
- ٣- (شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الأيوبي) ، مجلة المورد ، وزارة الإعلام ، جمهورية العراق ، مج ١٦ ، ع ٤ ، ١٩٨٧ م .

خامساً . دوائر المعارف والموسوعات العربية والأجنبية

- الزبيدي ، مفيد :
- ١- موسوعة تأريخ الحروب الصليبية ، (عمان / ٢٠٠٣ م) .
شليبي ، أحمد :
- ٢- موسوعة التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، (القاهرة / ١٩٧٢ م) ، ج ٦ .

. الشنتاوي ، أحمد ، وخور شيد إبراهيم زكي :

٣- دائرة المعارف الإسلامية ، (لا . م / لا.ت) ، مج ٩ .

. وجدي ، محمد فريد :

٤- دائرة معارف القرن العشرين ، دار المعرفة ، ط ٣ ، (بيروت / ١٩٧١ م) .

5- Benton , William : Encyclopedia Britannica , Prited in the U . S . A , V7 , 1967 .

6- Encyclopedia Britannica Deluxe , Edition 2000 ,
الموسوعة منشورة في شبكة الانترنت ، على الموقع :

< www . Britannica . com / eb / article ? to cld = 9028650 &
query = Dimyat & > .

7- Columbia Encyclopedia , Sixth Edition , 2003 .
الموسوعة منشورة في شبكة الانترنت ، على الموقع :
< Http : // www . Bartleby . com / 65 / du / Dumyat . Html > .

سادساً . المراجع الأجنبية

- 1 – Ehrenkreutz , Andrew . S : Saladin , State University of New York Press , Albany , New york,1972 .
- 2 –Grousset , Ren e : Histoire des Groisades et de J erusalem , Vol . 2 , and 3,Paris , Librairie plon .
- 3 – Gabrieli , Francesco : Arab Historians of the Crusades , London , Routledge and kegan paul , 1957 .
- 4 – Lyons , Malcolm . M . Cameron and D . F . P . Jackson: Saladin the Politics of the Holy war , Campridge University Press , New York , 1984 .
- 5 – Lane-Pool , Stanley lane : A History of Egypt in the Middle ages , frank gass and Co . LTD , 1968 .
- 6 – Pernoud , R egine : the Crusaders , Translated by Enid Grant , Oliver and boyd Edinburgh and London , 1963 .

- 7 – Stevenson , W . W . B : The Crusaders in the east , a brief history of the wars of Islam with the Latin in Sysia During the twelfth and thirteenth Centuries , Cambridge University . Printed in Lebanon by Slim press , Beirut , 1968 .
- 8 – Jordan , William Chester : Louis IX and the Challenge of the Crusade , New jersey , Princeton University Press , 1979 .

سابعاً . البحوث المنشورة على شبكة الأنترنت

أ - البحوث العربية

١ . تمام ، أحمد : السلطان الكامل فَرَطَ قيما لا يملك .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : // www . Islamonline . net / Arabic / History / 1422 / 10 / Article 08 . html .

٢ . مجهول : تحرير مدينة دمياط . الحملة الصليبية الخامسة .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : Links Islammemo . History db / one news . asp? ID news = 260 .

٣ . مجهول : الحروب الصليبية . الحملة الصليبية السابعة .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : // Altareekh .com / doc / Article . php ? sid = 462 .

٤ . مجهول : السلطان الكامل والتفريط ببيت المقدس .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : www . baynat . org . ib / www / Arabic / tarih / 5 . Htm .

٥ . مجهول : مدينة دمياط الجديدة .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : www . Diomyat . gov . eg /Arabic / kafr / about html.

ب . البحوث الأجنبية

- 1– A Short History of Palestin , Alook at the Ancient History of the land of palestine up to the Advent of Islam.

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

Http : // www , irib . ir / world service / Imam / Palestine E / 14 , Htm.

2– Bible prophecy and History _ Church of History.

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

www : Teaching Hearts . org / dre 04 History notes . Html .

3– Crusade the later Crusades and the Decline of the latin Enclaves.

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

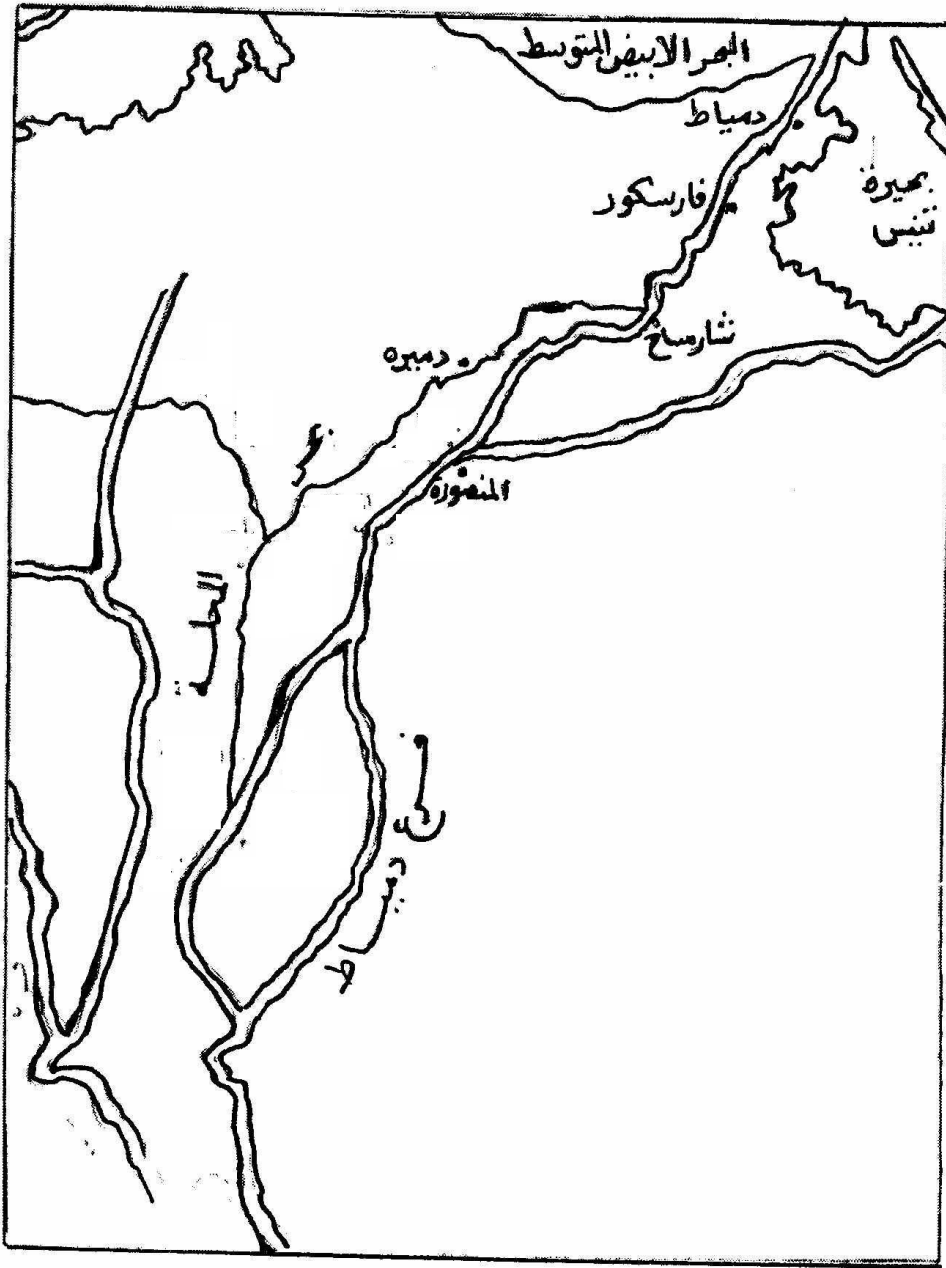
www . Kat . gr / Kat / History / Rel / chr / Crusade . Htm .

4– City guide , com – Egypt , Damietta (Dumyat) .

بحث منشور في شبكة الانترنت على الموقع :

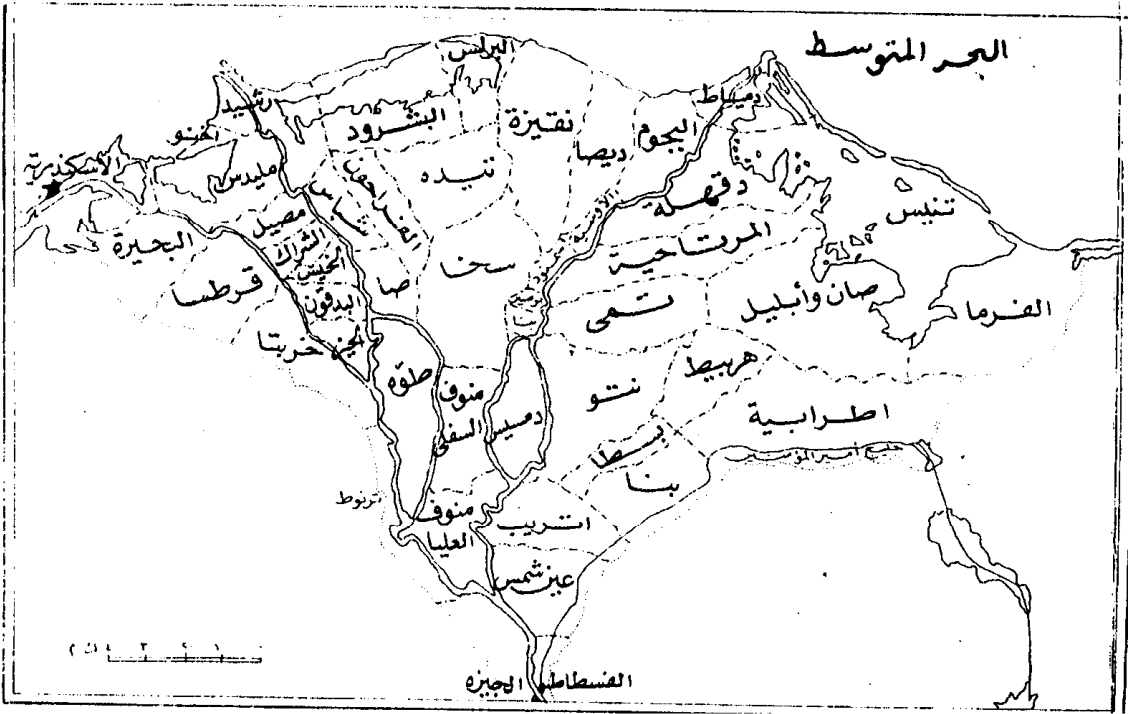
Http : // www . go city guide . com / City / Africa and Middle east / Egypt / Damietta (Dumyat) . Html .

الملاحق



الملحق رقم (١)

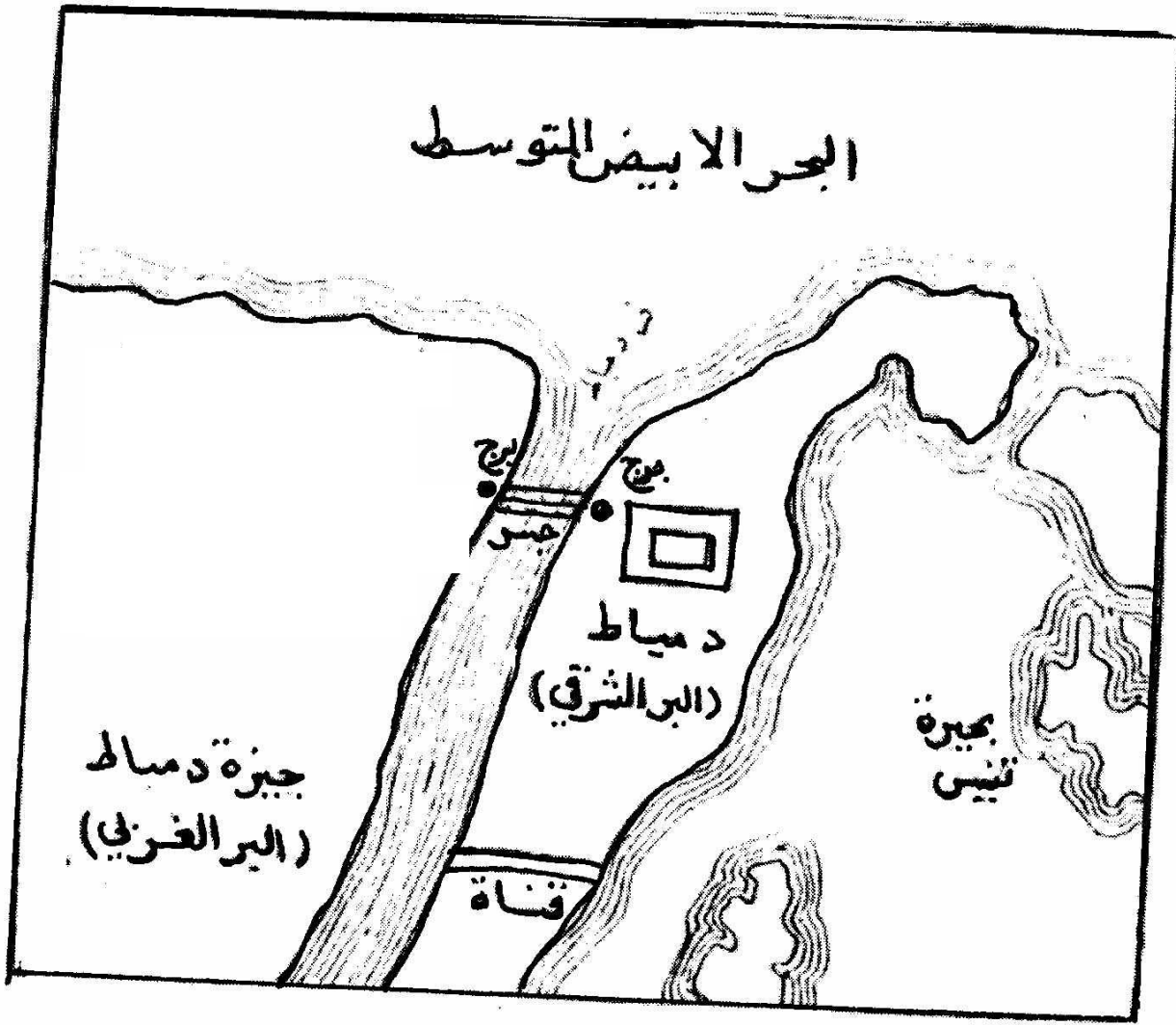
موقع دمياط على فرع دمياط من نهر النيل على ساحل البحر
نقلاً عن : (يوسف جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ١٩٠).



الملحق رقم (٢)

کور الدلتا

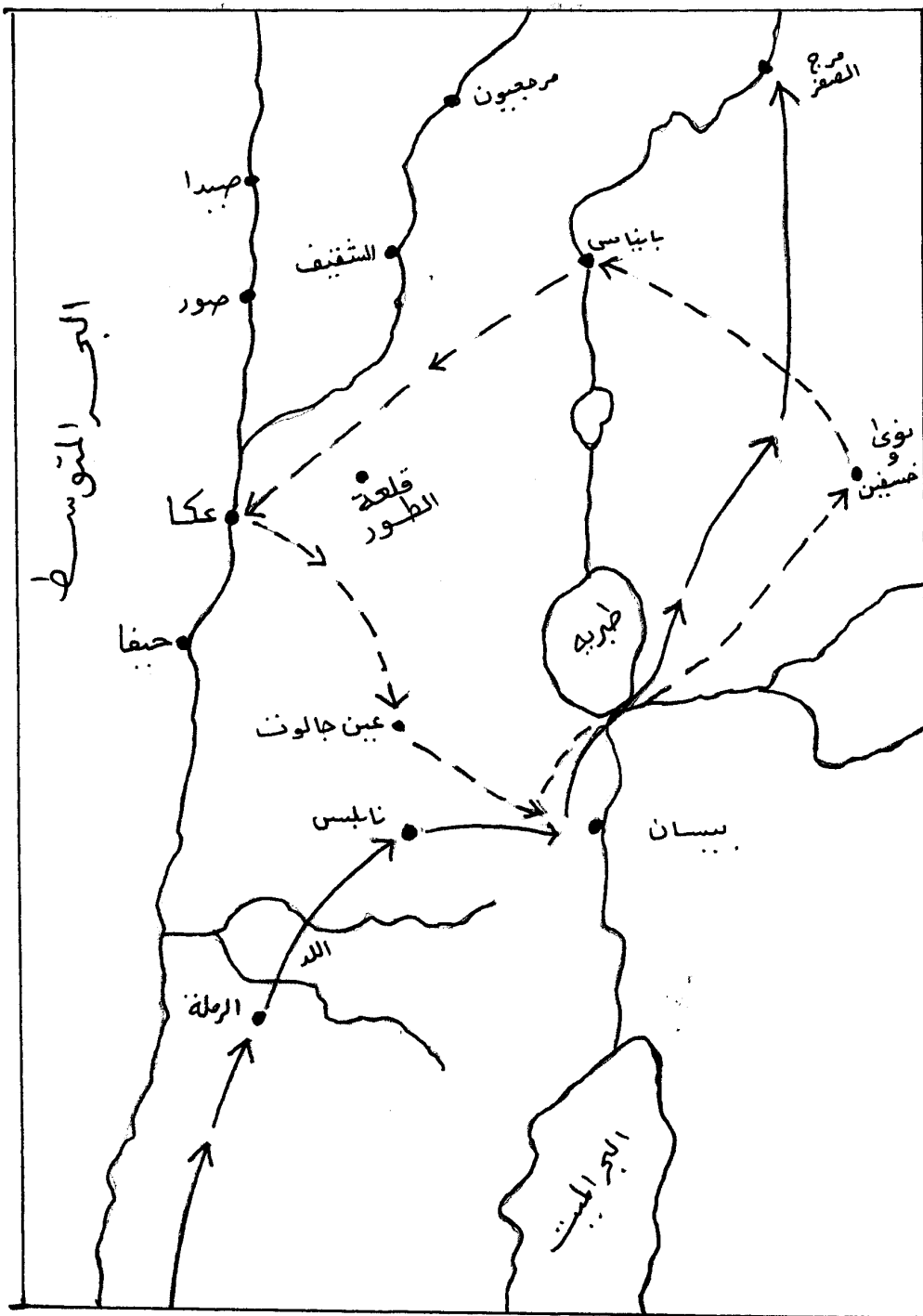
نقلاً عن : (البكري: جغرافية مصر ، ص ٢١)



الملحق رقم (٣)

رسم تخطيطي لتحسينات دمياط

نقلًا عن : (يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، ص ٩٨)

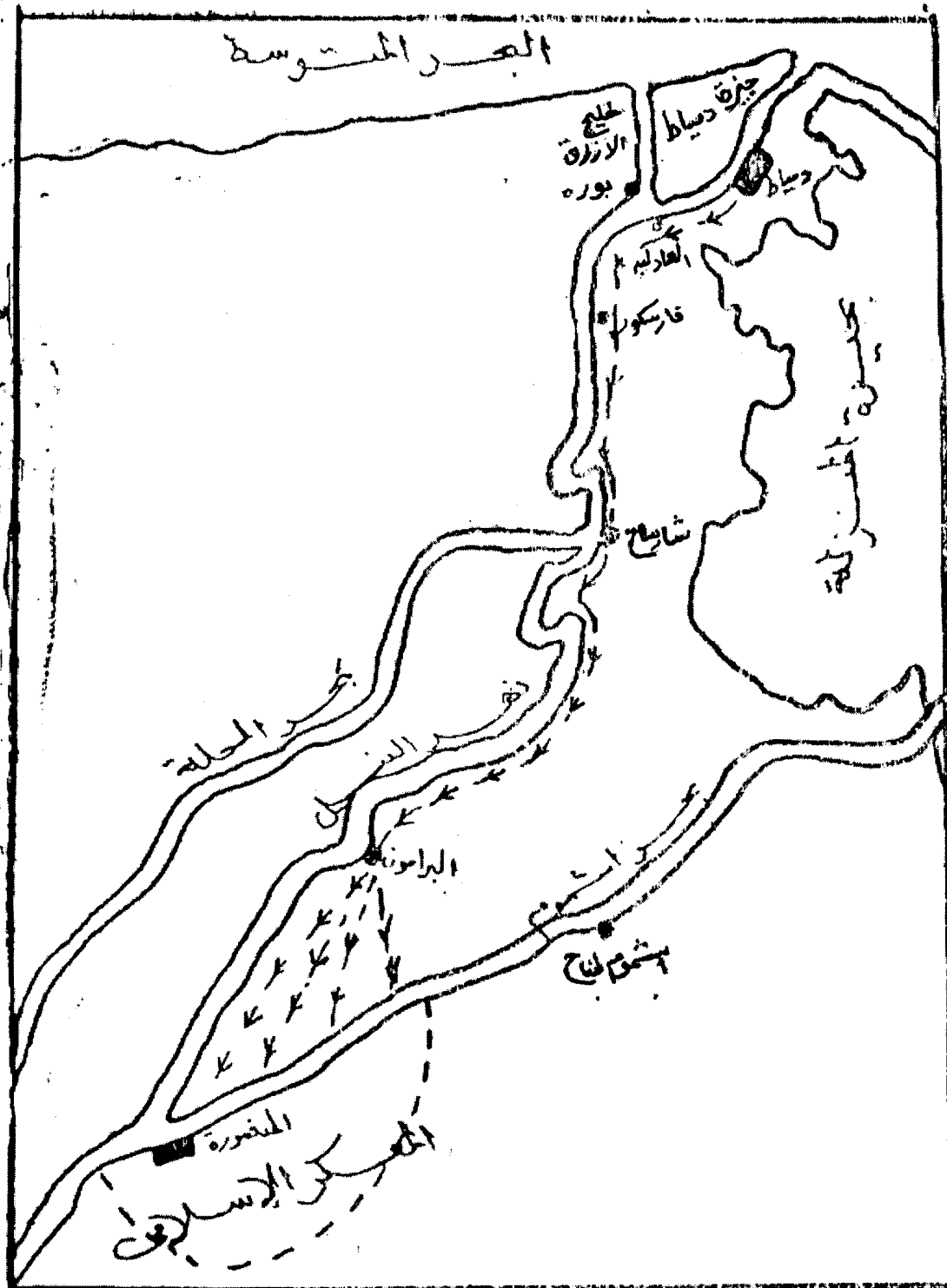


الملحق رقم (٤)

← حركة القوات الإسلامية

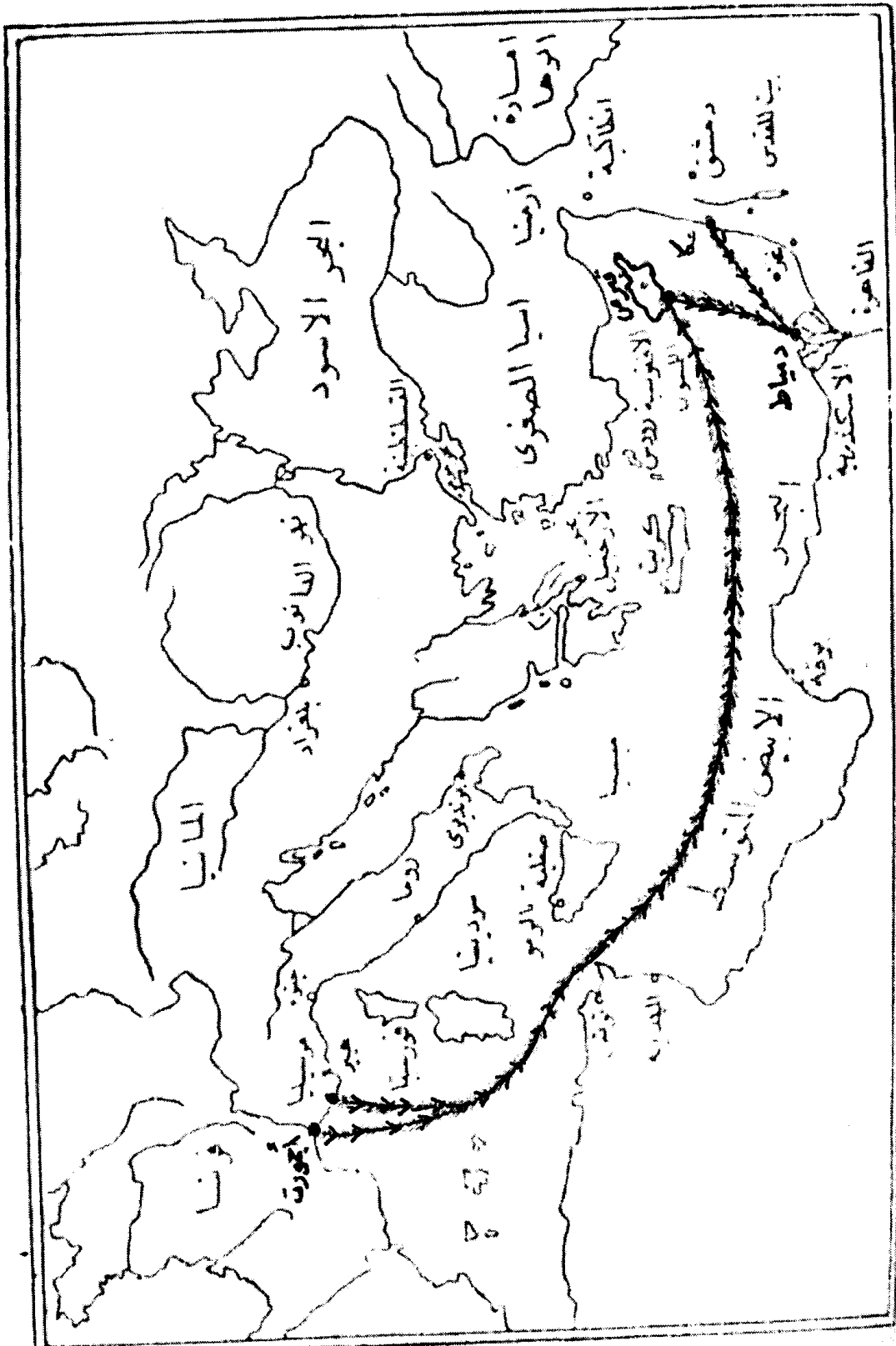
--- ← حركة القوات الصليبية

نقلاً عن: (الحميدة: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٠٤)



الملحق رقم (٥)

خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة
 نقلاً عن: (عمران: الحملة الصليبية الخامسة، لا.ص)



الملحق رقم (٦)

خط سير الحملة من فرنسا إلى دمياط

نقلًا عن : ((يوسف، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٢))

الملحق رقم (٧)

رسالة الملك (لويس التاسع) إلى الملك الصالح

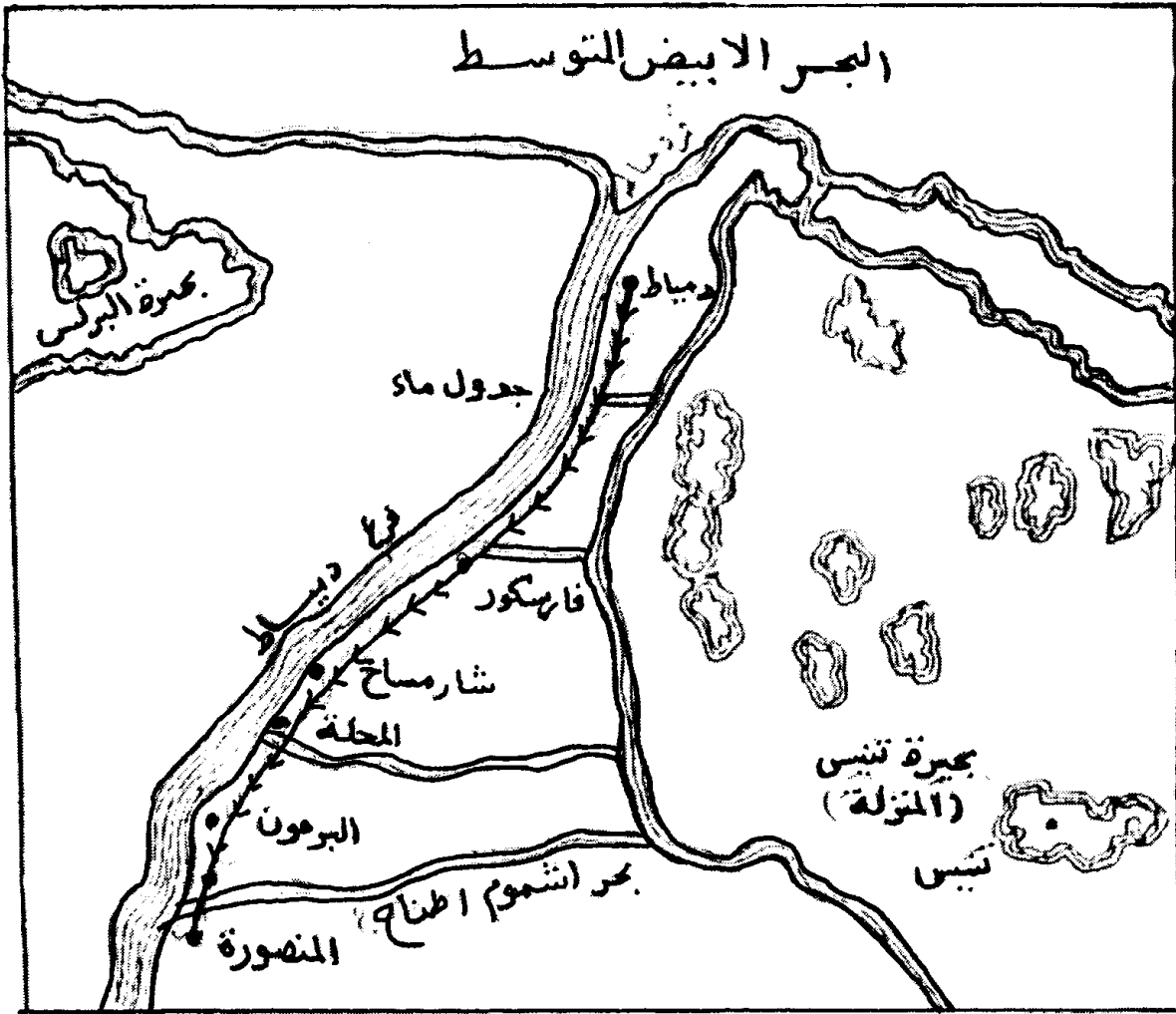
أما بعد فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى عليّ أنك أمين الأمة الحمديّة . وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونزوّل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار . وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الأيمان ، وأدخلت عليّ الأقساء والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ، لكنّك واصلت إليّ وقاتلتك في أعزّ البقاع إليك . فأما أن تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يديّ ، وأما أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ ، فيدك العليا ممتدة إليّ ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضاء^(١) .

(١) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢١٩؛ الأسحاقي : أخبار الأول ، ص ١٢٩ .

الملحق رقم (٨)

جواب الملك الصالح إلى الملك (لويس التاسع)

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :
 فإنه وصل كتابك وأنت تهلّد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف ، وما قُتِرَ كَلْ منّا
 فرد إلا جَدَدناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دَمَرناه ، ولو رأيت أيها المغرور حدّ سيوفنا ، وعظّم حروبنا ،
 وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخربنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على
 أناملك بالندم . ولا بُدّ من أن تزلّ بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسى الظنون ،
 وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . فأذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل ، ((أتى
 أمر الله فلا تستعجلوه)). وتكون على آخر سورة (ص) ، ((ولتعلمنّ نبأه بعد حين)). ونعود إلى قول الله
 تعالى وهو أصدق القائلين : ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله ، والله مع الصابرين)). وقول
 الحكماء ، (إن الباغي له مصرع) وبغيك يُصرعك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام^(١) .



الملحق رقم (٩)

خط سير الصليبيين إلى بحر أشموم اطناح

نقلاً عن: (يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، ص ١٤٦)